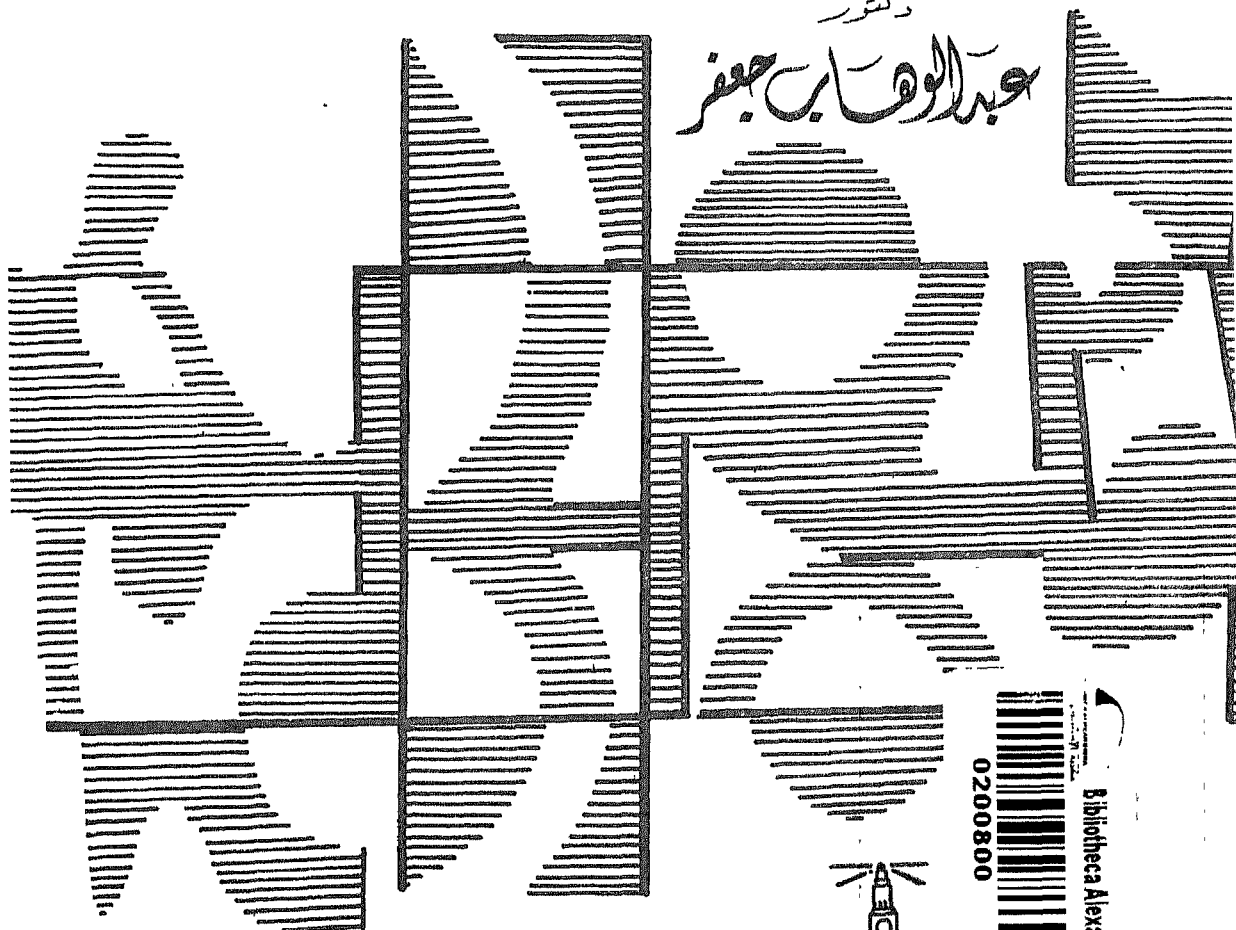


# البنوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكو

دكتور  
عبد الوهاب جعفر



المعارف

0200800



Bibliotheca Alexandrina



النبوية بين العلم والفلسفة



# الإنشوية بين العلم والفلسفة

عند  
ميشيل فوكو

تأليف

ديتو. عيسى. إبراهيم

أستاذ الفلسفة المساعد بكلية الآداب  
جامعة الإسكندرية

١٩٨٩



دار المعارف



## «تصدير»

يعالج هذا الكتاب موضوعاً من أحدث موضوعات الفلسفة . إذ أن البنيوية وهى عنوان هذا البحث هى آخر الإتجاهات الفلسفية التى إنتهى إليها الفكر الإنسانى بعد أن تعلق طويلاً باتجاهين : إتجاه إلى الذات المشخصة وإعتبارها محور التأمل الفلسفى ، وإتجاه آخر مضاد لا يعنى بغير الظواهر المحسوسة ويؤدى إلى ظهور الفلسفة الوضعية ثم الوضعية المنطقية بصورها العديدة . والأمر الذى يجب أن نشير إليه هو أن البنيوية تعد ثورة على كلا الإتجاهين . فهى لا تعنى بالمفرد المشخص أو «بالأنا» التى يتغنى بها الوجوديون ، كما لا تعنى بـ «نحن» التى ينشغل بها الإجهائيون ، ولا تنسب دراستها على العلاقات المحسوسة فى المجتمعات أو بين الأفراد ، بل هى تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ، لأنها تريد الكشف عن باطن الظواهر أو البنية التى تؤسسها .

وتنصب الدراسة فى هذا الكتاب على تطبيق المنهج البنيوى فى مجال البحث الإبستمولوجى (أى المعرفى) . ولما كان التحليل البنيوى بوجه عام ينصب على الدراسة الحالية للموضوع ، وهى الدراسة التى تستبعد أى تدخّل للذات أو الشعور ، لذا فقد إستحدث ميشيل فوكوّه تساؤلاً فلسفياً جديداً عن البنية المعرفية السائدة فى حقبة معينة والتى تبرر ظهور العلم والتفلسف معاً فى تلك الحقبة . وقد بين المؤلف أن منهج فوكوّه هو وصف أحداث المقال باعتبارها مجالاً للبحث عن وحدات . وهو وصف يتميز عن التحليلات اللغوية والمنطقية . ويستخدم فوكوّه كلمة «منطوق» للإشارة إلى «حدث مفرد» فى مقابل مجموعات المنطوقات التى تسمى «مقالاً» كما يستخدم كلمة «أركيولوجيا»

للدلالة على منهجه في البحث ، وهو المنهج الذى يتلخص فى وصف صور تبعر المنطوقات . وقد عرض الباحث كيف حاول فوكوه أن يفرق بين منهجه وبين علم تاريخ الأفكار . فهذا الأخير يستند إلى «الذات» لما لها من دور مؤسس فى مجال المعرفة بينما كان الفكر عند فوكوه يتعرى تماماً من أى كوجينو . ويرى القارئ فى هذا الكتاب أن فوكوه يتحدثنا عما يسميه حقبا منطوقيه أى مجموع العلاقات التى تربط بين الممارسات المقاتلية فى عصر معين ، ودى الممارسات التى تؤدى إلى أشكال معرفية وعلوم وأنساق صورية. وللتدليل على صحة المنهج الأركيولوجى وما توصل إليه من عدم الاعتراف بالإسمرارية فى المزال أو فى الوسمات المعرفية بين فوكوه أن المنطوقات التى تنسب إلى علوم الباب النقى قد جمعت، منذ القرن السادس عشر فى وحدة زائفة ، وكان بعضها موضوع وهمى أطلق عليه اسم «الابن» ، فى حين أن الجنون ظاهرة ثقافية تشير حسب متغيرات العصر ، كما أن الكلمة لم تحتفظ بمفهوم أرحد على مر العصور . وأخيراً فقد بين فوكوه أن أركيولوجيا المعرفة فى تاريخها إلى السلم إنما تبدأ بالممارسة المقاتلية. ويمر بالمعرفة وذلك بدلا من الطريق التقليدى الذى يبدأ بالشعور ويمر «بالمعلومات» ، ثم يصل إلى العلم .

والأمر الذى لا شك فيه أن معالجة الموضوع بهذا الأسلوب وعلى هذه الصدارة التى ساقها المؤلف إنما يعد إسهاماً جديراً بالتنويه ومعالجة جادة لموضوع جديد فى الفكر العالمى المعاصر ومحاولة متممة لربط مفاهيمنا العربية فى الثقافة وفى العلم بتلك المفاهيم العالمية .

ولا شك أن المؤلف يستحق كل الثناء على ما بذله من جهد فى معاناة



هذا الموضوع وفي سبر أعماقه بأسلوب علمي رصين حظي منه بتقدير المختصين .  
والله نسأل أن يوفقه إلى مزيد من الإنتاج العلمي في هذه الميادين التي تعتبر  
من الدعائم الرئيسية للثقافة الغربية المعاصرة والتي علينا أن ننهل منها بالقدر  
اللازم لإثراء ثقافتنا وحضارتنا المعاصرة في الوطن العربي الكبير .

دكتور محمد علي أبو ريان

أستاذ ورئيس قسم الفلسفة

بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية



## مقدمة

يقول أحد الكتاب المعاصرين : «إن البنيوية هي سيدة العلم والفلسفة رقم واحد . بلا منازع . ابتداء من سنة ١٩٦٦ حتى اليوم» (١). ولعله كان يضع في اعتباره عند تحديد هذا التاريخ ، تاريخ ظهور كتاب «الكلمات والأشياء» للفيلسوف ميشيل فوكو . فقد كان هذا الكتاب بحق أول تطبيق للاتجاه البنيوي في مجال البحث الاستمولوجي ، وبه أصبحت البنيوية سيدة البحث الفلسفي .

غير أن البنيوية قد سادت العلم قبل ذلك بكثير . ففي سنة ١٩٥٥ ظهر كتاب «الآفاق الخزينة» للعالم الأنثروبولوجي ليثي ستروس (٢) ، واعتبره الباحثون بداية لظهور البنيوية على مسرح الفكر (٣) ، رغم أن العالم الأولى لهذا الاتجاه قد رسمتها الأبحاث اللغوية في بداية هذا القرن ابتداء من ظهور محاضرات فرديناند دي سوسير (٤) في علم اللغة سنة ١٩١٦ .

البنائية والبناء : (أو معنى البنيوية)

و السؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن هو «ما البنائية ؟» . «البنائية» هي

(١) الدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، (مكتبة مصر - ديسمبر ١٩٧٦) ، ص ٥٧ .

(٢) Lévi-Strauss : „Tristes Tropiques,, , Plon, 1955) (٢)

(٣) راجع : «المدخل الفلسفي للأنثروبولوجيا البنائية» ، (رسالة ماجستير للباحث سنة ١٩٧٥ مكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية) ، ص ٢٨ .

(٤) عالم لغة سويسري ، ولد في جنيف (١٨٥٧ - ١٩١٣) . وقد قام أحد تلامذته بنشر

محاضراته بعد موته سنة ١٩١٦ . ونلاحظ أن سوسير كان يستخدم كلمة «نسق» 'système' أما كلمة «بناء» فلم تظهر بعد ذلك إلا في مؤتمر «براج» لعلماء اللغة سنة ١٩٢٩ .

من «البناء» أو «البنية». و«بنية» الشيء في اللغة العربية هي «تكوينه» ، وهي تعني أيضاً «الكيفية» التي شيد على نحوها هذا البناء أو ذاك . وحين نتحدث عن البناء الاجتماعي أو بناء الشخصية أو البناء اللغوي ، فإننا نشير بذلك إلى وجود نسق عام ، أهم ما يتصف به هو عنصر النظام . فالبناء هو صورة منظمة لمجموع من العناصر المتناسكة . ومن هنا فإن التعريف المبدئي للبناء أو البنية Structure يقوم على اعتباره مجموعة من العلاقات الثابتة بين عناصر متغيرة يمكن أن ينشأ على منوالها عدد لا حصر له من النماذج

ولتبسيط معنى البناء، أورد كليرامبار André CLERAMBARD مثالا محسوساً هو مثال السيارة . فتحليل بناء السيارة لا يعني تفتيتها إلى قطع صغيرة بل يعني تمييز عناصر المحرك بعضها عن بعض ، وكذلك تمييز بقية العناصر في جسم السيارة حتى يتسنى لنا معرفة استخدام كل عنصر أو على الأصح ما يساهم به كل عنصر في تحقيق الهدف الذي صممت السيارة من أجله. وهذا الهدف هو الذي يضمن ترابط جميع العناصر المكونة للكل أي البناء (٥). ويلاحظ أن «البناء» ، في هذا المثال ، يتوفر على عنصر النظام وتماسك الأجزاء كما يتوفر على «القانون» الذي يفسر تكوينه ، وهو الهدف أو الوظيفة ، كما أنه يسمح بأن ينشأ على منواله عدد لا حصر له من النماذج .

غير أن البنائيين في دراستهم للظواهر البشرية وغير البشرية لا يتوقفون عند المعنى التجريبي الذي يضعه الواقع بين أيديهم — على نحو مباشر — بل إلى الكشف عن «النسق العقلي» أو «القانون» الذي يخفي خلف الظواهر المحسوسة . وهم في هذا يخالفون ما درج عليه الاجتماعيون قبلهم من النظر إلى

---

(٥) André CLERAMBARD : "Structuralisme" in (Dictionnaire (•) des Grandes Philosophies, Privat, Toulouse, 1973).

نستق العلاقات والتفاعلات الاجتماعية الظاهرة باعتبارها كافية بذاتها .  
فالأنثر وبولوجيا البنائية مثلاً عند ليثى ستروس تبحث عن تفسير هذا النسق  
فى « بناء » مستتر Une Structure sous-jacente ، ولا شعورى ،  
ويتصف بالثبات ، وهو بالنالى لا يدخل فى نطاق الظواهر الملاحظة .  
ولتوضيح ذلك نقول أنه إذا كان « التبادل » échange هو القاسم المشترك فى  
عدد كبير من النشاطات الاجتماعية التى تبدو غير متجانسة فيما بينها ، فإنا -  
مع ذلك - لا نرى « التبادل » ضمن الظواهر فى الواقع : لأن الملاحظة  
الأمبيريقية لا تسجل إلا حالة طرف أول يقدم عطاء ، وطرف آخر يقبل  
العطاء ثم يحاول أن يرد بعطاء مماثل ( donner, recevoir, rendre ) . وواضح  
أننا لا يمكن أن نفترض وجود قوة فيزيقية فى الأشياء تجعلها متبادلة خصوصاً  
وأن الأشياء المتبادلة ليست كلها مادية ، إذ هناك اشارات ومجالات لفظية هى  
الأخرى قابلة للتبادل . ولا منر إذن من النظر إلى التبادل على أنه « بناء » يصدر  
مباشرة عن « الوظيفة الرمزية » (٦) . وهذا لا يستتبع بالضرورة أن يكون  
للأفراد فى المجتمع أى معرفة مسبقة بمبدأ « المبادلة » réciprocité الذى  
يحكم تصرفاتهم تماماً كالشخص الذى يتكلم لغة معينة ولا يتحتم عليه أولاً  
أن يقوم بتحليل لغوى للغة .

وهكذا يكتشف ليثى ستروس بناءاته بطريقة استنباطية ويتصورها فى  
شكل هرمى يعلوه بناء البناءات أو ما يسميه هو « ترتيب الترتيب » Ordre des ordres .  
ويتضح مما تقدم أن « البناء » هو مبدأ الظاهرة الاجتماعية وهو المبدأ المفسر  
لها فى نفس الوقت . كما يتضح أن البناءات لا تحتم فقط ما يقوم به الأفراد

(٦) المقصود بالوظيفة الرمزية عند ليثى ستروس ، هو اللاشعور ، وهو عنده ذو طبيعة منطقية

من نشاط ، بل أنها تعمل في غياب الأفراد . ذلك أن الأفراد في المجتمع هم «ملك البناء أكثر من كونهم يمتلكون له Elle les a plutôt qu'ils ne l'ont وهذه هي بادرة موت الإنسان في المفهوم البنائي ، أو « أقول البشر » la crépuscule des hommes على حد تعبير ليبي ستروس (٧).

وإذا انتقلنا إلى علم اللغة البنائي la linguistique structurale فإننا نلاحظ أنه يحتل مكان الصدارة بالنسبة لجميع الأبحاث البنائية . ذلك أنه إذا صح أن الأفراد في جميع المجتمعات يمارسون علاقات تبادل échange ، فإن تبادل الاشارات اللغوية هو أكثر هذه العلاقات عمومية حتى أن ما عداها من علاقات التبادل مثل تبادل المتاع والتبادل الاقتصادي وتبادل النساء لا بد وأن تترجم مباشرة أو بطريق غير مباشر إلى تبادل لغوي . ولذا كان هذا الأخير بمثابة المدخل المنصل لكل دراسة اجتماعية .

إن موضوع علم اللغة هو الانتقال من دراسة الظواهر اللغوية الشعورية إلى (بنائها التحتي) اللاشعوري . وينص منهج علم اللغة على أن الإشارة اللغوية ليست وسيطاً محايداً بين الشيء والتعبير عنه ، بل إنها تنشئ علاقة بين مدلول signifié (هو ما يريد المتحدث أو الرسالة المراد تبليغها) وبين رمز دال signifiant (هو الوسيلة الصوتية الشفهية أو المحررة كتابة والتي يجب أن يمتلكها نفس هذا المتحدث لكي يكون مفهوماً لمستمعيه). وبعبارة أخرى فإن موضوع علم اللغة هو نسق الرموز système de signes الذي ينشأ عن حتمية الاتصال بين فئتي الدال والمدلول على اعتبار أن الأولى صوتية sonore أما الثانية فهي تصورية conceptuel (٨) ويرفض منهج علم اللغة

(٧) راجع : «المدخل الفلسفي للأثروبولوجيا البنائية» ، (سبق ذكره) ، ص ١٠٤ .

(٨) نفس المرجع ، ص ٢٥ .

اعتبار الألفاظ termes كوححدات مستقلة ، ويجعل التحليل قاصراً على العلاقات بين هذه الألفاظ . فتعريف اللفظ في علم اللغة لا يكون بنسبته إلى مدلول ، وإنما يكون بعلاقته بألفاظ أخرى من نفس اللغة ، وذلك ما يسمى في المنطق «التعريف الاسمي» . ولما كانت اللغة هي نسق نمر من خلاله جميع الرسائل التي يريد المتحدث أن يوصلها إلى الآخرين ، لذا فإن كل الرسائل ينبغي أن تتبع قوانين هذا النسق . وقد كان هدف علم اللغة هو البحث عن هذه القوانين العامة وتعريفها حتى يصل إلى الخصائص العامة للغة بطريقة استنباطية (٩).

وقد توصل علم اللغة إلى نتائج عامة بعد ظهور الفونولوجيا (علم الأصوات) على يد العالم الروسي نيقولا تروبتسكوى Nicolas TROUBETSKOY (١٨٩٠-١٩٣٨) . وكان المبدأ الأساسي في النظرية الفونولوجية هو إضفاء مضمون ملموس على الفكرة القائلة بأن اللغة «نسق» تسوده العلاقات القائمة بين الوحدات الصوتية هي «الفونيمات» phonèmes وهي ذات عدد ثابت ومحدد في كل لغة من اللغات (ما بين عشرين وأربعين). ومثالها في اللغة العربية «ت» و«ط» و«د» و«ذ» و«ض» ، الـ «ح» والـ «ع» . وتقوم الفونولوجيا على وصف هذه الوحدات الصوتية التي تؤلف المستوى «الدال» للغة . وهي تبين أن أى صوتين من أصوات اللغة يصبحان «فونيمين» (متنى «فونيم» phonème) إذا كان من شأن إحلال الواحد منها محل الآخر في أى سياق لغوى واحد بعينه أن يحدث تغييراً في المعنى (١٠) . وقد استطاع جاكوبسون (١١) - في تحليله

(٩) نفس المرجع ، ص ٢٦ .

(١٠) زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ٦٥ .

(١١) جاكوبسون Roman JAKOBSON هو من مؤسسى الفونولوجيا ، ولد في

موسكو سنة ١٨٩٦ .

الفونولوجى — أن يكشف عن وجود نسق أو «نظام» من المتقابلات الصوتية الأساسية opposés (التي يبلغ عددها اثني عشر تقابلاً مزدوجاً) ، قال عنها أنها تمثل النظام الفونولوجى الأصلى الذى تستمد منه كل لغة نستنها الفونولوجى الخاص . وربما يعنى هذا أن هنالك كليات universaux على مستوى التنظيم الصوتى للغات (١٢).

وإذا أردنا أن نلخص أهم النتائج التى توصل إليها علم اللغة فى ضوء ما أسفرت عنه الأبحاث الفونولوجية ، فإننا نستعين بالدراسة الرائدة التى قدمها العالم الهولندى بوس H.J.Pos فى حلقة اللسانيات التى عقدت فى مدينة براج عام ١٩٣٩ ، وفيها يقرر : (١٣).

أولاً : أن الأبحاث الفونولوجية قد أفسحت الطريق أمام البحث عن فكر لا شعورى وراء الأنساق الصوتية . فالنسق الصوتى système phonique لا يرد إلى مجموع العناصر المترابطة فيما بينها بعلاقات تقابل opposition ، بل إن هذه التقابلات ذاتها هى المكونة لواقع النسق . وذلك لأن الفرد الذى يسمع اللغة لا يمكنه أن يتعرف على «الفونيات» إلا بفضل ما يوجد بينها من تمايز أو تقابل ، بل إنه قد يتعذر عليه تماماً أن يتعرف على الفونيات ذاتها منفصلة عن هذا التقابل . غير أن هذا لا يعنى أن وجود علاقات التقابل يلغى وجود المضمون المادى للعناصر المتقابلة . فالتقابل هو الصورة forme التى تستند إلى مضمون contenu .

(١٢) نلس المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(١٣) H.J. Pos : "Perspectives du structuralisme", dans : (Travaux du Cercle linguistique de Prague 8. ), Prague, 1939, PP. 71 — 78.

هذه النسخة مودعة بمكتبة قسم الصوتيات بكلية الآداب جامعة الاسكندرية .



ويرى الأستاذ بوس أن هذه العناصر المترابطة بعلاقات تقابل ، إنما تكشف عن تناسق تام يجعلنا نبحث عن فكر لا شعورى وراء هذه الانساق الصوتية .

ثانياً : إذا كان كل فرد ينتمى إلى وحدة لسانية معينة : يستخدم عدداً من الأنماط الصوتية *de sons-types* هي التي تكون اللغة ، وإذا كانت هذه الأنماط متماثلة بالنسبة لجميع الذوات . فإن هذه الظاهرة إنما تؤكد فكرة الغائية اللاشعورية التي لا تتوقف عند حدود الفرد بل تتعداه ، وذلك لأنها تمدّه بوسيلة للتفاهم لا يضارعهما أى مشروع مصطنع إقامة البشر . هذا بالإضافة إلى ما نلاحظه من وجود نظام داخلي يجعل من فونيمات اللغة شيئاً آخر أكثر من مجرد تجميع عشوائى . وكل ذلك يجعلنا نفتتح بأن نفس الغائية اللاشعورية التي تتحكم في الجسم الانسانى تقوم بعملها في اللغة ، وأنه ليس نتصور من المستبعد أن نتصور اللغة كعضو في جسم المجتمع البشرى .

ثالثاً : إن التحليل العميق للتواصل عن طريق اللغة ، إنما يبين كيف أن اللغة إلى جانب القيم الاجتماعية والأخلاقية والثقافية ، تكون تعبيراً عن واقع روحى *Réalité spirituelle* يشمل جميع الأفراد ويعنى بالنسبة لهم مصدراً (وسبباً) لوحدهم . وهنا يتضح أن الفونولوجيا تكشف عن ميثافيزيقيا للتفاهم البشرى هي سند لعلوم الأخلاق .

رابعاً : إن هذه الأبحاث إنما تجذب الأنظار نحو بنية معقولة *structure intelligible* لنسق فونولوجى قد يظن أنه نتاج فكرى ، رغم أنه ليس ثمرة لتفكير أى فرد .

ويتبين من هذه النتائج أن التحليل الفونولوجى كان رائداً بمعنى الكلمة في مضمار الدراسات البنائية المنهجية .

ومن هذا العرض الموجز للبنائيات الانثروبولوجية واللسانية يمكننا أن نستخلص أهم أساسيات المنهج وهي :

١ - إن تفسير الظواهر يبدأ فقط عندما نتوصل إلى تركيب الموضوع constituer l'objet . فالعلوم اللسانية باستخلاصها اللغة من الكلام استطاعت أن تعطي لنفسها موضوعاً للدراسة الداخلية étude interne ، وهي دراسة لا تهتم إلا بعلاقات الاشارات اللغوية داخل نسق لا يهتم إلا بتنظيمه الخاص به . وفي هذا يقول فرانسوا قال F. WAHL وهو الذى أشرف على مجموعة دراسات بعنوان : « ماهى البنائية ؟ » «إننا لا نطلق لفظ «بنائية» على أى معنى يتعامل مباشرة مع الموضوع . فالتعامل يكون دائماً مع بديل للموضوع ومع كل ما يترتب على وجود هذا البديل » (١٤). وفي هذا المعنى يقول ميشيل سيرس SERRES : «لقد كانت البنائية منذ عشرين عاماً بمثابة فن تأليفى art combinatoire يقوم على فصل العناصر المكونة للقطاعات المدروسة ، وذلك لكى يعيد تأليفها من جديد» (١٥) وسنرى أن ميشيل فوكوه فى دراسته الابستمولوجية ، يطالب - هو الآخر - بإعادة النظر فى القطاعات المعرفية المعروفة ، والوحدات المسماه علوماً ، وذلك بهدف البحث عن وحدات أخرى أكثر واقعية .

٢ - إن موضوع الدراسة البنائية لا يمكن أن يتطابق مع الواقع الحسى . وقد رأينا أن النسق الفونولوجى ليس مجموع العناصر الصوتية ، بل مايوجد

(14) WAHL François : " Le Structuralisme en philosophie" in " Qu'est-ce que le structuralisme" Travail collectif, (Seuil, 1964), P. 11.

(15) Jean LACOSTE : Entretien avec Michel SERRES " : dans (La Quinzaine Littéraire, No. 252 du 16 Mars 1977).

بين هذه العناصر من علاقات تقابل . كما رأينا أن ليثى ستروس لا يوحد بين البناء structure وبين العلاقات الاجتماعية ، فهذه الأخيرة كانت في نظرة بمثابة المادة الأولية التي يركب الموضوع ابتداء منها ، وهي في ذلك تماثل الألفاظ والجمل والقضايا التي يبدأ منها التحليل «الاركيولوجي» . البناء إذن ليس واقعاً حسيّاً ، إنه ذكاء صوري *intelligence formelle* يعمل على تصفية الواقع *qui épuise le réel* (١٦) . يقول ليثى ستروس : «إما أن ينجح التحليل البنائي في تصفية كل السمات الملموسة للموضوع ، وإما أن نفقد الحق في تطبيقه على أي من هذه السمات» (١٧). ومع ذلك ، فإن البناءات ليس لها وجود صوري ، كما أنها ليست ماهيات متسامية ، بل إن لها وجوداً خارجياً يجعلها مصدر العلاقات المرئية (١٨) .

٣ - إن التحليل البنائي يجب أن ينصب أساساً على الدراسة الحالة للموضوع *étude immanente de l'objet* . وهذه الدراسة الحالة (أو المحاشية) تفترض استقلال الموضوع بالنسبة لملاساته التاريخية والجغرافية أو الوجودية لأنه نسق ديناميكي يخضع لسلسلة من التغيرات الباطنة دون تدخل أية عوامل خارجية . وقد كان الحلم الأكبر للكثير من «البنائيين» هو تثبيت البناءات فوق دعائم لازمانية شبيهة بدعائم الأنظمة المنطقية الرياضية .

٤ - أن الدراسة الحالة تفترض احتواء الموضوع على معقولية ذاتية

---

(١٦) Louis MILLET : "Le Structuralisme" (Psychothèque, Editions Universitaires, 1970), P. 56.

(١٧) LEVI-STRAUSS : "Le Cru et le Cuit" (Plon, Paris, 1964), P. 155.

(١٨) Jean PIAGET : "Le Structuralisme", (que sais-je, P.U.F.), P. 94.

ومستقلة *une intelligibilité intrinsèque et autonome* فهو يتضمن في ذاته تفسير طبيعته ووظيفته لأنه بناء *structure* ، ومزود بقوانين تنظيم داخلية *autoréglage* ، ننفذ اليها عن طريق التحليل .

٥ — هذه الدراسة الحالة تستبعد أى تدخل للشعور *conscience* لأن الشعور ربما يدخل في التفسير مبدأ متسامياً *un principe transcendant* يهدم النظام الباطنى الصارم لترتيب الظواهر .

وقد كان لابد لهذه الدراسات البنائية من أن تدخل في صراع مع اتجاهات الفكر الجدللى ومع المتمسكين بالنزعة الإنسانية . كما كان لابد لها من أن تصطدم بالآراء القائلة بالاتصال التاريخى خصوصاً وأن البناءات تتصف بالثبات أو بعلاقات ثابتة وراء المتغيرات . غير أننا لا نود أن نتعرض لتفاصيل هذا الخلاف ضمن هذه العجالة السريعة ، وربما اضطررنا للتعرض له في مواضع أخرى فيما بعد .

#### البنائية بين العلم والفلسفة :

أما التساؤل الذى يفرض نفسه الآن ، فهو على وجه التحديد ما يلى :

إذا ظهرت البنائية كاتجاه للبحث في العلوم ، بدأ بعلم اللغة ، واشتهر في الأنثروبولوجيا وعلم النفس ، وحقق إنجازات لا يستهان بها في علوم أخرى (١٩) ، فما علاقة ذلك كله بالفلسفة ؟

وللرد على هذا التساؤل نقول أن الانجازات البنائية في العلم قلما خلت

---

(١٩) لمن أراد الاطلاع على هذه الانجازات يمكنه الرجوع الى مؤلفين من أمثال :  
Parian - Vial, Piaget , Boudon .

(أنظر قائمة المراجع) .

من أبعاد فلسفية . وربما اتضح ذلك - فيما ذكرناه آنفاً - من سرد النتائج التي توصلت إليها أبحاث الأنثروبولوجيا البنائية وعلم اللغة البنائي . صحيح أن البنائية قد ظهرت في الأصل كتعبير عن حاجة الإنسان المعاصر إلى «نظرية في العلم» . ولكن من المؤكد أن إعطاء الصدارة أو الأولوية للـ «نظر» ، والبحث عن «لغة علمية» قصوى لم يخولا دون ظهور «البنوية» (أو البنائية) بمظهر «الموقف الفلسفي» ، وبالتالي فانهما قد خلقا من معارضة البنوية للفلسفة ، صورة جديدة من صور «التفلسف» ! (٢٠).

ويتضح هذا «الموقف الفلسفي» من الحوار المكثف بين أقطاب البنائين وبين الفلاسفة وعل رأسهم الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر . وقد بينا ذلك في بحث سابق حصلنا به على درجة الماجستير في الآداب بعنوان «المدخل الفلسفي للأنثروبولوجيا البنائية بين ليثي ستروس وسارتر» ، ونقتصر هنا على القول بأن هذا الحوار قد أسفر عن تنطرق البنائين لموضوعات فلسفية من الدرجة الأولى . وربما قادهم إلى «دوهماتية» من نوع جديد. «فالتقدم في نظرهم أصبح «خداعاً بصرياً» ، «المبادرة التاريخية» هي محض «سراب» . و«الفكر» ليس سوى سهم خاطف يخترق الإنسان كومة البرق دون أن يعرف له بداية (أصلاً) أو نهاية . وباختصار أصبح الإنسان مفعولاً به لافاعلا (٢١).

ولم يكن هذا غريباً على تجاه مولع بالنسق système . فالبنائيون على الرغم مما يتصفون به من صرامة في التفكير إلا أنهم يميلون إلى تفضيل النظام

(٢٠) زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ٢٧ .

(٢١) راجع أيضاً :

زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، نفس الموضوع . ونلاحظ أن جميع هذه النقاط ستوضح من عرضنا للدراسات الأركيولوجية عند ميشيل فوكو .

على التغير . ولهذا فهم ضد التاريخ ، لأن التاريخ يهدم ، أما النسق فيتصف بالثبات . والنسق الغفل هو سيد الانسان العائش . وهو لهذا يقترن بصفة الاجبار .

يقول ليثى ستروس : «لكى نتوصل إلى الواقع ينبغي أن

نستبعد المعاش» (٢٢). Pour atteindre le reel, il faut écarter le vécu.

وإذا استبعدنا المعاش ، فاننا نستبعد تعبيرات مألوفة عاشت عليها الفلسفة حتى الآن مثل «أنا أفكر» ، «أنا أسمع» ، «أنا أعمل» ، ويتبع ذلك أيضاً رفض أى نشاط تلقائى للشعور.

ونلاحظ أن البداية الابستمولوجية التى كانت تستهدف الحلز والحرس على الموضوعية تصبح المبدأ الميتافيزيقى للنسق : فهو (أى النسق) «تفكير بارد يفتقر إلى الحماس ، لا علاقة له بأشخاص impersonnel ، شيد بعيداً عن الذات الفردية أو الجمعية ، ولا يعترف بوجود ذات قادرة على التعبير وعلى العمل المستقل» (٢٣).

هذا هو الموقف البنائى الفلسفى الذى انبثق عن تمسك البنائيين بإنجازات العلم وعن رفضهم لفلسفات الذات ، والذى أصبح منظوراً فكرياً يحمل بين طياته انقلاباً فلسفياً حقيقياً ، ويمثل ثورة كوبرنيقية من نوع جديد .

والسؤال الآن هو : هل أصبحت البنائية مذهباً فى الفلسفة أم ظلت منهجاً

فى العلم ؟ .

(22) Claude LEVI-STRAUSS : "Tristes Tropiques", (Plon, (٢٢) 1955), P. 63.

(23) J.M. DOMENACH : „Le système et la personne" in (٢٢) (Esprit, Mai 1967), PP. 772—773.

لقد أجمع الباحثون على أن البنائية ليست مذهباً فلسفياً ينبثق عن مدرسة فكرية واحدة ويمكن أن يقارن بالمذاهب «الوجودية» أو «الماركسية». وفي هذا يقول جان لاکروا :

«ليس ثمة مذهب (بنائي) ... ، بل إن هناك — وهذا أمر له مغزى أعمق ودلالة أكبر — لقاءً ذهنياً بصفة عامة ، ومنهجياً بصفة خاصة ، بين مفكرين متباينين يعيشون معاً عصراً واحداً بعينه ، ألا وهو عصر انتهاء الأيديولوجيات ، وربما أيضاً عصر انتهاء «النزعة الإنسانية» — من حيث هي صورة من صور الأيديولوجيا — . والحق أن كل ما يجمع بين ليئي ستروس ، وفوكوه ، ولاكان ، والتوسير (وهم فرسان البنائية الأربعة ) ، إنما هو ذلك المشروع العلمي الذي أرادوا تطبيقه على معرفتنا بالإنسان ...» (٢٤).

أما أن البنائية قد ظلت منهجاً في العلم ، فهذا ما يردده جميع البنائيين على الرغم من إجماع الباحثين على عدم وجود منهج بنائي موحد يمكن أن يطبق على جميع مجالات البحث (٢٥) ، وعلى الرغم من أن البعض منهم قد شك في إمكانية قيام أي منهج بنائي (٢٦).

ويتضح مما تقدم أن البنائيين يستنكرون التفلسف رغم أنهم يتفلسفون ، كما أنهم يصرون على اتباعهم للمناهج العلمية رغم تعذر إخضاع مناهجهم لأي تحديد.

(٢٤) زكريا إبراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ٢٤ .

(٢٥) Prierre CRESSANT, "Lévi-Strauss", (Psychothèque, Ed. (٢٥) Universitaires, 1970), P. 9.

(٢٦) زكريا إبراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ٢٤ .

ومهما يكن من شيء ، فقد تبين الآن صعوبة الحسم فيما يختص بالوضع الحالي للاتجاهات البنائية وهل هي علم أم فلسفة ؟ وربما جاءت صعوبة الحسم هنا من أن التساؤل ينطلق من منظور تقليدي أراد أن يضع حداً فاصلاً بين العلوم والفلسفة في حين أن اتجاهات الفكر المعاصر إنما ترنو إلى انتهاء القطيعة بين الأم وبنيها وإلى جمع الشمل مرة أخرى بعد أن تجرّع الأبناء من كأس جحودهم وبعد أن قادتهم الفرقة إلى رماد (٢٧).

إن أصدق ما يقال عن الدراسات البنائية المعاصرة هو أنها اتجهت في البحث بين العلم والفلسفة .

ظهور البنائية :

من الممكن للباحث أن يقوم باستقراء عوامل كثيرة وعناصر ثقافية متباينة ، إذا كان بصدد البحث عن قيام هذه الحركة الفكرية الكبرى التي «أبلا أنصارها وخصوصاً الملايين من الصفحات ، إن في مدحها والثناء بها ، أو في ذمها والانتقاص من قدرها » (٢٨) .

غير أن الباحث المدقق لابد وأن يشير إلى هذه العوامل أو تلك العناصر ، لأعلى أنها أسباب متفرقة متناثرة بل باعتبارها مجموعاً متكاملًا أو «بناء» متناسقاً استلزم هذا الانبثاق الفكري .

(٢٧) وفي هذا المعنى يقول المفكر المعاصر ادجار مورين Morin :

إن التخصصات العلمية الدقيقة جعلت الطلاب يفقدون القدرة على تحمل ما يدرسون ، وأصبح من الصعب على الطالب أن يجيب عن التساؤل : من أنا ومن نحن في هذا العالم ؟ ؟ .

Voir :

Jean-Paul ENTHOVEN : «Les Trois visages d'Edgar Morin» (Entretien dans Le Nouvel Observateur du 16 Mai 1977.)

(٢٨) زكريا إبراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٢ .



وابتداء من هذا المنطلق يصرح فوكوه بأن البنائية «هي الضحير المتيقظ والقلق للمعرفة الحديثة» (٢٩).

Le structuralisme c'est la conscience éveillée et inquiète du savoir moderne.

وإذا صح أن «الفيلسوف يستحدث لغة عصره»، أو أن «الفلسفة ترد إلى المجتمع الذي نعيش في كنفه صورته الخامسة، على نحو ما تنصورها»، أو أنها «تعبير نظري عما يحدث في بيئة الفيلسوف»، فقد كانت البنائية، بحق، أصداق تعبير عن كل هذه الأتوال. ذلك لأن المجتمع الأول، في المعاصر هو مجتمع قسر وجبر واغتراب!

يقول محرر مجلة الروح Esprit (عدد يوليو / أغسطس سنة ١٩٧٧):

«إن أبشع استغلال هو الذي يدمر أنماط الحياة التلافية...  
فهيئات المجتمع المعاصر ونظمه فاع حوات  
المواطنين إلى مستهلكين وحولت العامل إلى أداة.  
هذا بالإضافة إلى أن المؤسسات الرأسمالية أصبحت  
تتحكم في ألوان الثقافة وفي الإعلام. بل وأصبحت  
تحتكر الرأي العام وتعبئة لتعصدة قضاياها».

ويقول المفكر المعاصر إدجار مورين Edgar MORIN :

«إن السلطة القائمة على القهر قد استفادت من  
إنجازات العلم. فأصبح العلم هو العامل المساعد  
للبربرية والقهر. إن بربرية العلم إنما تتحالف الآن  
مع كل الصور التقليدية أو الجديدة للبربرية. وإذا

---

(٢٩) Michel FOUCAULT : "Les Mots et les Choses" , (٢٩)  
(GALLIMARD, 1966), P. 221.

كان ديكرت قد كتب «المقال عن المنهج» لكي يكون الإنسان «سيداً للطبيعة وممتلكاً لها» ، فها نحن قد شهدنا العلم وهو يحاول الإمساك بناصية الأشياء الفيزيائية ثم البيولوجية ، وقد يمسك غداً بناصية التوجيه السيكولوجي . ولعلنا ندرك اليوم أننا بحاجة إلى أن نهدم علاقة السيد بالعبد التي ماأن قامت بين الإنسان والأشياء ، أو بين الإنسان وبين كائنات الطبيعة إلا وقدمت الوسائل الفعالة لاستغلال واستعباد البشر» (٣٠) .

وانطلاقاً من هذه الصورة المتشائمة للإنسان في المجتمع المعاصر ، هل يمكننا النظر إلى البنائية على أنها إيديولوجيا سياسية تعبر عن مصالح البورجوازية الجديدة وذلك بتصرّياتها عن تأزر عناصر النسق (٣١) Consolidation du système . وبعبارة أخرى ، هل يمكننا القول بأن هناك التقاء مباشراً بين مصالح اليمين السياسي وبين الأفكار البنائية ؟ .

يقرر جان بول سارتر بأن هذا الالتقاء حقيقة واقعة ويقول : أن هدف البنائية هو إقامة إيديولوجيا جديدة كانت بمثابة السد الأخير le dernier barrage الذي أقامته البورجوازية أمام التيار الماركسي ؛ (٣٢) . وهذا يعني أن تكون

---

(3) Jean-Paul ENTHOVEN : "Les Trois visages d'Edgar (٣٠) MORIN " op. cit.

(٣١) نلاحظ أن أهم ما يعصف به النسق هو تماسك العلاقات دون أن ينظر باهتمام كبير إلى الأشياء التي يتكون منها هذا النسق .

(٣٢) ذكره :

Jean-Marie DOMENACH : Le système et la personne", op. cit., cit, P. 774

«البنائية» مجرد أداة ذهنية شاء المجتمع القمعي اللجوء إليها لمواجهة دعاة الحرية ولتأخير الزحف الثورى !.

ونحن لا نتعجب كثيراً من هذا الرأى لسارتر ، وهو الذى أصبح يرى فى الوجودية ذاتها «نسقاً طفيلياً يعيش على هامش الماركسية» (٣٣) ، كما يرى فى هذه الأخيرة «فلسفة العصر التى لا يمكن تجاوزها» (٣٤).

أما ما يثير الدهشة حقاً ، فهو أن معظم البنائيين فى فرنسا يتمنون فعلاً إلى اليسار الفرنسى (السياسى) (٣٥) ، مما يدفع عنهم تهمة سارتر السالفة الذكر والحقيقة أن هذا الحكم الجائر ربما كان مرده إلى عدم التعاطف بين تيارين فكريين ظهر أحدهما على أنقاض الآخر . ذلك أن مفاهيم «البناء» و«النسق» و«الدال» و «المدلول» قد اكتسحت المفاهيم الوجودية عن الحرية و«الذات» و «الموجود لذاته le pour-soi و«الشعور» conscience .. الخ . وحولتها إلى صور هزلية (٣٦) .

من المستبعد إذن أن تكون البنائية معبرة عن مصالح البورجوازية الجديدة ، وربما كانت على الأحرى معبرة عن حالة «الضمير القلق» التى أشرنا إليها آنفاً . وفى هذا يرى المفكر جولدمان Lucien GOLDMANN «أن البنائية هى فلسفة مجتمع ييسر لأفراده أحسن الظروف المعيشية ، غير أنه يتدرج فى اعفائهم من جميع المسؤوليات» . (٣٧) وسنرى فى سياق هذه الرسالة أن تصدى

(٣٣) J. P. SARTRE "Critique de la raison dialectique," (٢٢)  
(GALLIMARD, 1960), P. 18.

(٣٤) Ibid., P. 17. (٢٤)

(٣٥) J.-M. DOMENACH : Op. Cit., P. 775. (٢٥)

(٣٦) Roger-Pol DROIT : "Le père et sa divine absence", in (٢٦)  
(Le Monde Hebdo. No. 1468 du 1468 du 16 Décembre 1976)

(٣٧) Voir : (٢٧)

J. — M. DOMENACH : Op. Cit., P. 774.

ميشيل فوكوه للنظم وكشفه عن علاقات السلطة التي يتضمنها المقال محاولة حقيقية منه لتحرير الإنسان يتضاءل إلى جانبها أى معنى تقوم به النزعات الإنسانية .

وإذا كان الوضع الراهن للمجتمع ومؤسساته وثقافته هو القاعدة الأساسية التي انبثق عليها الفكر البنائى ، فإن هذه القاعدة الاجتماعية لم تزال تتوفر على تيارات فكرية أخرى يجدر بنا أن نشير إليها لما فى ذلك من فائدة فى القاء الضوء على ظهور البنائية . وتبدأ بالفلسفة الوضعية ثم فلسفات الوجود والحياة .

### الفلسفة الوضعية :

الفلسفة الوضعية — بوجه عام — ليست مذهباً محدداً بل هى اتجاه أو موقف يصعب تحديده . وهذا الموقف، يتصف بالحدس حيال أى تقرير لا يقره العلم . كما يحجم عن تحديد أى قيم أو غايات . وعلى هذا ، فإن الوضعية تظل صامته حيال المسائل المتعلقة بالإنسان خصوصاً ما لا يقع منها تحت طائلة العلم . والوضعية المحدثة هى الوضعية المنطقية ، ظهرت على يد الفيلسوف النمساوى شليك Schlick (١٨٨٢—١٩٣٦) ، وهو الذى تزعم « حلقة فيينا » عام ١٩٢٩ ، داعياً إلى « فلسفة علمية » مهمتها تخلص الفلسفة نهائياً من كل أسباب اللبس والغموض عن طريق اصطناع منهج « التحليل المنطقي » .

و «الوضعية المنطقية» هى توأم «البنائية» . فى نفس السنة التى عقدت فيها «حلقة فيينا» ، عقدت فى مدينة «براج» حلقة أخرى (سنة ١٩٢٩) عرفت «بحلقة براج لعلماء اللغة السلافيين» Congrès des philologues slaves ، تزعمها جاكوبسون وتروبتسكوى اللذان سبقتا الإشارة إليها . ولأول مرة فى

علم اللغة تحدث المؤتمرون عن «بناء» و «بناءات» لغوية (٣٨) .

ولا يخفى على أحد أن كلتا الحركتين قد استهدفتا مساهمة مناخ العصر ،  
فظهرتا كصدى للاهتمام بالمنهج العلمى على نحو ما عبر عنه كل من بوانكاريه  
ودوهم Duhem ، وأينشتين بل نتيجة لازدهار المنطق الرمزي على يد كل  
من بيانو وفريجه وراسل ووايتهد الخ ..

ولكن ، فى حين أن البنائية لم تترعرع كحركة فكرية الا بظهور كتاب  
«الافاق الخزينة» عام ١٩٥٥ كما سبق أن قدمنا ، فإن الانجيل الحقيقى للوضعية  
المنطقية . وهو كتاب «التركيب المنطقى للعالم» ، قد ظهر قبل ذلك بكثير  
عام ١٩٢٨ لأحد تلامذة «شليك» هو الالماني رودلف كارناب ( ١٨٩١ - )

وقد كانت مهمة الفلسفة - فى رأى كارناب - هى التحليل المنطقى للغة  
ذات المعنى أو الدلالة : أى للقضايا التحليلية (قضايا المنطق والرياضة ) ،  
والقضايا التأليفية القابلة للتحقق تجريبيا ( قضايا العلم الطبيعى) . ولهذا كله  
ينبغى استبعاد الميتافيزيقا والأخلاق وعلم الجمال وجميع «العلوم المعيارية» (٣٩)

وقد استهدف كارناب بالدرجة الأولى أن يجنب الفكر الفلسفى أسباب  
الغموض ، وأن يدعو الفلاسفة الى تحديد ألفاظهم وتحليل عباراتهم . ولكنه  
لم يلبث أن حصر الفلسفة بأسرها فى نطاق ضيق لا يكاد يعدو «التحليل اللفظى»  
و «الأشكال اللغوية» . وإذا فهت الفلسفة على هذا النحو ، فقد يتسبب  
ذلك فى القضاء على خصوصية الفكر البشرى وربما تسبب فى القضاء على

---

(38) J.-B. FAGES : "Comprendre le Structuralisme" , (Privat, (٣٨)  
Toulouuse 1968). ,P. 16.

(٣٩) الدكتور زكريا ابراهيم : «دراسات فى الفلسفة المعاصرة» ، ( مكتبة مصر سنة  
١٩٦٨ ) ص ٢٨٩ .

الفلسفة ذاتها . ومهما اعترفنا بقيمة «التحليل اللغوي» ، فإن الفكر البشرى في حاجة الى فهم العلاقة القائمة بين نظام الأفكار وترباطها من جهة ، ونظام الأشياء وترباطها من جهة أخرى (٤٠) . وهذه هي نقطة الضعف الأساسية والخطيرة والتي تمثل فراغا جعل الفلسفة الوضعية غير كافية بذاتها ، وجعلها تمهد — من حيث لا تدرى — لازدهار الفكر البنائى .

فالنسق البنائى بوجه عام يربط بين الأفكار والأشياء ، كما أن هناك التقاء coincidence بين بناءات الفكر وبناءات الواقع عند معظم البنائيين . وقد أخذ هؤلاء على عاتقهم أن يفضوا سفرات الطبيعة اللاشعورية للظواهر الاجتماعية ، وأن يكشفوا عن الطابع الرمزي للثقافة البشرية في شتى صورها وأشكالها .

أما النسق «السيانطيقى» عند كارناب ، فهو لا يسمح لنا بالبحث في خارجه عن شروط صدق الجمل والقضايا لأن هذه الشروط ينبغى أن تكون متوافرة داخل النسق ذاته (٤١) . ومهما يكن من شئ ، فقد أجمع الباحثون على أن تيار الوضعية المنطقية الذى ظهر في إنجلترا ثم في الولايات المتحدة الأمريكية قد بدأ الآن في الانحسار (٤٢) .

#### فلسفات الوجود :

ربما كان من الممكن للبنائية أن تحقق ازدهارا مبكرا ومعاصرا لازدهار الوضعية المنطقية — وهما توأمتان كما سبق أن قدمنا — لولا هذه الطنطنة

(٤٠) نفس المرجع ، ص ٣٠٥ .

(٤١) نفس المرجع ، ص ٣٠٤ .

(42) J.-M. DOMINACH : OP cit., P. 775.

(٤٢)

الكاذبة التي خلفتها فلسفات الوجود أو ايدولوجيا الوجود كما يحلو لمثلها في فرنسا أن يسميها الآن (٤٣) . نقول «طنطنة كاذبة» لأنها حققت عقب الحرب العالمية نجاحاً مؤقتاً بسبب ترنيمة لثناشيد الشعوب المحتلة وبسبب ما أحدثته من نشوة لدى الراغبين في التمتع بـ (سراب) الحرية : فالوجود يسبق الماهية ، ولا تحديد لـ «طبيعة إنسانية» مخافة أن تتعثر أمامها حرية الفرد .

وكان مسرح الفكر في فرنسا قد شهد ظهوراً خاطفاً لفيلسوف شارك في «حلقة فيينا» هو كافاييس Jules Cavaillès (١٩٠١-) ، وهو الذي ألف كتاباً بعنوان «المنطق ونظرية العلم» ' Sur la logique et la théorie de la science ' ظهر قبل كتاب «الوجود والعدم» لسارتر ، وتحدث فيه عن نسق منطقي لا زماني أي لا يرتبط بالذات الشاعرة . وكان هدف كافاييس أن يبحث عن المنطق الذي يبرر التقدم المستمر للفكر أو ذلك التسلسل الرياضي المتناسك الذي يخضع له النشاط الذاتي كما يخضع له العلم . ويقول عنه أنه «أصيل في ماهيته ومستقل في حركته» (٤٤)

Original dans son essence, autonome dans son mouvement.

أي مستقل عن الذات وتتوافر فيه خصائص النسق البنائي لأنه يرتبط بالواقع التجريبي للعلم .

وهكذا كانت بادرة ظهور الفكر البنائي سابقة على هذه الأيدولوجية

(٤٣) J.-P. SARTRE : "Critique de la raison dialectique". op. cit., (٤٣) P. 18.

(٤٤) Jules CAVAILLES : "Sur la logique et la théorie de la science" , P. 70.

ذكره :

Mikel DUFRENNE : La philosophie du néopositivisme" in (Esprit, Mai 1967), P. 796.

الوجودية : وكان من الممكن للبناية أن تحقق نجاحا مبكرا لولا أن النسق الثقافي الذي يبرر وجودها لم يكن قد اكتمل بعد ، وكان لابد من اكتماله حتى تظهر البناية كتعبير عن «الضمير القلق للمعرفة المعاصرة» ، أو حرص الإنسان المعاصر على الامساك بوحدة الواقع .

وكان فلاسفة الوجود يجمعون على معارضة التجريد . ففي عبارة مشهورة لكبير كجاراد Kierkegaard يقول : «ان اخضاع الوجود للتفكير المجرد يعني حذفه أساسا» ، اذ «لا وجود بلا انفعال» (٤٥) .

Existence ne se peut faire sans passion.

وهذا يعني أن الوجود مرتبط بالذات المشخصة ، وأن الوجود كواقع معاش هو نقطة البدء في التفكير وليس نقطة وصول ، وذلك على الرغم من أن ظروف العصر ليست في صالح الابقاء على الذات — حتى بالنسبة لغير الفيلسوف — لأن هذه الظروف مسببة للاغتراب .

#### فلسفات الحياة : Vitalisme

تتفق فلسفات الحياة على تجنب التعقل المجرد لأن هدفها هو التوصل الى التنظيم الداخلي للكائنات الحية أو ما يسمى بالحياة . وقد بينت الأبحاث العلمية الحديثة أن الحياة هي مبدأ تفسير الظواهر الفسيولوجية والباثولوجية على السواء . وبذلك فإن المذهب الحيوي يتقوض من أساسه .

وقد اهتمت «أركيولوجيا المعرفة» عند فوكوه بالتصدي لمزاعم المذاهب الحيوية . ولهذا سنعود اليها بالتفصيل في الفصل الخامس .

(45) S. KIERKEGAARD, Post Scriptum aux miettes philoso- (٤٥)  
phiques trad. par P. Petit, Gallinard, 1949, PP. 205, 209.

ذكرته :

Angèle KREMER-MARIETTI : „Michel FOUCAULT", (Seghers, 1974), p. 106.



ميشيل فوكوه وأركيولوجيا المعرفة:

ان فرسان «البنائية» الأربعة هم لينى ستروس، وميشيل فوكوه ،  
وجاك لاكان ، ولويس ألتوسير.

وقد قنا بدراسة عن لينى ستروس حصلنا بها على درجة الماجستير كما  
سبق أن قدمنا . ونحاول الآن في هذا البحث أن نكشف عن الجديد الذى  
أضافه فوكوه الى الفكر البنائى بوجه خاص، والفكر الفلسفى بوجه عام .  
وربما أتاحت لنا الفرصة مستقبلا لعمل دراسات مستفيضة عن «لاكان»  
و«ألتوسير» .

وفى هذا البحث الذى يكشف عن مجالات الصراع بين العلم والفلسفة  
وعن محاولة كل منها أن يستقطب الآخر ، نلاحظ أن البنائية ، وقد ظهرت  
أولا كمنهج للبحث فى العلوم ، ربما أسهمت ضمنا اقضاء التفلسف ، لأنها  
تتحدث عن نسق لازمانى وتستبعد تدخل الذات (٤٦) . فعالم النفس البنائى  
جاك لاكان يقرر صراحة بأن أبحاثه تستبعد أى فلسفة. أما صاحب .....  
الأنثروبولوجيا البنائية لينى ستروس ، فانه يقرر بأن الفلسفة لا تنبت فى أرض  
حريتها البنائية (٤٧) . وربما قصد كلاهما أنه من الممكن غزو المجال الذى

(٤٦) سبق أن بينا فى الصفحات الأولى من هذه المقدمة كيف أدى ذلك الى نتائج عكسية . بمعنى  
أن البنائية فى استبعادها للفلسفة قد اتخذت موقفا فلسفيا أبعدا هى تماما عن روح العلم .

(٤٧) François WAHL : Op. cit., P. 302.

ونلاحظ أن كلا من «لاكان» و «لينى ستروس» قد قام بدراسات جامعية . فالأول تخرج  
من كليات الطب ثم حصل على درجة الدكتوراه فى التحليل النفسى عن «علاقة دهان العظمة  
Psychose paranoïaque بأعماط الشخصية سنة ١٩٣٢ ، ثم أنشأ مدرسة  
للتحليل النفسى بباريس سنة ١٩٥٣ . وكانت كتاباته يقلب عليها الطابع الفلسفى وتباعد  
فعلا عن العلم بمنهات التقليدى المعروف . أما لينى ستروس فقد تخرج من قسم الفلسفة ثم قام  
بأبحاث أنثروبولوجية ميدانية استهدفت الكشف عن الطبيعة الانسانية ، وهو الآن أستاذ  
بالكوليج دى فرانس .

سيطر عليه التفلسف مدة طويلة بواسطة العلم . غير أنه قد غاب حتماً عن ذهن كل منها أن أبحاثه يمكن أن تكون موضوعاً لتساؤل فلسفي من نوع جديد . وهو التساؤل عن البناء المعرفي السائد épistémè . والذي يستند اليه العلم والتفلسف معا خلال حقبة معرفية معينة .

ولقد اضطلع ميشيل فوكو بهمة الاجابة عن هذا التساؤل : فهو يسأل كيف بدأت النظريات والمعارف ؟ وما هي الشروط التي حتمت ظهورها ؟ كما يسأل عن مجال ظهور المعرفة بوجه عام والمعرفة العلمية بوجه خاص . وهو يكشف بذلك عن مجال جديد للبحث الابدستمولوجي تلتقي فيه الصيغ الأدبية والقضايا العلمية والفلسفية بل والعبارات اليومية وحتى الهديان القصصى ، واستحق ما قالته أستاذة الفلسفة بجامعة أميان آنجيل كريم مارييتي Angèle KREMER-MARIETTI : «إن ميشيل فوكو قد جدد الفلسفة المعاصرة» .

ولد ميشيل فوكو بمدينة بواتيه Poitiers سنة ١٩٢٦ . وهو فيلسوف وجامعي فرنسي الجنسية . حصل على شهادة الأجرىجاسيون في الفلسفة ، ثم عمل بالتدريس في كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بمدينة «كليرمون - فيران» Clermont-Ferrand ، وأنتدب للعمل بجامعة تونس ابتداء من سنة ١٩٦٦ . وكان حصوله على كرسى الأستاذية بالكوليج دى فرانس في ديسمبر سنة ١٩٧٠ وذلك في تخصص «تاريخ أنساق الفكر»

(٤٨) Histoire des systèmes de pensée

وقد أسس فوكو تخصصاً جديداً أسماه «أركيولوجيا المعرفة» . وكلمة «أركيولوجيا» هنا ، وهى تعنى «علم الآثار» . لا تشير عند فوكو الى علم

(٤٨) Grand Larousse Encyclopédique, "Supplément".

جديد يبحث عن «الأصول الأولى»: بل هي تشير فقط الى «خطة إبستمولوجية لتحليل الأداء اللفظي». وهي تستهدف إعادة النظر في وضع المعرفة ، وتكشف عن صور للتعلل تبرر استخدام مفاهيم العلم ، كما تبحث عن نسق مستتر وراء المفاهيم والتصورات في العديد من التخصصات المعرفية .

### أهمية الموضوع :

إن ما يجذب الانتباه نحو «أركيولوجيا المعرفة» هو أنها نمط في البحث يفتح على الأشكال المختلفة للمقال ، ثم يتجاوزها الى ما يمكن أن يسمى بفلسفة علمية أو إبستمولوجيا علمية . وهذا البحث يمكن أن يندرج تحت أحد العناوين الهامة في الفلسفة المعاصرة ، وهو الخاص «بمكانة وحدود المعرفة العلمية» .

ونحن لا نود أن نقرر سلفاً مع الباحثة جان باران فيال Jeanne PARAIN-VIAL « بأن الأبحاث التي تدور حول مفاهيم العلم وتاريخها وتطور العلوم إنما تتضاءل الى جانب ما قام به فوكوه في هذا المجال » (٤٩) ، لأن مثل هذا الحكم سنتركه للقارئ يحدده وفق ما يخرج به من انطباع . وحسبنا أن نشير فقط الى وجود أبحاث سابقة مماثلة لما قام به فوكوه عند إيرنست كاسيرر CASSIRER (١٨٧٤ — ١٩٤٥) أول من أقام «فلسفة للصور الرمزية» . Philosophie des formes symboliques ( وفيها يبين دور اللغة في تكوين معرفتنا عن العالم وباعتبارها شرطاً ضرورياً لكل معرفة ) ، وذاك روجيه Jacques ROGER الذي كتب عن علوم الحياة في القرن الثامن عشر ، وليون برنشفيج BRUNSCHVIG ( ١٨٦٩ — ١٩٤٤ ) الذي

---

(٤٩) PARAIN-VIAL : "Analyses structurales et idéologie structuralistes ", (Privat, Toulouse, 1969), P. 176.

كتب في فلسفة العلوم الطبيعية والرياضيات . كما لاحظ جان بياجيه تقارباً كبيراً بين ما كتبه فوكوه عن «البناءات الاستمولوجية» les épistémè وبين «النماذج المعرفية» Paradigmes التي وضعها «كون» th. S. Kuhn في كتابه المشهور عن الثورات العلمية . (٥٠) غير أن بياجيه يعترف بأن ما كتبه فوكوه كان أكثر عمقاً لأنه اكتشف بناءات استمولوجية تنضوي تحتها المبادئ الأساسية للعلم في حقبة معينة ، في حين أن «كون» اقتصر على وصف وتحليل الأزمات التي أدت إلى التغيير .

ولهذه الاعتبارات المتقدمة كان اختيارنا لموضوع «البنويو بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكوه» ، لاعطاء المكتبة العربية صورة جديدة من صور الفكر البنائي ، ولتكملة الدراسة التي أتممناها عن الاتجاه البنائي عند كلود ليني ستروس والتي ظهرت في كتاب بعنوان «البنويو في الأنثروبولوجيا وموقف جان بول سارتر منها» .

#### أعمال فوكوه :

إن الأعمال الفلسفية لفوكوه إنما تسهل بمجموعة ثلاثية من المؤلفات Trilogie كانت بمثابة تطبيق لمنهج جديد في دراسة الظواهر البشرية . وهذه المؤلفات الثلاثة هي :

١ — «تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي» ، صدر سنة ١٩٦١ .

1) Histoire de la folie à l'âge classique.

٢ — «مولد العيادة» ، صدر سنة ١٩٦٣ .

2) Naissance de la clinique.

(50) Th. S. KUHN : "The structure of scientific revolutions", (٥٠) The University of Chicago Press, 1962 (éd. Phoenix Book, 1964).

ذكره :

Jean PIAGET, Op. cit., P.112.

٣ - «الكلمات والأشياء» ، صدر سنة ١٩٦٦ .

3) Les mots et les choses.

وهي مجموعة متكاملة يقول عنها فوكوه  
« ان أيا من هذه الكتب الثلاثة ليس كافيا أو مستقلا بذاته .  
فكل واحد منها يعتمد على الاثنين الآخرين ولا يفهم بدونهما ،  
خصوصا وأن الدراسة في كل منها تختص بكشف جزئي  
لمنطقة محددة » (٥١) .

وفي سنة ١٩٦٩ ظهر لفوكوه كتاب « أركيولوجيا المعرفة »  
Archéologie du Savoir ، وكان هذا الكتاب بمثابة تحديد دقيق للمنهج  
الأركيولوجي الذي طبق في المجموعة الثلاثية سابقة الذكر . وأراد فوكوه  
على شاكلة «المقال عن المنهج» الديكارتى من حيث أنه يشير الى حدث متسيز  
بالنسبة لما يآلفه المسار الرتيب للفكر . وفيه يسهب في شرح مفهوم المنطوق ،  
ويرد على أصحاب المنهج التاريخي أو علم تاريخ الأفكار ، ثم يعرض موقفه  
من نسق العلوم .

وفي سنة ١٩٧١ ظهر لفوكوه كتيب بعنوان « نظام المقال »  
l'Ordre du discours ، اشتمل على عرض مفصل للأفكار الأساسية التي تضمنتها  
كتبه السابقة . وهذا الكتيب هو نص الخطاب الافتتاحي الذي ألقاه فوكوه  
«بالكوليج دي فرانس» عشية حصوله على كرسى الأستاذية ، وذلك في  
٢ ديسمبر سنة ١٩٧٠ .

(51) M. FOUCAULT, "Réponse au Cercle épistémologique", (٥١)  
(Cahiers pour l'analyse, No. 9, 1968).

ذكرته الباحثة :

Annie GUEDEZ : "FOUCAULT", (Editions Universitaires,  
1972), PP. 35—36.

هذه هي الأعمال الفلسفية لفوكوه ، خمس مؤلفات ، سنلتزم بالتعرض لها في متن هذه الرسالة (٥٢) ، كما سنلتزم بفحص وعرض ومناقشة أهم ما احتوته من أفكار أساسية . وسنلتزم كذلك بالرد على ما وجه الى «المذهب» من اعتراضات ، مستندين في كل هذا الى كتابات فوكوه وأحاديثه الصحفية والاذاعية ولقاءاته ودروسه .

وقد ظهر لفوكوه مؤلفات أخرى في علم النفس والأدب ، أشهرها كتاب : «الأمراض العقلية وعلم النفس» ، ظهر سنة ١٩٥٤ . ثم كتاب عن الأديب الفرنسي ريمون روسل Raymond Roussel ( ١٨٧٧ - ١٩٣٣ ) ظهر سنة ١٩٦٣ .

وفي أواخر عام ١٩٧٦ ظهر لفوكوه كتيب بعنوان « تاريخ الجنس » Histoire de la sexualité ، اعتبره مدخلا لمؤلفات خمسة قادمة تتخصص في دراسة العلاقة بين الجنس والسلطة والمقال . غير أن النقاد يجمعون سلفا على صعوبة التوصل الى نتائج إيجابية في هذا المجال . وسنعود الى تفصيل ذلك في الجزء المخصص لتقييم أعمال فوكوه .

هذا ، ولا أود أن أتوقف في هذه المقدمة عند تفصيل خطة البحث أو المراجع ، لأننا نرى في هذا تكرارا يمكن الاستغناء عنه ، خصوصا وأن خطوات البحث الرئيسية قد فصلت في «صفحة المحتويات» ، كما اشتملت الصفحة الأولى من كل فصل على ثبت بأهم الموضوعات . أما الصفحات الأخيرة فقد اشتملت على قائمة بمراجع البحث وقائمة بأهم المصطلحات التي استحدثتها البنائية وما يرادف هذه المصطلحات في اللغة العربية .

(٥٢) فضلنا استخدام الترجمة العربية في الإشارة الى عناوين هذه الكتب الرئيسية كلما تكرر ذكرها في الحاشية حتى تسهل المتابعة بالنسبة للقارئ العربي .

وقبل أن أصل الى ختام هذه المقدمة ، أجد لزاما على أن أتوجه بالشكر الى كل من امتدت يده الى بالمساعدة للخروج بهذا البحث الى حيز الوجود. أشكر أولا الاستاذ الدكتور محمد على أبو ريان عميد كلية الآداب بجامعة بيروت العربية فقد كان لإشرافه وتشجيعه المتواصل أكبر الأثر في الوصول بهذا البحث إلى حالته الراهنة .

وأقدم خالص شكرى أيضا لجميع أساتذتى وزملائى بقسم الفلسفة ، وأنخص بالذكر منهم الأستاذ الدكتور محمود فهمى زيدان : أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة .

ولا يفوتنى أن أعترف بفضل أولئك الذين قدموا عونهم لى من خارج القسم ، وكان لهم دور أساسى فى انجاز هذا العمل بأن يسروا حصولى على المصادر المختلفة للبحث . أعنى كلاً من الأستاذين الفاضلين الأستاذ الدكتور محمد الكردى بقسم اللغة الفرنسية بالكلية والأخ الصديق الدكتور محمد أبو النجا مدرس الأدب الفرنسى بجامعة عين شمس .

وأخيرا ، أقدم شكرى للقائمين على شئون المركز الثقافى الفرنسى بالاسكندرية . فقد كانت مكتبتهم الزاخرة بأحدث الكتب والمجلات المتخصصة هى خير معين لى ولكل باحث فى العلوم الانسانية .

الاسكندرية ، أول أكتوبر ١٩٧٨





# الباب الأول

«أركيولوجيا» المعرفة

«ان المنهج الأركيولوجي هو منهج تعليمي بسيط ..... يعلم الطالب بأنه لا وجود لشيء وراء النص .غير أن النص يحتوي بين ثنياته على معان صامتة تمتلئ بنبع لا ينضب عن الأصل الذي يتعدى البحث عنه في أى مصدر آخر .  
ففي النص يكمن معنى الوجود ، لا في الكلمات بكل تأكيد ، بل من خلالها كشبكة ينظر الى ما وراءها» .

«تاريخ الجنون» ، ص ٦٠٢



# الفصل الأول

## المنطوق ذرة المقال

- ١ - مقال عن المنهج .
- ٢ - المنطوق ذرة المقال .
- ٣ - مكانة المنطوق بالنسبة للقضية والجملة .
- ٤ - وظيفة المنطوق :
- كيف يتكون المنطوق ؟
- فاعل المنطوق ومؤلف الصيغة .
- مجال المنطوق .
- الوجود المادى للمنطوق .
- ٥ - معنى وصف المنطوق .
- ٦ - ندرة المنطوقات .
- ٧ - دراسة المنطوقات من الخارج .
- ٨ - تحليل التراكم .
- ٩ - معنى «الأرشيف»
- ١٠ - معنى القبلى التاريخى .



## المنطوق ذرة المقال :

### مقال عن المنهج :

لقد أرسى ميشيل فوكوه دعائم منهج صارم ، يتعرض لمعايير المقال في عصور زمنية متباينة : كما يتعرض لقواعد تكوين المعرفة ، ويمتد تأثيره إلى مناهج علوم معروفة مثل «الابستمولوجيا» وعلم الاجتماع والتاريخ وعلم النفس التاريخي . غير أن منهج فوكوه يتميز تماماً عن هذه العلوم ، وذلك لأنه يتجاوزها جميعاً رغم أن موضوعه مأخوذ من نفس المجال ، ورغم أنه يستخدم منهجاً تاريخياً وضعياً .

وقد كان هدف فوكوه تحليل دور المعرفة في علاقاتها بالنظم والمؤسسات ، وذلك لكى يكشف عن علاقات السلطة Pouvoir الموجودة داخل المقال والتي ينشط المقال ابتداء منها فينعكس ذلك مرة أخرى على هذه النظم وتلك المؤسسات .

ولقد كانت المسلمة الأساسية في المنهج عند فوكوه هي :

«دع المقال وحده يتحدث» .

«Laisser parler le discours seul»

وقد ترتب على هذه المسلمة أن التزم فوكوه بعدد من القواعد السلبية تذكرنا بالتأمل الديكارتي الأول «في الأشياء التي يمكن أن توضع موضع الشك» ، من حيث أن مؤلفه كان قد بدأ هو الآخر بعمل سلبي .

ففي الصفحات الأولى من كتاب «أركيولوجيا المعرفة» ، نجد فوكوه

يطلب بما يلي :

أولاً : عدم الالتزام بالقطاعات المعرفية المعترف بها les découpages reconnus . (ونلاحظ أن التحلل من الالتزام هنا ليس نهائياً ، وأن هدفه منهجي بحث) .

والقطاع المعرفي وهو ما يسمى «علماً» ليس في الحقيقة سوى مجموع من القضايا تطبق على العديد من الوقائع المتفرقة faits disparates . إذ كيف يمكن أن ندر قطاعاً معرفياً مثل علم النفس المرضى le décapage «Psychopathologie» خصوصاً إذا علمنا أن كلمة جنون Folie لا تعني نفس الشيء عند Bleuler, pinel رغم أنها ينتسبان إلى نفس هذا العلم (١) .

ينبغي إذن ألا نرى في هذه القطاعات المعرفية سوى وقائع مقالية .

ثانياً : لكي لا نبتعد عن مستوى المقال le niveau des choses dites ولكي يظهر تفرد هذه الوقائع المقالية ces faits discursifs ينصح فوكوه بوقف جميع الوحدات unités التي تكونت بفعل عمليات مفسرة opérations «interprétatives» (أي تسلسل إليها العنصر الذاتي) . وأول هذه الوحدات هو «الكتاب» . ولا يغيب عنا بهذا الصدد أن هدم الكتاب إنما يعني عدم الاعتراف بأي مؤلف .

ثالثاً : التخلص من الأفكار العامة thèmes التي تضمن استمراراً لا متناهياً للمقال . والتخلص من أي عنصر يدعي إقامة استمرار `continuité`

---

(١) Pinel هو طبيب فرنسي ولد في مقاطعة Tarn ( ١٧٤٥ - ١٨٢٦ ) وسيرد الحديث عنه بالتفصيل في الفصل الرابع من الرسالة . أما Bleuler فهو عالم طب نفسي ، سويسري الجنسية ( ١٨٥٧ - ١٩٣٩ ) .

ليس له ما يبرره بين عدد من الشواهد المقالية ، ويتبع ذلك الابتعاد عن التفسيرات التي تعتبر المسار التاريخي متصلاً .

رابعاً : التخلّص من مفاهيم مثل التقليد tradition ، والتأثير influence ، والنمو développement ، والتطور évolution ، والعقلية mentalité والنفس esprit (٢) . ويترتب على ذلك كله أن نذنب التأليف السيكولوجي «synthèse psychologique» أي ما تقدمه الذات من تأليفات سيكولوجية .

ويظهر من هذه القواعد أن فوكوه إنما يمهّد لخطّة ابستمولوجية جديدة ، تستهدف الغوص في أعماق الثقافات الماضية ، وتقدم وصفاً جديداً للمقال يختلف تماماً عما يقوم به أي علم لتاريخ الأفكار . كما يظهر أيضاً من هذه القواعد ، أن فوكوه إنما يريد التأكيد من نقاء الأرضية التي تنتشر عليها أحداث المقال «(٣)» .

أنّ الابستمولوجيا الجديدة إنما تواجه عدداً من المسائل المنهجية وهي (٤) :  
١ - تأسيس كل متناسق ومتجانس من الوثائق المدروسة ، وهذا الكل إما أن يكون مفتوحاً أو مغلقاً ouvert ou fermé ، محدداً أو غير محدد .  
٢ - العثور على مبدأ للاختيار Un principe de choix وهذا المبدأ يعتمد إما على أخذ عينة طبقاً لطرائق الاحصاء . أو طبقاً لما تحدده مسبقاً من عناصر ممثلة éléments représentatifs .

(٢) نلاحظ هنا أن فوكوه يستبعد النفس لغرض منهجي بحت ، وهذا لا يمتنع أبداً صاحب الاعتراف بوجودها .

(٣) Michel FOUCAULT : "Archéologie du Savoir" (Gallimard, 1969) P. 41.

(٤) Ibid., P. 19.

- ٣ - تعريف مستوى التحليل niveau d'analyse وعناصره الهامة .  
ومن الممكن لهذه العناصر أن تكون بيانات بالأرقام indications  
numériques أو بيانات تشير إلى أحداث événements أو نظم institutions  
أو تطبيقات عملية pratiques أو حتى بعض الكلمات المستخدمة ومجالاتها  
الدالة champs sémantiques وأخيراً نمط القضايا الذي يجمعها le type  
des propositions qui les unissent
- ٤ - تخصيص منهج للتحليل ، يمكن أن يتلخص في تناول الجانب الكمي  
للمعطيات أو أن يقوم على تحليل هذه المعطيات وفق خصائص سبق تحديدها .
- ٥ - تحديد المجموعات ensembles والمجموعات المندرجة تحتها  
sous-ensembles والتي تنبثق عنها المادة المدروسة . وهذه المجموعات والمجموعات  
المندرجة يمكن أن تكون مناطق جغرافية أو حقبة تاريخية .
- ٦ - تحديد العلاقات التي تميز أي مجموع ensemble . وهي إما علاقات  
عددية numériques أو منطقية أو وظيفية أو عليّة أو تمثيلية analogiques  
أو حتى علاقة الدال بالمدلول signifiant à signifié .
- ويظهر مما تقدم أن صاحب «أركيولوجيا المعرفة» إنما يعتمد إهمال  
العديد من المسائل التي تهتم بها فلسفة التاريخ ؛ وذلك مثل الغائية téléologie  
والمعقولة rationalité والنسبية relativité ومعنى الصيرورة devenir .  
غير أنه مع ذلك يشترك مع علوم أخرى في بعض النقاط مثل علم اللغة وعلم  
الأجناس البشرية «الأنثولوجيا» والاقتصاد السياسي والتحليل النفسي (٥) .

---

(٥) ' أهم ما تشترك فيه هذه العلوم هو انكار دور الذات .



وسيتضح التقارب بين «أركيولوجيا المعرفة» وبين ما توصلت إليه هذه العلوم من نتائج فيما بعد .

وينبغي أن نعلم مقدماً أن «أركيولوجيا المعرفة» لا يقتصر دورها فقط على القضايا العلمية ، وذلك لأن البحث الأركيولوجي إنما يجد مجاله كذلك في النصوص الفلسفية والأدبية ، وفي القصص التي ينسجها الخيال ، وفي القواعد التي تفرضها المؤسسات ، بل وفي القرارات السياسية أوكل ما يمكن أن نطلق عليه — بعبارة ماركسية — لفظ بناءات فوقية

#### • Superstructures

وينبغي أن نعلم مقدماً أيضاً أن هدف فوكوه هو «وصف محض لأحداث المقال باعتبارها مجالاً للبحث عن وحدات . وهو وصف يتميز عن التحليل اللغوي . فتحليل اللغة يسأل عن القواعد التي يتكون طبقاً لها منطوق ما *énoncé* ، وبالتالي عن القواعد التي يمكن أن يتكون طبقاً لها عدد مشابه من المنطوقات . أما وصف الأحداث المقالية *les événements discursifs* فإنه يجب عن تساؤل آخر هو : لماذا يظهر منطوق ما بدلاً من غيره . كان من الممكن أن يحل محله ؟ (٦) .

وإذا كان فوكوه يعزل المنطوق عن اللغة وعن الفكر ، فذلك للتأكد من عدم نسبته إلى عناصر ذات طبيعة سيكولوجية (مثل قصد المؤلف *l'intention de l'auteur* ، وتكوينه النفسي *la forme de son esprit* ، وصرامة تفكيره *la rigueur de sa pensée* ، والموضوعات التي تستحوذ عليه *les thèmes qui le hantent* ) ، وأيضاً ليتمكن من كشف أنماط أخرى للاطراد *régularité* وأنواع جديدة من العلاقات *rapports* (٧) .

(٦) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، (سبق ذكره) ، ص ٣٩ .

(٧) نفس المرجع ، ص ٤١ .

ومن أمثلة العلاقات الجديدة التي يكشف عنها فوكوه : علاقة المنطوقات فيما بينها (حتى لو لم يكن لها نفس المؤلف أو حتى لو تجاوزت شعور أى مؤلف أو حتى لو لم يكن هناك أى تعارف بين المؤلفين ) ؛ وفوكوه يكشف أيضاً عن العلاقة بين مجموعات من المنطوقات (حتى لو كانت هذه المجموعات تنتمى لمجالات مختلفة وغير متقاربة . وحتى لو لم يكن لها نفس المستوى الصوري le même niveau formel ) ؛ وهو يكشف أخيراً عن العلاقة بين مجموعات من المنطوقات وبين أحداث تقنيه techniques واقتصادية واجتماعية وسياسية (٨).

ولا يقتصر عمل المنهج الأركيولوجى على مجرد كشف علاقة المنطوقات بل إن هذا المنهج الوضعى إنما يهدف أيضاً إلى الكشف عن نسيج العلاقات الذى يختبئ وراء المنطوقات والذى يفسر ظهورها ، كما يهدف كذلك إلى الكشف عن نسق التوزيع Système de répartition الذى يفسر تواجد المنطوقات المتغيرة . والكشف عن قانون ظهور التصورات concepts ابتداء من المنطوقات (بعيداً عن أرض الاستنباط) (٩).

#### المنطوق فرة المقال :

يقول فوكوه : ولقد استخدمت كلمة منطوق énoncé للإشارة إلى أحداث مفردة événements singuliers فى مقابل هذه المجموعات ces ensembles التى نسميها مقالاً discours . ويظهر المنطوق لأول وهلة كعنصر أول لا ينقسم ، يمكن أن يستقل بذاته ، وبإمكانه أن يدخل

(٨) نفس الموضع .

(٩) KREMER-MARIETTI Angèle : Op. Cit., P. 139.

(٩)

في علاقات مع عناصر أخرى مماثلة .. إن المنطوق ذرة المقال  
(١٠) l'énoncé est l'atome du discours

والمنطوق رغم أنه ينشأ عن رموز إلا أنه لا يوجد على نمط اللغة . ورغم  
أنه يقوم في زمان ومكان إلا أنه لا يوجد على نمط الأشياء .

«إن المنطوق هو وظيفة للرموز . يمكن ابتداء منها أن نقرر — بالتحليل  
أو الحدس — ما إذا كان للرموز معنى أولاً ، وما هي القواعد التي تخضع لها  
في متابعتها أو تجاوزها ، وما دلالة هذه الرموز .» (١١).

غير أننا سنرجى الحديث عن «الوظيفة المنطوقية» أو «المنطوق كوظيفة  
للرموز» ، ونسأل الآن عن مكانة المنطوق بالنسبة للقضية والجملة :  
مكانة المنطوق بالنسبة للقضية والجملة :

هل يتطابق المنطوق مع ما يسميه المنطقة قضية proposition وهل  
يتطابق مع ما يسميه علماء النحو جملة phrase ؟ لا يعتقد فوكوه أن القضية  
هي شرط وجود المنطوق ، كما أنه لا يعتقد أن التحدث عن منطوق يكون  
فقط في حالة وجود قضية . إذ من الممكن أن نجد في قضية واحدة منطوقين  
متمايزين تماماً ونشأ عن تجمع مقال groupement discursif مختلف .  
ومثال ذلك :

«Personne n'a entendu» «لا واحد يعلم»

«Il est vrai que personne n'a entendu» «حقيقة أنه لا واحد يعلم»

(١٠) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(١١) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١١٥ .

من الناحية المنطقية نجد أن هاتين الصيغتين لا يمكن اعتبارهما قضيتين مختلفتين . أما من حيث كونهما منطوقين فإنهما غير متكافئتين ولا يمكن أن يحل أحدهما محل الآخر .

فإذا كانت الصيغة الأولى هي السطر الأول الذي يبدأ سرد إحدى الروايات romans ، فإننا نفهم مبدئياً وحتى اشعار آخر أننا بصدد سرد تقريرى constatation للمؤلف أو لإحدى الشخصيات بالرواية . أما إذا كانت الصيغة الثانية هي التي تبدأ بها الرواية :

«Il est vrai que personne n'a entendu»

فإنها توحى بأننا بصدد حديث داخلي Un monologue intérieur .

ومن ثم نرى أننا أمام قضيتين لهما نفس التركيب ، غير أنهما تكشفان عن منطوقين متمايزين (١٢) .

أما عن التكافؤ equivalence بين الجملة والمنطوق ، فإن فوكوه لا يمانع في القول بأن الجملة التي تستقل بذاتها من الناحية النحوية يمكن أن تكشف عن منطوق مستقل . غير أن هذا التكافؤ ليس تاماً ، إذ من الممكن العثور على منطوق يفتقر إلى التركيب اللغوي للجملة مثل «كتب يكتب كتابة» (١٣) . وعلى هذا ، فإنه لمن الصعب أن نعرف المنطوق ابتداء من الخصائص النحوية للجملة .

ويرى فوكوه أن هناك احتمالاً أجيئاً وهو أن يكون المنطوق مرادفاً لفعل الصياغة UN acte de formulation أو ما يطلق عليه التحليليون

(١٢) نفس المرجع ، ص ١٠٨ .

(١٣) المثال الذي أوردته فوكوه هو تصريح فعل amare اللاتيني ، فأورد المنطوق كما يلي (amat و amas و amo ، نفس المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

اللغويون من الانجليز لفظ *Speech act* (أى القول كحالة شعورية) (١٤) .  
ويبين فوكوه أن فعل الصياغة ليس هو الفعل المادى للصياغة: أى الكلام  
بصوت عال أو منخفض أو الكتابة باليد أو بواسطة الآلة الكتابة . كما يبين  
فوكوه أيضاً أن فعل الصياغة لا يعنى كذلك قصد الفرد الذى يتحدث  
*l'intention de l'individu* سواء أراد أن يثنع الآخرين أو يرغب  
فى أن يكون مطاعاً أو كان يهدف إلى البحث عن حل احدى العضلات الخ.  
وهذا الفعل لايعنى أخيراً النتيجة المرتقبة لما يقوله الفرد ، كأن يكون قد  
توصل إلى اقناع الآخرين أو إلى التأثير عليهم سلباً أو إيجاباً الخ .

إن الفعل الصياغة إنما يقصد به الصيغة ذاتها *la formule elle-même*  
سواء أكانت وعداً *promesse* أو أمراً *ordre* أو قراراً *décret* أو  
عقداً *contrat* أو التزاماً *engagement* أو تقريراً *constatation* .  
وفعل الصياغة بهذا المعنى هو وحده الذى يمكن أن نسميه منطوقاً .

غير أن علاقة التطابق بين فعل الصياغة والمنطوق لا تلبث أن تنهاى هي  
الأخرى أمام النظرة الفاحصة . فغالباً ما يحتاج فعل الصياغة إلى أكثر من  
منطوق : فالقسم والوعد والعقد والبرهان إنما تتطلب فى أغلب الأحيان  
عدداً من الجمل المنفصلة ، ومن الصعب ألا تخضع على أى منها صفة المنطوق  
بدعوى أنها تتشابه جميعاً بفعل صياغة واحد . وقد يقال عندئذ أن الفعل فى  
هذه الحالة لن يظل واحداً مع تعدد المنطوقات . ومع ذلك فإن هذا القول لن  
يكون كافياً ، وذلك لأن فعل الصياغة لم يعد معروفاً للمنطوق ، بل إن هذا  
الأخير هو الذى يعرف الفعل .

---

(١٤) نفس المرجع ، ص ١١٠ .

ونلاحظ بناء على ما تقدم أننا هنا أيضاً لا يمكن أن نوافق على وجود علاقة تطابق بين المنطوقات وبين أفعال للصياغة .

ينبغي الاعتراف إذن بأنه من الصعب أن نتوصل للتعريف المناسب للمنطوق خصوصاً وأنه بمثابة القشرة الخارجية التي تبدأ منها جميع التحليلات اللغوية . فأى مجموعة من الرموز أو الصور figures أيا كانت درجة التنظيم فيها إنما تكفى لتكوين منطوق . ثم يبقى على عاتق علم النحو أن يبين ما إذا كانت جملة أولا ، وعلى علم المنطق أن يبين ما إذا كانت تستوفى شروط القضية أولا ، وأخيراً فإن على التحليل l'Analyse أن يحدد فعل الصياغة الذي يمر من خلالها (١٥) .

وعلى هذا ، فوجود رمز أو مجموعة متراسة من الرموز يعنى وجود منطوق لأن المنطوق هو نمط وجود mode d'existence الرموز (١٦) ، وهو أيضاً وظيفة للرموز كما سبق أن قدمنا .

#### وظيفة المنطوق : La Fonction énonciative :

تحت هذا العنوان يتعرض فوكوه لمناقشة نقاط أربع تلتف كلها حول مفهوم المنطوق . وهى تبدأ بتكوينه ، ثم تسأل عن فاعله ومجاليه ، وتنتهى بنسبة التواجد المادى له (١٧) .  
كيف يتكون المنطوق ؟

يرى فوكوه أن أى رموز تألفت بطريقة مادية صرفه ، وتجمعت بطريقة عشوائية أو غير عشوائية بعيداً عن أى قواعد للنحو أو الصرف يمكن أن تكون منطوقاً . وإذا أخذنا حروف الآله الكاتبة أو المطبوعة مثلاً ، فإنه ليكفى أن

(١٥) نفس المرجع السابق ، ص ١١٢ .  
(١٦) نفس المرجع السابق ، ص ١١٦ .  
(١٧) نفس المرجع السابق ، ص ١١٦ - ١٣٨ .

أعيد كتابة هذه الرموز على ورقة حسب تتابعها الظاهر (١٨) دون أن أكون كلمة واحدة ، أقول يكفي هذا التتابع لأكون منطوقاً : إنه منطوق أحرف الهجاء في تتابع يسهل عملية الكتابة على الآلة الكاتبة .

ويظهر لنا بوضوح أن أى مجموعة من الرموز يمكن إذن أن تصبح منطوقاً على شريطة أن يكون لها بشيء آخر علاقة خاصة . وإذا قيل أن هذه العلاقة هي علاقة الدال بالمدلول ، أو هي علاقة الاسم nom بما يشير إليه ، أو علاقة الجملة بمعناها ، فإن فوكوه يبين أنها لا يمكن أن تتطابق مع أى من هذه العلاقات . فالاسم هو عنصر لغوي يمكنه أن يحتل مكاناً في مجموعة نحوية فضلاً عن أنه يعرف بإمكانية تكراره . أما المنطوق فإنه يوجد بعيداً عن أى احتمال لظهوره من جديد . أما إذا ظهر من جديد أى صياغة مماثلة Une formulation identique فعندئذ يقول فوكوه : «لقد استخدمت نفس الكلمات وربما نفس الجملة ولكن ليس بالضرورة نفس المنطوق » (١٩).

ولا ينبغي أيضاً أن نخلط العلاقة بين منطوق وما يعبر عنه ce qu'il énonce وبين علاقة القضية بالواقعة التي تشير إليها son référent . فنحن نعلم أن المناطقة يرون في القضية «جبل الذهب يوجد في كاليفورنيا» أنها صعبة التحقيق لأنها لا واقع لها . فنحنها ليس أكثر صدقاً أو أقل صدقاً من اثباتها . هل ينبغي أن نقرر بالتالي أن منطوقاً لا يرد إلى شيء ne se rapporte à rien إذا كانت القضية التي يؤسس وجودها existence à qui il donne لا واقع لها ؟ ينبغي بالأحرى

(١٨) هذا التتابع الظاهر في أحرف الآلة الكاتبة الفرنسية هو : AZERT

(١٩) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١١٨ .

ويلاحظ أن المنطوق لا يتكرر ظهوره لأنه «حدث» ، والأحداث لا تتكرر إلا في سياق جديد ، ومن هنا كان المنطوق شيئاً غير متكرر وقابل للتكرار في نفس الوقت ، وليس في هذا تناقض .

أن نقرر العكس . فليس غياب الواقع بالنسبة للقضية هو الذى يتبعه غياب المتضاييف مع المنطوق *le corrélat de l'énoncé* ، بل إن هذا الأخير — وهو ما إليه يرد المنطوق — هو الذى يسمح بالقول عما إذا كانت القضية لها واقع أولا .

فإذا افترضنا أن الصيغة «جبل الذهب يوجد فى كاليفورنيا» لا وجود لها فى كتب الجغرافيا أو فيها يرويه الرحالة ، بل توجد فى قصة أو أى رواية خيالية ، عندئذ يمكننا الحكم عليها بالصواب أو الخطأ بقدر ما يسمح هذا (الواقع) الخيالى الذى تنتمى إليه بقبول أو عدم قبول مثل هذه الأكذوبة الجيولوجية أو الجغرافية . وينبغى إذن أن نعرف إلى أى شئ يرد المنطوق، كما نعرف المجال المكافئ لتضاييفاته *son espace de corrélations* ، حتى يمكننا أن نقرر ما إذا كانت القضية لها واقع أولا . فإذا قلنا أن «ملك فرنسا الحالى أصلع» ، فهذه القضية ليس لها واقع إذا افترضنا أن المنطوق يرد إلى عالمنا الاخبارى الحالى . إن علاقة القضية بالواقع لا يمكن أن تكون أنموذجاً أو قانوناً لعلاقة المنطوق بما يعبر عنه *ce qu'il énonce* . فهذا الأخير ليس فقط متممياً إلى مستوى آخر ، بل يبدو وكأنه سابق على القضية . (٢٠)

ولا ينبغى أخيراً أن نخلط العلاقة بين منطوق وما ينطق به بعلاقة الجملة بمعناها . فالتباعد بين هذين النوعين من العلاقات إنما يظهر جلياً فى حالة الجمل الخالية من أى معنى رغم سلامتها من الناحية اللغوية أو النحوية كما فى المثال الآتى :

«إن الأفكار الخضراء التى لا لون لها تنام نوماً عميقاً» .

إن القول بأن هذه الجملة لا معنى لها إنما يفترض استبعاد عدة احتمالات :

---

(٢٠) نفس المرجع السابق ، ص ١١٩ .



احتمال أن تكون الجملة سردياً لأصفاة أحلام ، واحتمال أن تكون الجملة مقتطعة من نص شعري ، واحتمال أن تكون رسالة شفرية ، واحتمال أن تكون هدياناً صادراً تحت تأثير مخدر . ويبقى أن تكون الجملة نمطاً معيناً للمنطوق تربطه علاقة محددة بالواقع المرئي . يقول فوكوه : «أنه في داخل علاقة منطوقية محددة وثابتة يمكن أن تتحدد العلاقة بين الجملة ومعناها» (٢١).

يضاف إلى ما تقدم أن مثل هذه الجمل ، حتى لو أخذت على المستوى المنطوق حيث لا معنى لها ، فإنها كمنطوقات لا تنفكر إلى المتضابفات Correlations . فمن هذه المتضابفات مثلاً ما يسمح بالقول بأن الأفكار ليست مما يقبل اللون أو عدم اللون ، وبالتالي فإن الجملة لا معنى لها (فهذه المتضابفات تخص جانباً من الواقع تكون فيه الأفكار غير مرئية بينما تظهر الألوان أمام كل الناظرين) ، ومن هذه المتضابفات أيضاً ما يجعلنا نرى الجملة سايمة لغوياً رغم أنها مجردة من أى معنى (وهذه المتضابفات تخص المجال اللغوي وقواعده وخمائصه) . الجملة إذن رغم كونها غير دالة ، فإنها باعتبارها منطوقاً إنما ترد إلى شىء ما .

كيف تعرف علاقة المنطوق إذن ؟ وكيف تميزها عن العلاقات المتصلة بالمعنى أو بقيمة الصدق أو الكذب التي كثيراً ما اختلطت بها ؟ .

إن المنطوق أياً كان لا يتضائف مع فرد أو شىء مفرد يشار إليه بلفظ في الجملة : ففي حالة منطوق مثل «جبل الذهب يوجد في كاليفورنيا» ، نجد

---

(٢١) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

أن ما يرتبط بالمنطوق le corrélat de l'énoncé ليس هو «جبل الذهب» وليس «كاليفورنيا» ، بل مجموعة مجالات يمكن لمثل هذه الأشياء أن تظهر فيها . مثلاً مجال الأشياء المادية ذات الخصائص الفيزيكية ، أو مجال الأشياء الخيالية ذات الخصائص العشوائية arbitraires وغير قابلة للتحقيق التجريبي ، أو مجال التحديد المكاني والجغرافي ويستخدم المسافات وعلاقات الجوار والتضمن .

إن المنطوق إذن لا يرتبط بمتضاييف يتواجد أمامه أو يغيب عنه كارتباط اسم العلم بشخص معين ، إنه بالأحرى يرتبط ب«بنسق» référentiel لا يتكون من «أشياء» أو أعمال «faits» أو وقائع «réalités» أو كينونات «êtres» بل يتكون من مجال champ يعرف إمكانات ظهور الأشياء أو الأفراد les possibilités d'apparition وأيضاً إمكانات تحديد ما يعطى للجملة معناها وما يمنح القضية قيمة الصدق . إن هذا كله في مجموعه هو الذي يميز المستوى المنطوق للصيغة le niveau énonciatif de la formulation في مقابل المستوى النحوي son niveau grammatical أو المستوى المنطقي logique.

ويتبين مما تقدم أن المنطوق هو الجملة التي يمكن أولاً يمكن أن ينسب إليها معنى ، أو هو القضية التي يمكن أن تقبل أولاً تقبل قيمة الصدق : كما يتبين لنا أيضاً أن وصف هذا المستوى المنطوق لا يكون بتحليل الصوري أو البحث السيمانطيقي une investigation sémantique ، كما لا يكون بالتحقيق vérification ، بل بتحليل العلاقات بين المنطوق وبين المجالات المكانية للتغاير (٢٢) Les espaces de différenciation .

(٢٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٢١ .

## فاعل المنطوق ومؤلف الصيغة :

Le sujet de l'énoncé et l'auteur de la formulation :

إن القضية أو الجملة أو مجموعة الرموز لا يطلق عليها لفظ منطوق  
énoncé لأن إنساناً نطق بها في يوم ما ، بل بقدر ما نستطيع أن نحدد وضع الفاعل  
la position du sujet.

و يرى فوكوه أن وصف أى صيغة باعتبارها منطوقاً لا ينحصر في  
تحليل علاقات بين المؤلف auteur وبين ماقاله أو ما يريد أن يقوله ،  
بل هو تحديد الوضع الذى يمكن أن يحتله أى فرد ليكون هو الفاعل (٢٣).  
وإذا بدا لأول وهلة أن فاعل المنطوق هو مؤلف الصيغة الذى يهدف إلى  
توصيل معنى معين ، فإن فوكوه يرى أن الواقع يكذب ذلك : ففي حالة  
الكاتب الروائى نجد أن مجموع المنطوقات المتضمنة في الرواية إنما ينتسب إلى  
مجال مكافئ يتسع لكى يشمل الكاتب الروائى نفسه . ومن ثم فإنه ليس هو  
الفاعل (٢٤) .

وإذا قيل أن مؤلف الجملة هو الإنسان الفرد الذى نطق بها أو كتبها لأن  
الرمز أو نسق الرموز لا وجود له دون علة أصدرته أو فاعل أتى به ، فإن  
فوكوه يقرر بأن هذا الفاعل لا يتطابق مع فاعل المنطوق . ففاعل المنطوق لا  
يرد إلى ضمير المتكلم الظاهر في الجملة ، فضلاً عن أنه لا يوجد ظاهراً في  
التركيب اللغوى .

فاعل المنطوق يتميز إذن عن مؤلف الصيغة ، وهو لا يتطابق معه ، لا مادياً  
ولا وظيفياً ، ولا يمكن النظر اليه على أنه هو العلة أو الأصل أو نقطة البدء

(٢٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(٢٤) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

في اصدار جملة شفهية أو مكتوبة . إنه «وظيفة محددة ، وفارغه ، يمكن أن يملأها أى «مؤلف صيغة» ، أعنى أى فرد يصوغ المنطوق» (٢٥) ، أو «هو مكان محدد وفارغ يمكن أن يملأه أفراد مختلفون» (٢٦) . وهذا المكان الفارغ هو بعد يميز كل صيغة باعتبارها منطوقاً كما أنه أحد خصائص الوظيفة المنطوقية» (٢٧).

ويستند فوكوه إلى قضية رياضية يوضح بها وجهة نظره وهى «المساويان لثالث متساويان» . ويرى أن فاعل المنطوق هنا هو وضع محايد لا يتأثر بزمان أو بمكان أو بظروف ، وهو متماثل *identique* فى أى نسق لغوى ، ويمكن أن يحتله أى فرد ليقرر هذه القضية .

ورغم أن هذه القضية الرياضية كانت أفضل مثال يستند اليه فوكوه في توضيح وجهة نظره ، إلا أنه يقرر فى موضع لا حق (٢٨) أن الرياضيات بالنسبة للمؤرخ الأركيولوجى هى مثل سىء لا ينبغي تعميمه .

### مجال المنطوق :

من أهم خصائص الوظيفة المنطوقية هو ضرورة وجودها فى مجال مشترك *UN domaine associé* (٢٩) وهذا هو ما يميزها عن الجملة والقضية . فنحن أمام مجموعة من الكائنات أو الرموز ؛ يمكننا أن نقرر ما إذا كانت تكون وحدة سليمة نحوياً (جملة) أو منطقياً (قضية) ، وذلك فقط بالرجوع إلى القواعد المكونة لها . فمثلا «حضر عمر أمس» جملة ، أما «أمس عمر حضر»

(٢٥) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٢٦) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

(٢٧) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(٢٨) نفس المرجع السابق ، ص ٢٤٧ .

(٢٩) ميشيل فوكوه «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٢٦ .

ليست جملة؛ أ + ب = ج + د تكون قضية ، أما أ ب ح + = د فإنها ليست قضية . وهنا نلاحظ أن مجرد فحص العناصر وتوزيعها بالقياس إلى نسق اللغة إنما يبين ما إذا كانت هذه العناصر تكون جملة أولاً ، قضية أولاً ، كما نلاحظ أن الجملة أو القضية يمكن أن نتصورها قائمة بذاتها دون سياق أى دون ما حاجة إلى وجود مجال مشترك . وإذا اعترض بأن الجملة لا تقوم إلا إذا خضعت لنسق معين من المسلمات ، أو أن هذه التعريفات والقواعد والاصطلاحات المتصلة بالكتابة إنما تكون في مجموعها مجالا مشاركا لا ينفصل عن القضية ، فإن فوكوه يجب على ذلك بأن المسلمات والقواعد والاصطلاحات ليست على نفس مستوى الجملة أو القضية ، لأنها تنصب على عناصرها أو تختص بوصف تنابعها أو توزيعها الممكن ، وهى ليست مشاركة لها (٣٠) .

وإذا اعترض - في حالة الجملة - بأن بعضها يفتقر إلى المعنى إن لم يشمله سياق ، فهنا يجب فوكوه بأنه حتى لو لم يكن المعنى مستوفياً ، فإن الجملة تظل سليمة لغوياً ومحتفظة باستقلالها (٣١) . وإذا اعترض - في حالة القضية - بأن عدداً من القضايا لا يمكن التحقق من صدقه بالرجوع فقط إلى قواعد تكوينه ، إذ لابد من الرجوع إلى واقع يقرر ما إذا كانت صادقة أو كاذبة، فهنا يرد فوكوه بأنها قضايا منطقية سواء صدقت أو كذبت ، وليس الواقع هو الذى يقرر ما إذا كانت قضايا أولاً (٣٢) .

وإذا كان هذا هو حال القضية أو الجملة ، فإن المنطوق ، على العكس

(٣٠) « أركيولوجيا المعرفة » ، ص ١٢٧ .

(٣١) نفس المرجع ، ص ١٢٨ .

(٣٢) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

تماماً ، لا بد من وجوده على علاقة بمجال مشارك مع عدد متجانس من المنطوقات يسميه فوكوه المجال المنطوق *le champ énonciatif* . وعلى هذا فإننا لا يمكن أن نتحدث عن منطوق عام أو محايد أو مستقل . لأن المنطوق يكون دائماً بمثابة جزء من كل . فهو يلعب دوراً خاصاً بين منطوقات أخرى، كما يستند إلى هذه المنطوقات مع استمرار تميزه عنها .

وابتداء من هذا التواجد المنطوق تنبثق العلاقات النحوية بين الجمل ؛ والعلاقات المنطقية بين القضايا؛ وأيضاً علاقات ما وراء اللغة. وهذه الأخيرة تنشأ بين اللغة كموضوع *In langage-objet* وبين اللغة ذاتها وهي تعرف قواعدها (٣٣).

#### الوجود المادى للمنطوق :

إن ضرورة التواجد المادى للمنطوق هو من الشروط الأساسية للوظيفة المنطوقية. إذ لا يمكن التحدث عن منطوق دون أن يكون هناك الصوت الذى نطق به أو السطح الذى يحمل رموزه أو دون أن يكون هذا المنطوق متجسداً فى عنصر محسوس أو دون أن يكون قد ترك أثراً فى ذاكرة ما (٣٤).

ونلاحظ أن التواجد المادى للمنطوق إنما يكون على مستوى المؤسسات *institutions* أكثر من كونه على مستوى التحديدات الزمانية المكانية ، وإلا لكانت الجملة التى تكرر ورودها فى ظروف زمانية ومكانية مختلفة تعبر عن عدد من المنطوقات هو عدد مرات هذا التكرار . وعلى سبيل المثال نجد أن التصريح بأن «الأرض كروية» أو أن «الأنواع تتطور» لا يمكن أن

(٣٣) نفس المرجع ، ص ١٢١ .

(٣٤) نفس المرجع ، ص ١٣٢ .

يعبر عن نفس المنطوق قبل وبعد كوبرنيق أو قبل وبعد دارون . فالتغير الذى حدث إنما يمكن فى علاقة هذه التصريحات بقضايا أخرى تتصل بمجال الخبرة والممارسة والتحقيق . وإذا قلنا أن «الأحلام هى تحقيق للرغبات » ، فإن هذه الجملة يمكن أن تتكرر على ممر العصور ، وهى ليست نفس المنطوق عند أفلاطون وفرويد . وهنا نلاحظ أن نفس الكلمات ونفس التركيب والمضمون اللغوى لا يفصح عن نفس المنطوق . هذا على الرغم من أننا يمكن أن نجد نفس المنطوق فى صور لغوية متعددة وذلك فى حالة ترجمة أى مقال إلى لغة أو لغات أخرى غير لغته الأصلية (٣٥) .

ونرى مما تقدم أن المنطوق لا ينبغى أن ينظر اليه كمجرد حدث فى الزمان والمكان يمكن استعادته فى الذاكرة . كما أنه لا ينبغى أن ينظر اليه كذلك على أنه صورة مثالية يمكن أن تتجسد فى أى شئ ، لأنه فى حقيقته شئ قابل للتكرار . وهذه المادية المتكررة *cette matérialité répétable* التى تتصف بها الوظيفة المنطوقية تجعل المنطوق يظهر وكأنه شئ بين الأشياء التى انتجها الإنسان ، التى يستخدمها ويتبادلها ويحولها أو يحلها ويعيد تركيبها وربما يحطمها . والمنطوق ، بدلا من أن يكون شيئا قىل مرة واحدة (وبالتالى ذهب مع الماضى السحيق كما يذهب قرار معركة حربية أو كارثة جيولوجية أو موت ملك) . فإنه يظهر بحالته ظهوراً مادياً : ويدخل فى مسارات مختلفة ، ويتمركز فى مجالات استخدام منفردة ، ويستسلم أمام تحولات وتغيرات غير محددة ، وقد ينتظم فى عمليات يمكن أن تطمس هويته (٣٦) .

(٣٥) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٣٦) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

مما تقدم عن الوظيفة المنطوقية يمكننا أن نفهم ما قدمه فوكوه نفسه عن المنطوق من أنه حدث غريب (événement étrange) أولاً ، لارتباطه برموز الكتابة أو بالكلام ، ولا احتفاظه مع ذلك بوجود في الذاكرة وفي الوثائق المكتوبة وفي الكتب . ثانياً ، لأنه كحدث ينفرد في أنه يخضع للتكرار والتحول والتجديد . وأخيراً ، لأنه يرتبط ليس فقط بمواقف تثيره أو بنتائج تترتب عليه ، بل هو يرتبط في نفس الوقت بمنطوقات أخرى سابقة عليه ولا حقة له (٣٧) .

ومما تقدم عن الوظيفة المنطوقية ، يتضح أيضاً أن «المنهج الأركيولوجي» إنما يستهدف الوصول إلى «وضعية المنطوق» la positivité de l'énoncé . وهو في هذا لا يتعرض لعالم مغلق ، لأن غاية المنهج هي إعادة «فتح ملفات» ما أنجز من أعمال لفحصها في صورة منطوقات لا يتحدد معناها إلا داخل مجال معين . ولقد تحققت فعلاً هذه الغاية في تطبيقات المنهج التي سنخصص لها الباب الثاني كله من الرسالة . أما الآن ، فإنا سنعرض لما أسماه فوكوه «وصف المنطوقات» la description des énoncés .

### معنى وصف المنطوق :

يرى فوكوه أنه إذا أطلقنا اصطلاح «أداء لفظي» performance verbale على أى مجموع من الرموز اللغوية ، فإن من الممكن أن نطلق اصطلاح «صياغة» formulation على الفعل الفردى أو الجماعى الذى يظهر — بطريقته الخاصة — هذه المجموعة من الرموز. وإذا كانت الصياغة هي حدث

.....

(٣٧) نفس المرجع السابق ، ص ٤٠ - ٤١ .



événement يمكن تحديده دائماً بملازمات زمانية ومكانية ، كما يمكن أن ينسب إلى فاعل auteur : ويمكن أن يكون بذاته ما يطلق عليه التحليليون الانجليز (٣٨) لفظ "Un acte performatif" (فعل الأداء) ، فإن المنطوق هو النمط الذى تظهر به الرموز ، وهو النمط الذى يجعل منها شيئاً آخر غير مجرد مجموعة خطوط أو مجرد تتابع لبعض العلامات على جسم أو أى شيء آخر صنعه الإنسان . ويظهر إذن أن وصف المنطوق هو تعريف بالظروف التى أعطت الوجود لمجموع من الرموز ، وجعلت لها علاقة بمجال من الأشياء . وهذا الوصف يتجه إلى شرط الوجود بالنسبة للمجسوعات الدالة ensembles signifiants . وهو لا يهدف إلى الكشف عن عنصر مختبئ أو معنى غامض وذلك على الرغم من أن المنطوق غير مرئى Non visible (٣٩) . وبين فوكوه أنه لمن المتعذر التوصل للمنطوق عن طريق الإدراك الحسى . ربما لأنه كالأجسام الشفافة التى لا تظهر بوضوح لشفافيتها . وربما لأنه لا يكون وحده مستقلة مثل الجمل أو القضايا ، بل كثيراً ما يكون مستمراً لخدمة هذه الأخيرة أو لخدمة أى تجمع آخر للرموز لا يخضع لما تخضع له الجمل والقضايا من قوانين وذلك مثل قوائم التصنيف والجدول Listes & Tableaux . وربما تعذر رؤية المنطوق كذلك لأن اللغة من حيث هى تركيب دال Une structure signifiante ، إنما تحيل دائماً إلى شيء آخر ، هو ما تشير إليه من أشياء وما يقصد من معنى وما يختبئ من ذوات Sujets . وفى الحقيقة يبدو أن اللغة مستودع عامر بالأغيار peuplé par l'autre ! أليست هى مسرح ظهور كل شيء سوى ذاتها ؟ ثم أليس فى كل هذا تبيد لوجودها ؟ (٤٠) .

(٣٨) من أمثال جورج ادوارد مور ، وبرتранد راسل وتليدهما فجنشتين .

(٣٩) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٤٣ .

(٤٠) نفس المرجع ، ص ١٤٦ .

يرى فوكوه - انطلاقاً من هذا كله - أن المستوى المنطوق le niveau énonciatif ينبغي أن يدرس هذا الوجود المفرد Singulière والمحدد limitée للغة ، وذلك بأن يتجاهل ما لها من قدرات على نقل المعنى وكشف الحقيقة وإظهار الأشياء وما إلى ذلك. وهذا يعنى أنه يتجاهل المدلول اللغوى .

وإذا كان هناك من الفلاسفة المعاصرين من سبق فوكوه إلى المطالبة بتعطيل المدلول اللغوى حتى تنصب الدراسة فقط على نسق الدال (٤١) ، فإن فوكوه يطالب بوقف الدال أيضاً لكي تظهر اللغة (٤٢) ، أو لكي يظهر ما أسماه «المعطى المنطوق» Un donné énonciatif (٤٣). والبحث عن «المعطى المنطوق» في ذاته لا يعنى البحث عن سر معين أو عن أصل للغة أو حتى عن مستوى أكثر عمقاً، بل أنه محاولة تستهدف التحرر عن هذه الشفافية التي تبرر إمكانية أى دراسة تحليلية للغة .

وإذا نجحنا في وصف هذا «المعطى المنطوق» ، فإن هذا يعنى أن الصياغة اللغوية لم تكن في الأصل مجرد تمزيق للصمت . كما يعنى أن الكلمات والجمل والمعاني والتصريحات وتسلسل القضايا لا تستند مباشرة إلى ليل أولى صامت ، بل إن الظهور الفجائي للجملة وإشراق المعنى ، إنما يصدران دائماً عن الوظيفة المنطوقية (٤٤). ولذا. فقد كان من العبث أن نبحث فيما وراء

---

(٤١) نذكر من هؤلاء الفلاسفة المعاصرين فتجنشتين في فلسفته اللغوية ، راجع بهذا الخصوص : الدكتور زكريا إبراهيم : «دراسات في الفلسفة المعاصرة» ، مكتبة مصر سنة ١٩٦٨ ، ص ٢٧١ - ٢٧٥ .

(٤٢) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٤٦ .

(٤٣) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(٤٤) نفس المرجع ، ص ١٤٧ .

التحليلات اللغوية عن مجال ترتفع فيه أى ذات انسانية ، وتتمتع بأى عمل حر ، أو تفتح الطريق أمام أى مسار متجاوز *transcendantale* فاللغة فى ظهورها أو فى نمط كينوتها إنما هى المنطوق ، ومن ثم فإنها تصدر عن وصف ليس متجاوزاً أو انثروبولوجيا .

وفى معرض الحديث عن وصف المنطوق باعتباره ذرة المقال يحدثنا فوكوه عن المقال ذاته ، ويرى أنه «يتكون من مجموع تتابع الرموز من حيث هى منطوقات» (٤٥) ، أما قانون هذا المجموع فهو ما يسميه «التكوين المقالى» *la formation discursive* . وهذا الأخير هو مبدأ انتشار *dispersion* وتوزيع *répartition* المنطوقات : وليس الصيغ أو القضايا (٤٦) . كما أن هذا المبدأ ليس شيئاً آخر سوى ترابط المنطوقات ذاتها ، لا على مستوى القضايا أو الجمل أو حتى على المستوى السيكلوجى بل فقط من حيث هى منطوقات .

وبلاحظ فوكوه أن وصف المنطوق ، والبحث عن الوظيفة المنطوقية ، ثم تحليل الظروف التى تمارس فى ظلها هذه الوظيفة ، كل هذا إنما يكشف النقاب عن التكوين المقالى (٤٧) . ومن ناحية أخرى يرى فوكوه أن التكوين المقالى هو النسق المنطوقى العام *le système énonciatif général* الذى تخضع له مجموعة من الأداء اللفظى *un groupe de performances verbales* (٤٨) . غير أن هذا الأداء — من حيث ما له من أبعاد أخرى — إنما يخضع كذلك لأنساق منطقية ولغوية وسيكلوجية .

(٤٥) نفس المرجع ، ص ١٤١ .

(٤٦) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(٤٧) نفس المرجع السابق ، ص ١٥١ .

(٤٨) نفس المرجع ، ص ١٥٢ .

ومن هنا يتضح أن المنطوق إنما ينتمى إلى «تكوين مقالى» كما تنتمى الجملة إلى نص لغوى والقضية إلى نسق استباطى . غير أنه فى الوقت الذى نجد فيه الجملة منتظمة حسب قوانين اللغة التى تنتسب إليها ، والقضية حسب قوانين المنطق الذى تنتمى إليه . فإن انتظام المنطوقات أو اطرادها *régularité* إنما يعرف بواسطة «التكوين المقالى» ذاته باعتباره قانونها . وليس ثمة تناقض فى هذا الصدد خصوصاً وأن التكوين المقالى لا يتميزه مبادئ تركيبية ، بل يتميزه فعل الانتشار ذاته *dispersion* كما أن التكوين المقالى ليس هو شرط امكانية المنطوقات بل هو قانون التواجد معاً *une loi de coexistence* (٤٩) . وقد حرص فوكوه على أن يبين أن التحليل المنطوق لا يرسم حدوداً تتوقف أمامها التحليلات اللغوية أو المنطقية ، بل إنه رغم مساره المختلف إنما يلتقى معها فى النهاية (٥٠) . فتحليل المنطوق لا يهدف إلى أن يحتل مكان التحليل المنطقى للقضايا أو التحليل اللغوى للجمل أو التحليل السيكلوجى للصيغ بل ، هو — كما سبق أن قدمنا — طريقة جديدة أو بعد جديد لفحص الأداء الكلامى . فهو يفتت ما به من تعقيد ، ويعزل الألفاظ المتداخلة فيه ويحدد ما يخضع له من اطراد .

ونلاحظ هنا أن فوكوه إنما يقف فى مواجهة التيارات الفلسفية التى تضع كينونة اللغة أو أصولها فى مقابل جميع التحليلات اللغوية ، أى تضع الفلسفة فى مقابل العلم «فالمقال لا يكون وحده صورية *une Unité formelle* يمكن أن نسجل ظهورها أو استخدامها فى التاريخ ، بل إنه يتكون من عدد

(٤٩) نفس المرجع ، ص ١٥٣ .

(٥٠) نفس المرجع ، ص ١٤٨ .

محدود من المنطوقات يمكن أن نعرف بصدد مجموع من حالات الوجود» (٥١). هذا بالإضافة إلى أن «التحليل المنطوق لا يقوم إلا بصدد أشياء قيلت dites وجمل كتبت ، وعناصر دالة نقلت أو نصبت » (٥٢) . إنه تحليل تاريخي يبتعد تماماً عن أى تفسير : فبالنسبة لأشياء قيلت ، نجد أنه لا يبحث فيما نخبئه أو ما ينبثق عنها من أفكار أو صور أو خيال ، بل على العكس نجده يسأل عن نمط وجودها وعن معنى ظهورها ، ولم كان هذا الظهور لها وليس لغيرها ، وعن معنى أنها تركت أثراً ، وأخيراً عن استخدامها الممكن (٥٣).

المقال إذن وحده unité وعدم استمرار discontinuité في التاريخ. وهو يحض على التساؤل عن حدوده limites (أى حدود المقال) ، وعن القطع فيه ses coupures وعن تحولاته transformations وأنماط وجوده الزماني أكثر من حثه على التساؤل عن بداية ظهوره في الزمان (٥٤).

وبناء على ماتقدم ، فإن ما يطلق عليه فوكوه اصطلاح «ممارسة مقالية» Pratique discursive (٥٥) ، يمكن أن يتحدد تماماً الآن : فهو لا يختلط بعملية التعبير التي تظهر فكرة أو رغبة أو صورة image ، كما لا يختلط بأى نشاط ذهني كالذي يصاحب عادة أى استدلال inférence ، ولا بالفصاحة التي تصدر عن يرنجل عبارات لغوية منمقة . على العكس تماماً من كل هذا ،

---

(٥١) نفس المرجع ، ص ١٥٣ .

(٥٢) نفس المرجع ، ص ١٤٣ .

(٥٣) حيث أن المقال له كيان مادي ، فهو إذن لا يعرف خارج نطاق العلاقات المكونة له . ولذا نتحدث عن علاقات مقالية ، واضطراد مقالي ، ولا نتحدث عن مقال . راجع أيضا

LECOURT Dominique : "Pour une critique de l'épistémologie" (Maspero, 1974), P. 110.

(٥٤) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٥٣ .

(٥٥) «أركيولوجيا المعرفة» ، نفس الصفحة .

نجد أن الممارسة المقالة هي مجموعة من القواعد الغفل anonymes ، تتجدد في الزمان والمكان وتعرف شروط ممارسة الوظيفة المنطوقية في حقبة معينة وفي مكان جغرافي واقتصادي واجتماعي أو في مجال لغوي معين . وهذه القواعد الغفل هي التي تخضع لها اللوات .

وقبل أن تنتهي دراسة فوكوه عن المنطوقات باعتبارها ذرات مقالية ، فإنه يناقش بخصوصها نقاطاً ثلاث : الأولى تتصل بندرتها rareté ، والثانية تتصل بدراسة علاقاتها الظاهرة من الخارج extériorité ، والثالثة تتصل بتحليل التراكم cumuli (٥٦) . ثم يعترف في النهاية بأنه ربما يكون قد اقترب من «الوضعية» ، ولا اعتراض منه على من وصفوه بذلك .

#### ندرة المنطوقات :

إذا كانت النصوص اللغوية يمكن أن ترد إلى بعضها البعض ، كما يمكن أن تنظم في واجهة فريدة figure unique ، وتسير في اتجاه متقارب مع المؤسسات والممارسات ، بل وتشارك في معان موحدة داخل حقبة زمنية معينة ، ويكون كل عنصر فيها معبراً عن المجموع الذي ينتمي إليه والذي يثبت عنه . فإننا نلاحظ هنا أن الوحدة تحل محل الكثرة . فكثرة الأشياء المقولة choses dites تنظم في (لوحة عريضة) أو نص كبير متسق un grand texte uniforme لم يرد ذكره بعد jamais encore articulé ، ويكشف للمرة الأولى عما ورد بخاطر البشر ، ليس فقط في أحاديثهم أو

---

(٥٦) «أركيولوجيا المعرفة» ، (ص ص ١٥٥ - ١٦٥) .

كتاباتهم بل أيضاً في مؤسساتهم وممارساتهم وفي الأشياء التي ينتجونها (٥٧) .

وإذا كان هذا المعنى المتضمن هو أول وآخر ما ينكشف من خلال الصياغات الظاهرة ، خصوصاً وأنه محتجىء وراء ما يظهر من التفسيرات أو أنه يسير محاذياً لهذه التفسيرات تحت السطح ، فهذا يعني أن المقال أياً كان إنما يحتفظ بالقدرة على أن يعنى شيئاً آخر غير الذي يقوله ، كما أنه يحجب معان متعددة تسببت في تعدد التفسيرات . والحقيقة أن التفسيرات المختلفة لم تكن لتوجد إلا بسبب ندرة المنطوقات . فالتفسير هو بمثابة رد الفعل الضروري في مواجهة هذه الندرة وهو يواجهها بتضعيف المعنى (٥٨) (أي بالاكثار منه) .

وقد لاحظنا مما تقدم أن فوكوه إنما يتعرض لمفهوم الكثرة ، كثرة الأشياء المقولة التي تنتظم في نص أوحده ، وكثرة المعاني المتضمنة في النص مقابل ندرة المنطوقات. وقد ظهرت أهمية هذا المفهوم في الفلسفة المعاصرة أولاً عند برجسون في كتابه «المعطيات المباشرة للشعور» (٥٩) ، وفيه تعرف الديمومة على أنها نوع من الكثرة يختلف عن الكثرة المكانية . كما ظهر هذا المفهوم أيضاً عند هسرل في كتابه «المنطق الصوري والمنطق الترانسندنتالي» (٦٠) غير أن التحول الذي طرأ على مفهوم الكثرة عند فوكوه إنما يبتعد به تماماً عن المشكلات التقليدية المتصلة بالتقابل بين الكثير والواحد ، وخاصة مشكلة تدخل الذات التي تميز وتشرط وتبحث عن الأصل .

---

(٥٧) نفس المرجع السابق ، ص ١٥٥ . ونلاحظ بهذا الصدد أن هذا النص الكبير الذي تنتظم بداخله المؤسسات والممارسات في حقبة معينة ليس شيئاً آخر سوى البناء «الثقافي» أو ما يطلق عليه فوكوه اسم Epistémè وسيرد إحدث عنه بالتفصيل فيما بعد

(٥٨) نفس المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

(٥٩) ظهر هذا الكتاب سنة ١٨٨٩ م .

(٦٠) ظهر كتاب هسرل سنة ١٩٢٩ م .

لا وجود للواحد ولا للكثير عند فوكوه إذن ، وإلا فسنكون بصدد شعور يدرك ذاته في الواحد وينتشر في الكثير . يوجد فقط كثرة نادرة ، ذات نقاط مفردة ، وأماكن شاغرة لمن أتوا ليقوموا بدور الذوات في لحظة ما (٦١).

### دراسة المنطوقات من الخارج :

إذا سلمنا بأن تحليل المنطوقات يكون من الخارج ، فإن هذا العمل يفترض أن مجال المنطوقات لا يوصف على أنه ترجمة لعمليات تحدث في الفكر أو في اللاشعور أو في أي مجال متجاوز (ترانسندنتالي) ، بل ينبغي أن يقبل أمبيريقيا كمكان للأحداث événements (٦٢). كما يترتب على ذلك أيضاً أن «مجال المنطوقات» لا يرد إلى فرد إنساني أو ضمير جمعي أو أي ذاتية متجاوزة ، بل ينبغي أن يوصف على أنه مجال غفل يكشف عن مكان محتمل لأي ذوات ناطقة . وهنا ينبغي الاعتراف بأن الذاتية الناطقة ليست سوى نتاج للمجال المنطوق . كما ينبغي الاعتراف كذلك بأن التحليل المنطوق إنما يستبعد الكوجيتو تماماً (٦٣). «N'importe qui parle»

### تحليل التراكم : Analyse des cumuls

إن صور تراكم المنطوقات لا يمكن أن تتطابق مع تجمع المعلومات في الذاكرة أو تكديسها في وثائق .

وإذا كان وصف المنطوقات يعتمد على انتشارها الخارجي ، فإن هذا

---

(٦١) راجع أيضاً هذا الخصوص مقال للكاتب GILLES DELEUZE بمجلة النقد Critique عدد مارس سنة ١٩٧٠ . (أنظر مصادر الكتاب) .  
 (٦٢) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٦٠ .  
 (٦٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٦١ .



الوصف لا يهدف إلى البحث عن الأصل بداية أو أثراً ، بل يهدف للوصول إلى الصور الخاصة للتراكم . هو لا يكشف إذن عن أساس 'fondement ولا يضع تفسيراً 'interprétation بل إنه يقرر موضوعية 'établir une positivité ونلاحظ بهذا الخصوص أن تراكم المنطوقات لا يعنى أنها تكون كثرة بدهاءة (أكسيوماتيكية) ، أى أنها لا تنتظم في نسق استنباطي كما هو الحال في نظرية البناءات عند ليفي ستروس (٦٤). والمنطوقات ليست كثرة محسوسة ، بل هي في مرتبة متوسطة بين المحسوس والمعقول تكاد تقترب من موضوع «التوبولوجيا» (٦٥) . وعلى هذا فإن المنطوق — كوظيفة — ليس بناء ، بل إنه هو الذي يظهر «البناءات» والوحدات الممكنة في الزمان والمكان (٦٦).

وقبل أن نختتم هذا الفصل عن المنهج الأركيولوجي ، نود أن نتعرض بالشرح لا صطلاحين هامين ، ونبدأ بالاصطلاح الأول عن معنى «الأرشيف» .  
«الأرشيف هو مجال ما قيل من أشياء» (٦٧) 'Le domaine des choses dites  
و«هو موضوع البحث الأركيولوجي» (٦٨) . وهذا لا يعنى أن المفكر الأركيولوجي يبحث في سرد «خبرة من الوقائع ، والأحداث ، والمعاني ،

---

(٦٤) راجع نظرية البناءات عند ليفي ستروس «بالمدخل الفلسفي للأنتروبولوجيا البنائية» وهي الرسالة التي حصل بها الباحث على درجة الماجستير عام ١٩٧٥ ، مكتبة كلية الآداب .  
(٦٥) التوبولوجيا هو أحد الفروع الحديثة لعلم الرياضيات ، وهو يدرس العلاقة بين نظرية المنطوق وبين التحليل الرياضي . والمنطوقات بهذا المعنى تذكرنا «بالمتوسطات» الرياضية عند أفلاطون والتي أشار إليها في «الجمهورية» لتقريب المحسوس من المعقول .  
(٦٦) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١١٥ .

(٦٧) KREMER-MARIETTI Angèle, "Michel FOUCAULT" (67)

(Seghers, 1974), P. 22.

(68) Ibid., P. 44.

(٦٨)

والدلالات ، على طريقة المؤرخ التقليدي» (٦٩) ، بل إنه على الأحرى يحاول أن يضع يده على «حملة القواعد العاملة داخل ثقافة ما ، المحددة لظهور الأحكام واختفائها ، المتسببة في بقائها أو إزالتها ، المعينة لطبيعة وجودها الخاص باعتبارها أحداثاً وأشياء ..» (٧٠)

وفي كتاب «أركيولوجيا المعرفة» يحدد فوكوه ما يقصده بالارشيف بأنه «النسق الذى يحكم ظهور المنطوقات باعتبارها أحداثاً مفردة» (٧١) أو «هو النسق العام لتكوين المنطوقات وما يطرأ عليها من تحول» (٧٢) . وأخيراً فإن الارشيف « هو ما يميز المقال في صور وجوده المتعدد وما يحدده في ديمومته الخاصة » (٧٣) .

أما الاصطلاح الثانى فهو «القبلى التاريخى» *l' A priori historique* يقول فوكوه : «أن ما أقصده بقبلى *a priori* هنا ليس شرطاً لصحة وشروعية الأحكام بل هو شرط لواقعية المنطوقات ... أى شرط ظهورها وفانون تاجدها معاً *coexistence* ، والصورة الخاصة لأنماط وجودها ومبادئ استمرارها وتحولها أو زوالها» (٧٤) . كما يقرر فوكوه بأنه قد استخدم هذا الاصطلاح كى يشير به إلى المنطوقات في انتشارها وتتابعها ، وأيضاً ليبين أن المقال ، بالإضافة إلى ما يمكن أن ينسب له من حقيقة أو معنى ،

---

(٦٩) الدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، مكتبة مصر سنة ١٩٧٦ ، ص ١٣٢ .

(٧٠) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٧١) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٧٠ .

(٧٢) نفس المرجع ، ص ١٧١ .

(٧٣) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(٧٤) نفس المرجع ، ص ١٦٧ .

فإن له تاريخاً من نوع خاص، لاصلة له بقوانين الصيرورة الغربية عنه (٧٥). وعلى سبيل المثال يرى فوكوه أن تاريخ النحولا يمكن أن يكون انعكاساً للتاريخ الذى أحدث تحولاً فى الميكانيكا والطب . ومع ذلك فمن الممكن أن يكون تاريخ المقال على علاقة بأنماط التاريخ الأخرى (٧٦).

والقبلى التاريخى يتميز بأنه تجريبى بحث *purement empirique*، وهو بمثابة الصورة الوضعية للمقال . ووضعية المقال هى التى تظهر وحدة الكتب والنصوص فى حقبة زمنية معينة . فهذه الوحدة إنما تبين أن *Linneé* و *Buffon* من علماء التاريخ الطبيعى ، *Quesnay* و *Turgot* فى الاقتصاد السياسى ، و *Bichat* و *Broussais* فى الطب ، وكلهم ينتسبون إلى القرن الثامن عشر . نقول أن هذه الوحدة إنما تبين أن هؤلاء جميعاً إنما يقولون نفس الشيء *Ils disent la même chose* . فالمؤلفات التى تنتمى إلى نفس التكوين المقالى إنما تنسب إلى العديد من المؤلفين الذين يعرفون بعضهم بعضاً أو يجهلون بعضهم البعض . وهم قد يختلفون وقد يتفقون ، غير أنهم يلتقون على غير علم منهم . وقد تتشابه كتاباتهم فى نسيج قلما وعوه أو أدر كوا أبعاده ... إنهم يلتقون على أرض واحدة هى الصورة الوضعية لمقالهم . وهذه الصورة الوضعية أو (شروط ممارسة الوظيفة المنطوقية) هى التى تخلق مجالا يظهر فيه التماثل الصورى *des identités formelles* ، والصفة

---

(٧٥) ربما كان هذا ما قصده فوكوه فى العبارة الملفة التى اعتم بها كتاب «أركيولوجيا المعرفة» والى يوجه فيها الحديث الى أولئك الذين يتوجسون خيفة من قوة المقال مع نخبة الدات . يقول لهم : «إن المقال ليس هو الحياة ، وزمانه ليس زمانكم ... وواضح هنا أنه يفرق بين زمان المقال وزمان البشر الحاضمين لقوانين الصيرورة . وسيكون لنا عودة لهذه العبارة فيما بعد .

(٧٦) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٦٨ .

الاستمرارية للأفكار العامة des continuités thématiques ، ونحول  
التصورات des translations de concepts . وعلى هذا ، فإن هذه الصورة  
الوضعية هي ما يسميه فوكوه القبلي التاريخي (٧٧).

ويتضح مما تقدم أن القبلي التاريخي هو الذي يمسك بحركة المقال ، وهو  
بالتالي يمكنه أن يفسر ظهور القبلية الصورية des a priori formels . وهذه  
الأخيرة تستند إلى تاريخ من نوع معين هو عبارة عن تصور ساكن وفارغ  
immobile et vide لا يستند إلى واقع ، في حين أن القبلي التاريخي يستند  
إلى تاريخ هو «جسد للصيرورة» (٧٨).

«إن القبلي التاريخي والقبلي الصوري ليسا على نفس المستوى وليس لهما  
نفس الطبيعة ، وكلاهما يتخذ بعداً مختلف عن الآخر» (٧٩) .

وفي ختام هذا الفصل ، نلاحظ أنه يهدف بالدرجة الأولى إلى التعرض  
للمصطلحات الجديدة ، أو بالأحرى تلك التي استخدمت استخداماً جديداً  
في المنهج الأركيولوجي وعلى رأسها «المنطوق» . كما نلاحظ أن «المنطوق»  
رغم كل ما جاء عنه في «أركيولوجيا المعرفة» ، ورغم أنه «القاعدة الأولى  
أو الجزئية الأخيرة للمقال» ، فإنه يظل متمرداً على التعريف والتحديد ، بل ظل  
متصفاً بالغموض لكونه مرثياً ومختبئاً في نفس الوقت non visible, non caché .  
ولا غرابة في ذلك على الإطلاق . فقد كان الفيلسوف الألماني

---

(٧٧) نفس المرجع ، ص ١٦٧ .

(٧٨) GUEDEZ Annie : "Foucault" (Psychothèque, Ed. Universitaires, 1972) , P. 41 .

(٧٩) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٦٩ .

مارتن هيدجر مغرماً هو الآخر برد جميع التصورات إلى تصور أول يصعب التعبير عنه (٨٠). فالكينونة *être* ليست هي الوجود المشخص *étant*. ومع ذلك، فإن هذا الأخير يرد إليها (٨١). هي إذن «وجود وعدم» (٨٢) «أو أن «فيها يكمن مبدأي الوجود وعدم» (٨٣). إنها «كشف وطمس في نفس الوقت» (٨٤) *A la fois révélation et obnubilation*.

ولا ينبغي مع ذلك أن يتهم فوكوه بأنه «استلهم الغموض من فلسفة دخيلة» (٨٥)، وخارج بذلك على خصائص الفلسفة الفرنسية التي «هي نفسها خصائص فلسفة ديكارت» (٨٦). فالغموض أو التعقيد قد أصبحا من الصفات المألوفة في الفلسفة المعاصرة بوجه عام (٨٧). ولعل السبب في ذلك هو الواقع المعاصر نفسه، فهو الذي استلزم إعادة النظر في كل المفاهيم البسيطة لأنها ربما اتصفت بالضحالة.

وإذا أعدنا التساؤل عن صعوبة هذه الأدوات الاستمولوجية الجديدة،

---

(80) DUFRENNE Mikel : "La philosophie du néo-positivisme", (٨٠) in (*Esprit*, Mai 1967), P. 785.

(81) Ibid., P. 786. (٨١)

(82) LACROIX Jean : "Heidegger, le plus grand philosophe (٨٢) de notre temps", in (*Le Monde hebdo.* No 1440, du 27 Mai, 1976).

(83) DUFRENNE Mikel : Op. Cit., P. 787. (٨٣)

(84) Ibid. (٨٤)

(85) Ibid., P. 784.

(٨٦) كان الفيلسوف هنري برجسون يعتقد بأن خصائص الفلسفة الفرنسية هي نفسها خصائص فلسفة ديكارت، كما اعتقد أن أهم هذه الخصائص هي الوضوح والتميز.

ROBINET André : "La Philosophie Française", (P.U.F., 1966), P. 57.

(٨٧) الدكتور زكريا إبراهيم : «دراسات في الفلسفة المعاصرة»، مكتبة معرسة ١٩٦٨، ص ١٥ - ١٦.

وعما تمخضت عنه من «جهاز ثقيل ومجبر» (٨٨) Tout un appareil lourde et embarrassant ، عندئذ يجب فوكوه بأنه لجأ إلى كل هذا بعد أن شك في الوحدات المعرفية المطروقة (في الكتب، وفي الأعمال الثقافية oeuvres ، وفي العلوم المختلفة)، وخصوصاً فيما ينسب إليها من استقلال أو ترابط (٨٩) يقول : «لأني لا أرى في أي منها نصاً كبيراً متصلاً Un grand 'texte ininterrompu» يعبر الزمان من خلال أعمال فردية ، بل أرى شيئاً يختلف مستوياتها وتتغير وظائفها... كما أرى تصورات Concepts مختلفة في التكوين والاستخدام ولا تجمعها أي رابطة كما لا يمكن أن تتدرج تحت أي نسق منطقي... ولهذا كله رأيت أن أنكب على وصف صور التبعثر هذه ces dispersions بهدف البحث عن أي انتظام أو اطراد ممكن : في تابع ظهورها ، أو في تلازم وجودها في الزمان ، أو تواجدها في مجال مكاني مشترك espace commun ، أو ما يطرأ عليها من تحولات مترابطة يعتمد بعضها على البعض الآخر . وباختصار ... سأبحث عن انساق التبعثر systèmes de dispersion بدلا من أن أكون تسلسلا استنباطياً des chaines d'inférence كما يفعل عادة مؤرخو العلوم» (٩٠) .

وقبل أن نعرض تطبيقاً عملياً لهذا المنهج (٩١)، فإننا سنشرح في استكمال أهم دقائقه في الفصل القادم عن «الأركيولوجيا وعلم تاريخ الأفكار» .

(٨٨) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٧٧ .

(٨٩) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(٩٠) نفس المرجع ، ص ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٩١) سيكون الباب الثاني (ويشمل الفصل الثالث والرابع والخامس) بمثابة عرض تطبيقي للنهج .

## الفصل الثاني

### الأركيولوجيا وعلم تاريخ الأفكار

- ١ - معنى «الأركيولوجيا» .
- ٢ - مشكلة الذات .
- ٣ - زيف الاستمرار التاريخي .
- ٤ - الاختلاف بين الأركيولوجيا وتاريخ الأفكار .
- ٥ - شجرة اشتقاق المنطوقات .
- ٦ - الرؤية الأركيولوجية للمتناقضات .
- ٧ - الأركيولوجيا هي تحليل مقارن .
- ٨ - موقف الأركيولوجيا من التغير .
- ٩ - مجال البحث الأركيولوجي .





## الأركيولوجيا وعلم تاريخ الأفكار

يشترك هذا الفصل مع<sup>(١)</sup> سابقة في توضيح الأبعاد المختلفة للمنهج عند ميشيل فوكو. والفصل يبدأ أولاً بالتوقف قليلاً عند استخدام كلمة أركيولوجيا ويبين ما استهدفه فوكو من وراء هذا الاستخدام، ثم يلخص أوجه الاختلاف بين الأركيولوجيا وتاريخ الأفكار. وأخيراً فإنه يعرض للمنهج الأركيولوجي باعتباره تحليلاً مقارناً.

معنى الأركيولوجيا :

لقد كان لكلمة «أركيولوجيا» أهمية خاصة في ثبت المصطلحات الكثيرة التي استحدثها ميشيل فوكو. فهو يستخدمها للدلالة على منهجه، ويجعل منها قاسماً مشتركاً لتسمية مؤلفاته الفلسفية، إذ نجد عنده «أركيولوجيا النظرية الطبية»، و«أركيولوجيا العلوم الإنسانية»، و«أركيولوجيا المعرفة»<sup>(١)</sup>. «إن كلمة أركيولوجيا (= علم الآثار) مشتقة من اللفظ اليوناني «أركيه» arché أو «أرخايوس» arkhaïos الذي يعنى «قديم». ونحن نعرف أن دراسة الآثار القديمة تستلزم القيام بحفريات، من أجل استخراج آثار الماضي من طوايا الأرض، والعمل على إعادة تركيب تاريخ الحضارات القديمة. ولكن فوكو لا يستخدم هذا الاصطلاح بهذا المعنى المعروف»<sup>(٢)</sup>.

فثلاً إذا كان استخدام لفظ «أركيولوجيا» يذكر بفكرة الحفريات fouille وقد يوحى بافتراض وجود وقائع وأسرار مخبئة، على الفلسفة أن تكشف

(١) الأول هو التسمية الثانية لكتاب «مولد العياد» ، والثاني هو كتاب «الكلمات والأشياء» .

(٢) الدكتور زكريا إبراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٢٣ .

عنها ، فإن هدف فوكوه إنما يبتعد عن ذلك تماماً لأنه يرفض التأويل  
 interprétation من جهة (٣) ، ومن جهة أخرى لأن المختبئ عنده مرئى وغير  
 مرئى فى نفس الوقت invisible visible كما سبق أن قدمنا (٤) . إنه  
 بالأحرى بعيد الظهور إلى الأشياء التى اختبأت من فرط تواجد هاعلى السطح (٥)  
 ومنها على سبيل المثال تلك الممارسات المثالية التى انبثقت عنها العلوم  
 الإنسانية (٦).

وقد شعر فوكوه بصعوبة استخدام كلمة «أركيولوجيا» ، خصوصاً  
 وأنها تتضمن أيضاً فكرة الأصول الأولى Origines premières . وهو  
 لايزعم أنه استهدف الارتداد إلى «لحظة أولى مهيبة» هى نقطة البدء لأول  
 معرفة ممكنة (٧) ، لأن هذا قد يدخل ضمن مباحث الميتافيزيقا التى يرفضها  
 تماماً . لقد كان الهدف الحقيقى لفوكوه هو أن يكشف عن ظهور «بدايات  
 نسبية» Commencements relatifs ، وهو فى ذلك « محتاج إلى  
 التاريخ لكى يبدد خرافة الأصل » (٨). والتاريخ الذى يحتاج اليه فوكوه  
 ليس فكرة مجردة، بل هو « يتميز بما له من كثافة ، وما به من قصور ،  
 وما قد يطرأ عليه من تقلبات أو لحظات توقف Synopes . والتاريخ بهذا

(٢) راجع الفصل الأول ، ص ٤ .

(٤) ص ٣٣ .

(٥) M. FOUCAULT : „Entretien avec J. — J. Brochier”, (Maga- zine Littéraire, No. 23, Avril-Mai 1969).

GUEDEZ Annie, Op., Cit., P. 42.

ذكرته :

(٦) راجع ظهور العلوم الإنسانية فى الفصل السابع .

(7) Magazine Littéraire, Op. Cit.

(٧)

(8) GUEDEZ Annie, Op. Cit., P. 41.

(٨)

(٨) ونلاحظ أن كلمة نسبية هنا تعنى نسبة هذه البدايات الى البناء الثانى بأكمله

وما به من عناصر .

المعنى هو «جسد للصيرورة»، وربما بحثنا له عن روح لو كنا ميتافيزيقيين» (٩). وإذا كانت أركيولوجيا فوكوه لا تبحث عن أسرار مخبئة ، وإذا لم تكن تهدف إلى البحث عن أصول أولى ، فإن لنا أن نتساءل الآن عما يتبقى لها من نقط للالتقاء بعلم الآثار .

إن القارئ لكتابات فوكوه قد يلاحظ أن اصطلاحاته المنهجية تخلو تماماً من لفظي «فكرة» و «أفكار» لأنه يستبدلها «بالمنطوق» و «المنطوقات» . ولعله يلاحظ أيضاً أن تعلقه بكلمة «أركيولوجيا» يمكن أن يدخل كذلك في نطاق تمسكه بالجانب المادي للمقال ، تماماً كما يتمسك عالم الآثار بكل عنصر ملموس تسفر عنه عمليات التنقيب والحفر .

وربما كانت نقطة الالتقاء الأساسية بين فوكوه وبين عالم الآثار هو أن كليهما ينظر إلى الواقعة الملاحظة على أنها عنصر في سياق ، وكلاهما لا يعترف بدور للذوات sujets إلا باعتبارها جزءاً من السياق أو عنصراً ضمن بقية العناصر .

ويترتب على هذه النقطة أن فوكوه لا يتناول المقال باعتباره وثيقة document ، أو كرمز لشيء آخر signe d'autre chose ، أو كعنصر يتصف بالشفافية ، بل باعتباره أثراً à titre de monument (١٠).

ونلاحظ بهذا الصدد أن المقال كوثيقة يكون قابلاً للتفسير ، وهذا الفن يتلخص في تجاوز النص ذاته texte إلى نص آخر يرد إلى الأول غير أنه لا

---

(9) Magazine Littéraire, Op. Cit.

(٩)

(١٠) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٨٢ .

يحتفظ بنفس الشكل أو المضمون لأنه يكون معنى مختبئاً يتعدى مستوى  
المقول *ce qui est dit* ويستخرج مالم يقال *le non-dit* (١١) .

وواضح أن فوكوه يستهدف شيئاً آخر يختلف تماماً عندما ينظر إلى النص  
نظرة عالم الآثار إلى الأثر . إنه يستهدف فقط وصف القول . وهذا الوصف  
يستبعد النظر إلى النص على أنه «مجرد انعكاس رمزي لأحداث أو لعمليات  
تمركز بعيداً عنه» (١٢). أى يستبعد دور الدوات .

يقول فوكوه : «إن لفظ «أركيولوجيا» لا يشير إلى البحث عن نقطة بدء  
كما أنه لا يقتر ب التحليل نحو أى تنقيب أو تجريب جيولوجي ، إنه يشير  
إلى اتجاه عام في الوصف ، ينصب على «كل ما قيل» ، ابتداء من المستوى  
الذي يوجد عليه : أعنى الوظيفة المنطوقية التي تمارس فيه ، والتكوين  
المقالى الذي ينتمى إليه ، والنسق العام للأرشيف الذي صدر عنه » (١٣)

وتلاحظ الباحثة آنجيل مارييتى MARIETTI أن دور أركيولوجيا  
المعرفة إنما يقتصر على فحص الممكنات *LES POSSIBLES* التي جعلت  
الواقع واقعاً ، أى الأنساق التي تيسر إمكانية حدوث الصورالنسقية الأخيرة .  
ولكى يتحقق ذلك ، ظهرت مقولة جديدة *catégorie nouvelle* أو مفهوم  
جديد ، يتحكم في نمط جديد من المعرفة ، لا يهتم بالأعماق اللاشعورية ،  
ولابد يمومة تتجاوز المجال المكاني ، ولا بالشئ في ذاته ، ولا بفكرة مقال

---

(١١) DELEUZE Gilles : "Un nouvel Archiviste", in (Critique, (١١)  
Mars 1970), P. 204.

(١٢) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢١٥ .

(١٣) نفس المرجع ، ص ١٧٣ .

مثالى ، بل يهتم فقط بالنص (١٤) le texte . كما ترى آجيل أن عمل الأركيولوجيا إنما يركز على شبكة عامة ومتكاملة من جميع العلاقات ، وهى العلاقات الجارى اكتشافها بفضل العمل الدائب لمجموع المناهج التى تجتمع تحت اسم «البنائية» . فهى تحلل التركيبات الاجتماعية ، وتدرس الصفات المعرفية ونظرية تاريخ العلوم (١٥) .

والأركيولوجيا لا تهتم بالعلم بقدر اهتمامها بالمعرفة فى علاقاتها بالعلوم . ذلك لأن فوكوه قد تسنى له «اكتشاف دور التكوينات المقالية من بين ثنايا المقال العلمى» (١٦) ، وهو فى هذا إنما يخرج من حسابه تماماً أى دور للذوات فى مجال المعرفة أو العلوم . وهنا نصل إلى نقطة الخلاف الأساسية بين الأركيولوجيا وعلم تاريخ الأفكار ، والتى تنحصر فى «مشكلة الذات» .

مشكلة الذات :

كان ميشيل فوكوه دائماً «بالكشف عن زيف المسلمة الأنثروبولوجية التى يركز عليها تاريخ الأفكار ، لكى يلتمس لعملية تحديد «الوقائع المقالية» منهجاً جديداً لا يستند إلى أى موضوع أنثروبولوجى» (١٧) .

والحقيقة أن الكشف عن زيف «المسلمة الأنثروبولوجية» أو «الموضوع

---

(١٤) KREMER-MARIETTI, Op. Cit., P. 41.

(١٥) Ibid., P. 43. أنظر الفرق بين العلم والمعرفة ، ص ٢٠٩ بالرسالة .

(١٦) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٥٥ .

اكتشف فوكوه من بين ثنايا علوم الطب والطب النفسى شلا ظهور تكوينات مقالية جديدة فى السنوات الأخيرة من القرن ١٨ وبدايات القرن ١٩ . وكان اهتمامه يتركز دائماً فى الكشف عن ظهور بناء معرفى جديد Epistémè كما سيتضح فى الفصل الرابع والخامس .

(١٧) الدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة النية» ، ص ١٦٥ .

الأنثروبولوجي» أو «الذات» Sujet ، لم يكن بمثابة اتجاه جديد يضطلع به فوكوه ، بل هو اتجاه عام لدى جميع البنائيين . فهم يتفقون على استبعاد الذات أو انكار أى دور مؤسس لها في مجال المعرفة . فمثلا كان عميد البنائيين الفرنسيين - ليفي ستروس - يستبعد الذات بزعم أنها : ذلك الطفل المدلل ، الذى شغل المسرح الفلسفى مدة طويلة . ووقف بذلك حجرة عثرة في وجه كل عمل جاد نتيجة لرغبته المستمرة في الاستئثار وحده بكل انتباه (١٨) . كما كان ليفي ستروس - في دراساته الأنثروبولوجية - لا يعترف بارادة بشرية تخلق الأساطير . وذلك بدعوى أن هذه الأساطير تتكون «داخل النفس الإنسانية . وفي غفلة منها» (١٩) .

وإذا سمح لنا بالارتداد إلى أبعد من ذلك ، فأننا نجد هذه النزعة «الانسانية» عند الفيلسوف نيتشه . يقول نيتشه : «إن قوة الاقناع التي تنصف بها مسلمات المنطق والميتافيزيقا وأيضاً الاعتقاد بفكرة الجوهر والعرض والمحمول وما إلى ذلك ، إنما ترجع كلها وترد إلى ما تعودناه من اعتبار كل نشاطاتنا كنتيجة لإرادتنا ... رغم أن إرادتنا هذه لا وجود لها» (٢٠) .

غير أن الباحثة آنجيل مارييتي قد لاحظت أن كتاب «أركيولوجيا المعرفة» يذهب في هدمه للكوجيتو إلى حدود أبعد مما نجده عند نيتشه ، وقد كان تحليل نيتشه للفظ «كوجيتو» على النحو التالي :

---

(١٨) نفس المرجع السابق ، ص ٥ .

(١٩) LEVI-STRAUSS : "Le cru et le Cuit" . (Plon, 1964) P. 20 .

(٢٠) ورد هذا النص في المجلد السادس عشر من مؤلفات نيتشه ، ذكرته آنجيل مارييتي في كتابها سالف الذكر ، ص ٣٩ .

« يوجد بهذا الكوجيتو الشهير :

أ - شى ما يفكر *Quelque chose pense*

ب - أعتقد أن هذا الشىء هو أنا *Je crois que c'est moi qui pense*

ج - إذا سلمنا بأن القضية (ب) غير يقينية ، خصوصاً وأن «أعتقد» هنا تعنى «الظن» (لأنها تتضمن تقريراً ذاتياً لا موضوعية له) ، فإن القضية (أ) «شىء ما يفكر» إنما تحتوى كذلك على «ظن» . ذلك لأن «يفكر» اعتبرت كنشاط يحتم تصور «ذات» أيا كانت ، وحتى لو كانت «شيئاً ما» .  
لذا فالقضية «أنا موجود *ergo sum* لا تعنى أكثر من ذلك» (٢١) أى أكثر من كون الأنا هى مجرد «شىء ما» . وهنا نلاحظ أن «الأنا المفكرة» وإن كانت تفتقر إلى التحديد فى نظر نيتشة ، إلا أننا نجد الفكر عند فوكوه يتعرى تماماً من أى كوجيتو : فالأنا المتغلغلة فى رواسب اللغة والثقافة ليست «أنا» . ذلك لأن «اللغة تكونت منذ آلاف السنين بدون الذات» (٢٢) ، وهى تعبر الذات من ورأها وتمخطاها فى نفس الوقت . فالمعنى يرقد بداخل الكلمات ، والذات تجهل نسق اللغة رغم أنها مضطرة لأن تصب «كلامها» «وفكرها» فى قوالبه ، حتى لقد أصبحت «الأنا» هى مجموع من قطاعات متراكمة يمكننى أن أظهر برينتها للحظات أو أعيد لبعضها الحياة لبعض الوقت وسط عدد لا يتهى من احتمالات الظهور للعديد منها . « (٢٣) » .

(٢١) ورد هذا النص فى المجلد الرابع عشر من مؤلفات نيتشه ، وهو المسى «بارادة القوة» ، ذكرته آتجيل مارييتى فى كتابها سالف الذكر ، نفس الصفحة .

(٢٢) يقصد بدون الذات العائده .

(٢٣) «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٣٤ .

ومما تقدم يتضح أن الذات التي نتحدث «de sujet parlant» لم تعد سوى ذات ظاهرية une apparence de sujet فقط ، خصوصاً إذا حللنا ما تشتمل عليه من مقال تحليلاً اجتماعياً وتاريخياً .

### «زيف» الاستمرار التاريخي:

غير أن محور الخلاف بين الأركيولوجيا وعلم تاريخ الأفكار لم يكن يرتكز فقط على «زيف» المسلمة الأنثروبولوجية ، بل إنه لينسحب كذلك تلقائياً على «زيف» الاستمرار التاريخي la continuité historique أو النظر إلى التاريخ على اعتبار أنه ضمير حي conscience historique et historisante . نقول أنه ينسحب تلقائياً لأن أصحاب المسلمة الأنثروبولوجية إنما يسلمون كذلك بأن «مالدى الذات من «هوية» (identité) ، شاهد على ما في حياتنا من استمرار» (٢٤).

وقد بدأ اهتمام الفكر الحديث بالتاريخ على أنه مسار متصل يرتبط بالذات بظهور كتاب «فلسفة التاريخ» للفيلسوف هيجل . إذ رأى هيجل «أن من يتأمل في سير التاريخ وتقدمه يجد خاضعاً لعقل عام ، فما تاريخ العالم إلا عملية عقلية ، وروح العالم هي القوة الرائدة لتقدمه» (٢٥).

أما الفكر المعاصر قبل فوكو ، فإنه ينقسم بين مؤيد ومعارض للاستمرار التاريخي : وقد كان الفيلسوف الفرنسي برجسون على رأس قائمة المؤيدين .

---

(٢٤) الدكتور زكريا إبراهيم : «بين الاتصال والانفصال» ، مقال بمجلة العربي الكويتية ، عدد يوليو سنة ١٩٧٦ .

(٢٥) الدكتور زكى نجيب محمود ، أحمد أمين : «قصة الفلسفة الحديثة» ، (لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٥٦) (٢، ص ٣٧٦ .



فالديمومة عنده هي كثرة كيفية لا تقبل القسمة ، ولا تكف عن التدفق والسيلان . والتاريخ الانساني لا يعيد نفسه مطلقاً (٢٦) . كما كان الفيلسوف الألماني نيتشه من أول المعارضين للاستمرارية التاريخية . فالوجود عنده ليس صيرورة مستمرة لا نهائية . إذ كل شيء في الوجود يتكرر بلا انقطاع ، وهذا التكرار يتناول كل شيء ، ولا يفلت منه حدث من الأحداث الكبرى أو الصغرى (٢٧) .

ثم كان انتصار باشلار لمبدأ «الانفصال» أو «عدم الاستمرار» التاريخي ، وكان ذلك بسبب استناده إلى واقع الحضارة البشرية وأيضاً لا ستشاده بإنجازات العلم . يقول باشلار: «إن كل تاريخ الحضارة البشرية شاهد على كذب كل ادعاءات القائلين بالاستمرارية الزمنية» (٢٨) . «فالكشوف العلمية الكبرى قد اتخذت طابع «الثورات» التي جاءت لتهدم ، وتقوض ، وتحطم آ وآية ذلك - فيما يقول باشلار - أن العلوم الميكانيكية الحديثة - بما فيها الميكانيكا النسبية ، والميكانيكا التوجيهية ، والميكانيكا الكمية (الكوانتية) - قد أبرزت حقيقة الثورة الاستمولوجية التي أحدثها العلم المعاصر في مضمار التفكير البشري. والواقع أننا هنا بازاء «علم جديد» لسنانعرف له أى أسلاف (٢٩) !

(٢٦) الدكتور زكريا ابراهيم : «برجسون» ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨ ، ص ٦٥ - ٦٨ .

(٢٧) علي أدهم : «نيتشه وموقفه الرفض من التاريخ» ، مقال بمجلة العربي الكويتية - ديسمبر سنة ١٩٧٥ .

راجع أيضاً : MARIETTI, Op. Cit., P. 101.

(٢٨) الدكتور زكريا ابراهيم : «بين الاتصال والانفصال» ، مقال بمجلة العربي الكويتية يوليو سنة ١٩٧٦ .

(٢٩) نفس المرجع ، ونلاحظ أن باشلار هنا يتفق مع فوكو في عدم الاعتراف بالعلوم كوحدة معرفية .

وليس من شك في أن أحفاد أحفادنا لن يبدوا كبير اهتمام بعلوم أجداد أجدادنا ، فلا ضير علينا إذا قلنا — منذ الآن — أن «القبلة الذرية» قد سحقت — فيما سحقت — قطاعاً كبيراً من تاريخ العلم البشرى : إذ لم يعد ذهن عالم الفيزياء المعاصرة «الفيزياء النووية» يحمل أى أثر من آثار تلك الأفكار الأساسية التي كان يؤمن بها دعاة النزعة الذرية التقليدية ! ومعنى هذا أن التقدم الذي أحرزته الفيزياء الكمية قد جاء مؤكداً لحقيقة «الانفصال» القائم في تاريخ العلم . وليس أدل على صحة المبدأ القائل بانعدام الاستمرار من أن اكتشافات العلم واختراعاته لم تتحقق يوماً على طول خط متصل مستمر ، وكأنما هي مجموعة من الوقائع المتسلسلة المنتظمة ، بل هي قد اتخذت دائماً طابع الانفجارات المتقطعة التي كانت تبنى في كل مرة لكي تغير من اتجاه العلم ، أو لكي تثير مشكلات ابستمولوجية جديدة وكان كل «تقدم علمي» قد جاء بمثابة تصحيح لخطأ علمي سابق ! ... بيد أن باشلار لم يكن هو الفيلسوف الوحيد — في الفكر المعاصر — الذي انتصر لمبدأ «الانفصال» ضد مبدأ «الاتصال» ، بل لقد جاء فلاسفة «البنائية» أيضاً ، وعلى رأسهم كلود ليفي شتراوس ، فراحوا يهاجمون النزعة الاستمرارية في تصور الزمان ثائرين في الوقت ذاته على شتى مذاهب «الاستمرارية التاريخية» (٣٠).

ومما تقدم ، فأننا نجد أن «مبدأ الانفصال» باعتبار ما له من قيمة ابستمولوجية خاصة ، لم يكن اتجاهها فكرياً جديداً بدأه فوكوه ، بل هو في الحقيقة من المبادئ الثابتة لدى معاصريه من البنائيين وأيضاً لدى أستاذه باشلار .

---

(٣٠) نفس المرجع .

وإذا كان صاحب «أركيولوجيا المعرفة» يتفق مع زملائه البنائيين في رفض أى تدخل للذوات بدعوى أنها صانعة ذلك الوهم المسمى «بالاستمرار التاريخي» ، فانه في ذلك يختلف مع أستاذه . فالنشاط العلمى عند باشلار مرهون بارادة العلماء (٣١).

ومهما يكن من شىء ، فإنه لينبغى الاعتراف بأن ميشيل فوكوه كان أول من فكر في صياغة هذا التحول الاستمولوجى بما يشمله من قطع *Coupure* وما يشير اليه من عدم اتصال *discontinuité* بالاضافة إلى أنه أول من استنتج منه نتائج عامة ، واستخلص منه كل متضمناته ، وسنعود لمسألة التحول الاستمولوجى بالتفصيل فيما بعد تحت عنوان «موقف الأركيولوجيا من التغير» (٣٢) .

غير أن التساؤل الذى يتبادر إلى الذهن الآن هو : ما الذى يمكن أن تقدمه هذه «الأركيولوجيا» بحيث يتعدى الحصول عليه من مناهج أخرى ؟  
للحق نقول أنه من الصعب الاجابة على هذا التساؤل في فصل عن المنهج . ذلك لأن ما قدمته هذه الأركيولوجيا إنما يدخل في نطاق ما لها من تطبيق وما تتضمنه من نتائج ، وهو ما وعدنا بطرحه في الباب الثانى من الرسالة . وحسبنا الآن أن نقرر مع فوكوه بأن الوصف الأركيولوجى هو محاولة لعمل تاريخ من نوع جديد هو تاريخ لكل ماقاله البشر (٣٣) . ولكي تتضح هذه

---

(٣١) LECOURT Dominique : "Pour une critique de l'épistémologie", (٣١)  
(Maspero, Paris, 1974) PP. 105 — 106.

(٣٢) ص ٩٨ .

(٣٣) فوكوه ، «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٨١ .

المحاولة ، وأيضاً لكي يتضح ما للمنهج الأركيولوجي من تميز وتفرد ، ينبغي أن نعقد مقارنة بينه وبين ما يذهب إليه «تاريخ الأفكار» .

### الاختلاف بين الأركيولوجيا وتاريخ الأفكار :

يرى فوكوه أن علم تاريخ الأفكار هو تحليل للآراء أكثر من كونه تحليلاً للمعرفة . وهو ينشغل بتحليل الأخطاء أكثر من اهتمامه بالبحث عن الحقيقة ولاحظ فوكوه أن هذا العلم ، وهو يبحث عن النشأة أو الأصل *la genese* إنما يبدأ بالتمثيلات *représentations* كنقطة بداية (٣٤) ، وهي التي يتولد عنها الأنساق *systemes* أو الانتاج الفكري *oeuvre* ، ثم لا يلبث هذا الانتاج الفكري أن يندثر . وهنا يكون عمل «تاريخ الأفكار» أن يصف ما يطرأ على فكرة ما *thème* . فهي إما أن تتحلل *se dénoue* أو تنعزل *s'isole* أو تتقدم *tombe en désuétude* أو تظهر في نمط جديد . وهنا أيضاً يبدو هذا العلم وكأنه يدرس البدايات والنهايات . مع اهتمامه بوصف تلك الاستمرارية التاريخية الغامضة . وإذا كان هذا «التاريخ» يكشف عن انتقال مشكلات وأفكار فلسفية إلى مجال المقال العلمي أو السياسي ، كما يكشف عن العلاقة بين الانتاج الفكري وبين المؤسسات أو العادات أو أنماط السلوك الاجتماعي أو الحاجات *besoins* ، فهو في كل هذا لا يزيد عن كونه وصفاً لكل ما يحيط بالانتاج الثقافي ، ولما يرتد به إلى مجالات أخرى غريبة عنه .

وإذا أردنا أن نوجز ما يقوم به «علم تاريخ الأفكار» في صورته العامة ، فإنا نقول : إنه وصف للانتقال من اللا فلسفة إلى الفلسفة ، ومن اللا علم إلى العلم ، ومن اللا أدب إلى الانتاج الأدبي ذاته (٣٥) . إنه تحليل

(٣٤) هنا نلاحظ أن البحث عن الأصل يرتبط بالذات *suietjnet* .

(٣٥) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٨١ . ولعل فوكوه يقصد هنا نشأة التفكير الفلسفي أو الانتقال إلى المرحلة العلمية أو ظهور الأدب .

للميلاد الصامت ( أو اللامعين ) *des naissances sourdes* ، وللالتقاء البعيد  
 des correspondances lointaines ، وللثبات الصامد تحت صخب  
 المتغيرات ، كما أنه تحليل للتكونات البطيئة التي تساندها آلاف العوامل  
 الغامضة ، ولتلك الاتجاهات العامة التي تترابط تدريجياً ثم تظهر فجأة على قمة  
 الانتاج الفكرى .

وإذا كان علم تاريخ الأفكار يرتكز أساساً على المسلمة الانثروبولوجية  
 فإن ثالث الأصل *genèse* والاستمرار *continuité* والتجميع ( أو  
 الشمول ) *totalisation* هو الذى جعله على اتصال دائم بتلك الصورة  
 التقليدية للتحليل التاريخى (٣٦).

ونلاحظ بخصوص وحدات هذا الثالث أنها تترابط جميعاً وتلتف حول  
 «الذات» . وآية ذلك أن كل قطاعات المعرفة إنما ترد إلى وحدة الذات  
 الفردية أو الجمعية كأصل أو كمصدر لها . كما أن وحدة الأصل تتلازم  
 بالضرورة مع استمرار النمو *la continuité du développement* ، وأخيراً  
 فإن وحدة الأصل تتلازم بالضرورة كذلك مع تجانس الأجزاء وبالتالي  
 مع إمكانية رد بعضها إلى البعض الآخر وهذا هو معنى التجميع أو الشمول (٣٧).

ويتضح مما تقدم أن علم تاريخ الأفكار هو «تاريخ المتصل» أى هو عبارة  
 عن حد متضايف *corrélat* مع «الذات» باعتبار ما لها من وظيفة مؤسسة .  
 وهو تاريخ «لا يمكن أن يكون قائماً على علاقات ، بل باعتباره ديناميكية

(٣٦) نفس الموضوع .

(37) LECOURT Dominique : Op. Cit., P. 103.

(٣٧)

داخلية ، وليس نسقاً système بل نتيجة كفاح في طلب الحرية (٣٨) ،  
وليس صورة forme بل مجهود متواصل لشعور منعكس على ذاته يحاول  
أن يمسك بأعماقه الدفينة (٣٩) .

وفي الحقيقة ، فإن الفكرة المثالية عن «الذات» هي التي لعبت دوراً في  
التصور الذي كونه المؤرخ عن التاريخ. فإذا نظرنا للذات على أنها أساس  
للفكر وأساس أيضاً لموضوعه ، فإن التاريخ سينظر إليه على أنه متصل . ولذا  
فإن الاتجاهات البنائية الحديثة قد أعادت النظر في «الكوجيتو» باعتباره  
وظيفة مؤسسة — كما سبق أن قدمنا — وهي تكشف عن قوى ثقافية واجتماعية  
يمكنها أن تدعم كوجيتو من نوع جديد ليس فردياً بل جمعي collectif  
ليس روحياً بل مادي ، ليس منفصلاً عن الواقع بل تتغلغل أصوله فيه. وهذه  
القوى هي التي يحاول كتاب «أركيولوجيا المعرفة» أن يطلعنا عليها . ومع  
ذلك ، فإنه لمن الخطأ أن نظن أن الأركيولوجيا تبحث عن نقطة التقابل  
بين الجانب الفردي والجانب الاجتماعي ، فهي ليست علم نفس أو علم  
اجتماع أو انثروبولوجيا (٤٠). أنها تعرف أنماط وقواعد الممارسات المقاتلية  
التي تنتقل عبر أعمال فردية بهدف قيادتها أو التحكم فيها . أما «الجهود الفردية  
الخلق» باعتباره سبباً لوجود الانتاج الفكري ومبدأ لوحده ، فهذا ما يبدو  
غريباً على هذه الأركيولوجيا (٤١) .

الأركيولوجيا إذن لا تهدف إلا إلى تعريف المقال ذاته ، باعتباره ممارسة

---

(٣٨) الإشارة هنا إلى جان بول سارتر ونظريته إلى التاريخ على أنه صيرورة متصلة تنبع من  
ديناميكية داخلية .

(٣٩) فوكو ، «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٣ .

(٤٠) نفس المرجع ، ص ١٨٢ .

(٤١) نفس المرجع ، ص ١٨٣ .

تخضع لقوانين ، أى أنها فى تحليلها للمقال تستهدف فقط الكشف عن قواعده الخاصة به كما تكشف عن أن هذه القواعد لا يمكن أن ترد إلى غيرها (٤٢). وهى فى مواجهة علم تاريخ الأفكار إنما تجد فى الكشف عن زيف مبادئه كما سبق أن قدمنا . وستعرض فى الجزء التالى للصعوبات المنهجية التى تواجه كل من يبحث عن الأصل *genèse* أو المصدر الأصيل *Origine*.

### صعوبة البحث عن الأصل :

إن الاستناد إلى ما هو سابق *précédent* فى تقييم الصياغات اللاحقة ليس محكاً مطلقاً يسمح بالحكم على المقال وتمييز الأصيل منه أو المكرر *distinguer l'original du répétitif* . أما عن التشابه بين الصياغات التى تتابع (بعضها سابق والبعض الآخر لاحق) ، فإنه يثير عدة مشكلات تجعلنا نتساءل عن المعيار الذى يمكننا من القول بأن فكرة ما سبق أن وردت عند آخرين ، أو القول بأن قضية ما تقرب كثيراً من قضية أخرى . وهذا كله يدفعنا إلى التساؤل عن معنى الهوية *l'identité* فى المقال .

أن أى صياغتين تتطابقان تماماً . وتستخدمان نفس الكلمات المتضمنة لنفس المعنى ، ليس بالضرورة متحدتين فى الهوية . فإذا لاحظنا نفس الصياغة لمبدأ التطور عند ديدرو *Diderot* ولا مارك *Lamarck* وداروين *Darwin* ، فإنه لمن الخطأ الزعم بأننا أمام حدث مقالى أوحده هو ذاته يتكرر خلال الزمن . التطابق فى الهوية إذن ليس محكاً *L'identité n'est pas un critere* (٤٣).

إن محاولة رد أى إنتاج فكرى إلى أصوله إنما تستهدف القول بأن هذا

(٤٢) نفس المرجع ، ص ١٨٢ .

(٤٣) نفس المرجع ، ص ١٨٧ .

الانتاج يتفق مع المدارس التقليدية التي سبقته ، أو أنه إنتاج فريد ليس له أصول سابقة عليه. فالقول بأن منطقة البور روايال لم يأتوا بأى كشف جديد (٤٤) ، وكذلك القول بأن كوفيه (٤٥) قد ردد أفكاره سابقه ، كل هذا يعتبره فوكوه مجرد أقوال فكاهية للتسلية ، يصرح بها المؤرخون من ذوى السراويل القصيرة (٤٦) d'historiens en culottes courtes أى قليلوا الخبرة .

إن أركيولوجيا المعرفة لا تعطى للتقابل ( أصالة - عدم أصالة ) ( Originalité-Banalité ) أى أهمية . كما أن نظرتها للجمله التي تكرر ما سبق صياغته منذ مئات السنين ، تخلو من أى تقييم ، وذلك لأنها تهتم فقط باطراد المنطوقات régularité des énoncés . والا طراد هنا يعنى مجموع الشروط التي تمارس في ظلها الوظيفة المنطوقية ، كما يحدد مجالا حقيقياً للظهور Un champs effectif d'apparition . فكل منطوق يحمل نوعاً من الإطراد لا ينفصل عنه . وبهذا الصدد ينفي فوكوه عن الإطراد أى مركز متوسط بين طرفي المنحنى الاحصائي ، أى أنه ليس مؤشراً لأى احتمال أو تكرار ، والاطراد الذي يتحدث عنه فوكوه ليس مقابلاً لعدم الاطراد ، بل إن المقابل له هو مجموعات أخرى للإطراد تميز منطوقات

---

(٤٤) Port-Royal هو اسم دير شهير بالقرب من مدينة باريس تأسس سنة ١٢٠٤ . وقد كان في القرن السابع عشر مركز إشعاع ثماني هام . وأشهر الكتب التي كانت تدرس في هذا المركز كتاب في المنطق ألفه أنطوان أرنو وبيير نيكول .

(٤٥) كوفيه هو عالم بيولوجي فرنسي ( ١٧٦٩ - ١٨٣٢ ) .

(٤٦) فوكوه : « أركيولوجيا المعرفة » ، ص ١٨٨ .



أخرى (٤٧). ويترتب على ذلك أن الأركيولوجيا لا تشغل بالاكشافات كما أنها لا تتفرغ للبحث عن الآراء الشائعة أو ما يردده الرأي العام في فترة معينة أو مكان محدد . فهي إذا نظرت فيما كتبه أمثال (ديدرو Diderot أو داروين ، فإنها تستهدف التوصل فقط إلى اطراد الممارسة المقالية ، وهي ممارسة تسير على وتيرة واحدة (إذا كانت منبثقة عن نفس الحقبة المنطوقية) (٤٨) سواء عند هؤلاء الديوسموا بالمكتشفين أو أولئك الذين ساروا على نهجهم أو كانوا سابقين عليهم. فن وجهة النظر المنطوقية *du point de vue énonciatif* نجد أن الاكتشاف أو الاختراع ليس أقل اطراداً من النص الذي يردده أو يعيد نشره. ويتضح مما تقدم أن التحليل الأركيولوجي لا يسمح بأى اختلاف في النوع بين منطوقات مبتكرة *des énoncés créateurs* ومنطوقات مقلدة *des énoncés imitatifs* . وذلك لأن مجال المنطوقات ليس هو الشاطيء الساكن الذي تتخلله لحظات من الحركة ، بل إن هذا المجال يموج على الأحرى بنشاط مستمر .

ويلاحظ فوكوه أن مجموعات المنطوقات يمكن أن تخضع لصور مختلفة للاطراد ، (٤٩) فأعمال لا نسلو Lancelot وهو أحد أقطاب فلاسفة البورروايل (١٦٦٥-١٦٩٥) لا تقع تحت تأثير نفس الاطراد الذي وقعت تحته أعمال سوسير Saussure ، عالم اللغة السويسري الشهير ( ١٨٥٧ - ١٩١٣) . وهذا يعنى أنه على الرغم من وجود مجالات متجانسة للاطراد

---

(٤٧) نفس الموضع .

(٤٨) يقول فوكوه في موضع لاحق أن الأركيولوجيا إنما تخرج حقبا منطوقية من هذه الوحدات الغامضة التي تسمى عصورا ، ( أركيولوجيا المعرفة ، ص ١٩٤ ) .

(٤٩) نفس المرجع ، ص ١٨٩ .

المنطوق داخل كل تكوين مقالي ، إلا أن هذه المجالات تختلف فيما بينها .

وليس من الضروري أن يكون الانتقال إلى مجال جديد للاطراد المنطوق مصاحباً لتغيرات تطرأ على المستويات الأخرى للمقال (٥٠). فمن الممكن أن نجد صياغات مقالية تتطابق من الناحية اللغوية ( المفردات والتركيب اللغويين ) ، كما تتطابق كذلك من الناحية المنطقية ( من ناحية تركيب القضية وأيضاً مكانتها في النسق الاستنباطي ) ، غير أنها تختلف من الناحية المنطوقية . وعلى سبيل المثال ، فإن التحليل المنطوق يرى ممارسة مقالية جديدة واطراداً منطوقياً جديداً افتتحه مناطق البورروايال عندما أعادوا دراسة النظرية القديمة (للجملة كمحمول) la phrase-attribution والفعل كرابطة le verbe-copule (٥١)

وعلى العكس ، فإن الأركيولوجيا يمكنها أن تكشف عن اطراد منطوق معين في صياغات مقالية تختلف من الناحية اللغوية : وتختلف أيضاً من حيث انتمائها إلى سياق استدلالى أو نسق استنباطى مختلف . وعلى سبيل المثال يلاحظ فوكوه أن بعض الأبحاث التي شغلت القرن الثامن عشر مثل لغة العمل origine des langues et la théorie du langage d'action والبحث عن نشأة اللغات لم تكن بالفعل أبحاثاً جديدة إذا قورنت بالتحليلات «المنطقية» التي قام بها Lancelot في القرن السابع عشر (٥٢) .

(٥٠) نفس المرجع ، ص ١٩٠ . ( والمستويات الأخرى للمقال هما المستوى اللغوي والمستوى المنطوق ) .

(٥١) مثال الجملة كمحمول ، ص ٨٠ :

Son idée, elle n'est pas difficile à saisir. Voir :

R. WAGNER : "Grammaire du Français classique", (Hachette, 1962).

(٥٢) فوكوه ، «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٩١ .

ويخلص فوكوه مما تقدم إلى أنه لم يعد من الممكن القول بأن اكتشافاً معيناً أو حتى أى صياغة لمبدأ عام يمكنها أن تبدأ نحولاً جذرياً في تاريخ المقال ، كما أنه لم يعد من الممكن البحث عن أصل مطلق *Origine absolue* أو ثورة كلية ينتظم كل شيء ويتحدد ابتداء منها . فالحقيقة هي أننا بصدد أحداث ذات أنماط ومستويات مختلفة ، ويكتشف كلا منها سياق تاريخي متميز . وإذا ظهر أى تجانس للمنطوقات ، فإن هذا لا يتضمن أن البشر سينكرون بطريقة موحدة لعشرات من السنين أو لعدة قرون ، كما أنه لا يتضمن ظهور عدد معين من المبادئ ينهار أمامها أى فكر سابق كتيبة حتمية .

ويتضح مما تقدم أيضاً أن تجانس المنطوقات أو عدم تجانسها قد يصادفه تغيرات أو ثبات في المسارات اللغوية أو المنطقية دون أن يكون هناك أى ضرورة في أن تتوحد المسيرة الثلاثية أو أن يؤثر أحد أطرافها في أى طرف آخر . (٥٣).

شجرة اشتقاق المنطوقات : *L'arbre de dérivation énonciative*

إذا كانت كل المنطوقات تصدر عن أطراف معين ، فإن أياً منها لا يمكن اعتباره خلقاً تمخضت عنه القريحة *Création du génie* . وقد تبين لنا أنه لا واحد من المنطوقات يمكن اعتباره ظلاً لآخر أو ترديداً وتكراراً سلبياً لمنطوق أصيل *énoncé initial* لأن المجال المنطوق برمته يتصف بأطراف معين من شأنه أن يوفر عنصر الإيجابية لكل منطوق فيه ومع ذلك فقد

---

(٥٣) نسس الموقع .

اكتشف فوكوه في داخل الاطراد المنطوق درجات بعضها فوق بعض ، أطلق عليها شجرة الاشتقاق المنطوق. وعند قاعدة هذه الشجرة ، نجد المنطوقات التي تنبثق مباشرة عن قواعد التكوين *regles de formation* ، والتي تعبر عن اتساع مداها *sa plus vaste étendue* . أما في أعلى الشجرة فاننا نجد المنطوقات التي تنبثق عن نفس الاطراد وتعبر عن التفاصيل الدقيقة (٥٤).

ويرى فوكوه أن الأركيولوجيا يمكنها ابتداء من هذه النظرة - وهي مبدأ من أهم مبادئها الأساسية - أن تكون شجرة لاشتقاق المقال . وهو يضرب لذلك مثلاً بمقال «التاريخ الطبيعي» *Histoire naturelle* ، ويستخرج منه المنطوقات الرائدة *les énoncés recteurs* ويضعها إلى جانب الجذور . والمنطوقات الرائدة هي المنطوقات التي تخص تعريف البناءات الملاحظة ومجال الأشياء الممكنة *Champ d'objets possibles* ، وأيضاً المنطوقات التي تحدد طرق الوصف وما يمكن أن يستند اليه من قوانين الإدراك *les codes perceptifs* ، وكذلك المنطوقات التي تبين الامكانيات العامة لتحديد السمات وتفتح بذلك مجالاً لتكوين تصورات جديدة *concepts* . أما أعلى الشجرة ، فإنه يمتلئ بتغيرات تطرأ على التصورات مثل التعريف الجديد للجنس . كما يشتمل على مفاهيم جديدة مثل «الثدييات» *mammifères* ومفهوم التركيب العضوي *organisme* . وأخيراً تظهر تنظيمات منهجية مثل المبادئ المنظمة للمجموعات ومثل منهج التصنيف *méthode de classement* ووضع التسميات *méthode de nomenclature* (٥٥) .

---

(٥٤) فوكوه ، «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٩٢ .

(٥٥) نفس الموضوع .

ويلاحظ فوكوه أن هذا الاشتقاق ابتداء من منطوقات رائدة لا يمكن أن يقارن بالاستدلال من بدسيات ، أو بالفكرة العامة وقد أنبتت أفكاراً جزئية ، أو بالنواة الفلسفية وقد انتشرت معانيها تدريجياً في خبرات وتصورات محددة (٥٦).

ويقول :

«وهكذا يمكننا أن نصف الاشتقاقات الأركيولوجية للتاريخ الطبيعي دون أن نبدأ ببدسيات لا برهان لها مثل «استمرار الطبيعة» la continuité de la nature ودون أن تكون نقطة البدء لدينا هي اكتشافات تورن فور Tournefort قبل لينيه Linné واكتشافات جونستون Jonston قبل تورن فور» . (٥٧)

وهنا يظهر المنهج الأركيولوجي بعيداً عن الأنساق وبعيداً عن التتابع التاريخي .  
L'ordre archéologique n'est ni celui des systématiques, ni celui des successions chronologiques. (٥٨)

وإذا سألنا عن العلاقة بين هذه الاتجاهات الثلاثة : (المنهج الأركيولوجي و المنهج الانساق و المنهج التتابع التاريخي) ، فإن فوكوه يجيب على ذلك بأن «المنهج الأركيولوجي ربما لا يكون جد مختلف عن منهج النسق فيما يختص

---

(٥٦) فوكوه ، «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٩٣ .  
(٥٧) نفس الموضوع .  
(٥٨) نفس الموضوع .

ببعض التكوينات المقالية ، غير أنه ربما تطابق مع منهج التابع التاريخي في بعض الحالات .» (٥٩) .

وعلى كل ، « فإنه ينبغي دائماً عدم الخلط بين هذه الاتجاهات الثلاثة . فنعتبر (الاكتشاف الجديد) أو الصياغة الأصلية هي المبدأ الذى منه يستنتج ويشق كل شئ ، أو نبحث عن قانون الاطراد المنطوقى أو الاختراعات الفردية فى أى مبدأ عام ، أو نطلب من الاشتقاق الأركيولوجى أن يعكس التابع الزمنى ، أو نطلب منه أن يقدم خطة استنباطية Un schéma déductif » (٦٠)

الروية الأركيولوجية للمتناقضات : Les Contradictions

يرى فوكوه أن علم تاريخ الأفكار يعترف بوجود مستويين للتناقض . المستوى الأول هو المستوى السطحي الذى يطرأ على الظواهر les apparences .

والمستوى الثانى هو المستوى العميق الذى يكون بمثابة الدفعة التى تحرك المقال .

وعن المستوى الأول يقول فوكوه أن المؤرخ عندما يواجه بقضايا متناقضة أو مفاهيم غير متناسقة ، فإنه يحاول دائماً أن يبحث عن المبدأ الذى يرأب الصدع الظاهر فى المقال بهدف تحويله إلى وحدة متناسقة .

إن هذا المبدأ الموحد للمقال هو معول هام فى يد الباحث لأنه يحاول أن يتخطى به المتناقضات وأن يتحاشى أى تغيرات ظاهرة من شأنها أن

---

(٥٩) نفس الموضوع .

(٦٠) نفس الموضوع .

تخل بوحدة النسق . والنسق يتوصل اليه الباحث بالانتقال من الصياغات اللغوية الظاهرة إلى تركيب مثالي *architecture idéale* هو أقرب إلى العاطفة والخيال منه إلى العقل والاستدلال . ويعمل هذا التركيب على توحيد المتضادات ، ويعتمد في ذلك على قوة الصور والامتثالات *images et représentations* . وعلى الجملة ، فإن التحليل عند هؤلاء المؤرخين إنما يستهدف التخلص من التناقض (الظاهري) (٦١).

أما التناقض على المستوى العميق؛ فغالباً ما يكون بسبب تناقض المسلمات أو بسبب صراع اقتصادي أو سياسي يسبب بدوره انقساماً في المجتمع الواحد . وهذا النوع من التناقض غالباً ما ينظر اليه على أنه المبدأ المنظم أو القانون المؤسس أو البناء التحتي *infrastructure* لكل أشكال التقابل .

إن هذا النوع من التناقض ليس حدثاً عارضاً في المقال ، بل هو قانون وجوده ومبدأ خضوعه لحركة التاريخ *Le principe de son historicité* (٦٢).

أما التحليل الأركيولوجي ، فإنه لا ينظر إلى المتناقضات باعتبارها مظاهر *apparence* يمكن تجاوزها ، أو مبادئ غامضة ينبغي الكشف عنها ، بل إنه يخضعها للوصف شأنها في ذلك شأن أي موضوع أو شيء ما *objet* .

فلو نظرنا مثلاً إلى مبدأ ثبات أنواع الكائنات *le principe fixiste* عند لينيه *Linné* في القرن الثامن عشر ، وما يقابله في القرن الثامن عشر أيضاً من نصوص عن التطور *évolution* عند أمثال *Buffon* و *Diderot* ، فأننا نجد التحليل الأركيولوجي لا يحاول أن يبين سطحية

---

(٦١) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٩٦ .

(٦٢) نفس المرجع ، ص ١٩٧ .

التناقض استناداً إلى أن أصحاب الآراء المتنافرة يميلون إلى قبول نفس المسلمات عن الاستمرار في الطبيعة *la continuité de la nature* ، وأن الخلاء ممتنع فيها ، وعن امكان خروج الحى من الميت *le passage du non-vivant au vivant* . كما أن التحليل الأركيولوجى لا يميل إلى البحث عن جذور عميقة تبرر هذا التناقض ، كأن يشير مثلاً إلى صراع أعم وأشمل اشتهر به الفكر فى القرن الثامن عشر ، وهو الصراع بين فكرة الخلق المنظم الذى تحقق دفعة واحدة ، وفكرة الطبيعة المائجة التى تحركها قوى غامضة (٦٣) .

إن التحليل الأركيولوجى إنما يحاول أن يتجاوز هذا كله . فهو يبين كيف أن التسليم بثبات أنواع الكائنات أو القول بتطورها ، كلاهما ينبثق عن وصف معين للأنواع والأجناس . وهذا الوصف يتخذ موضوعاً له هو التركيب الظاهر للكائنات (وصف أعضاء الكائن وحجمها وعددها والهيئة التى تتواجد عليها فى المكان) .

ونعود فنقول أن هذا الوصف إما أن ينصب على الكائن العضوى ككل *l'ensemble de l'organisme* ، أو أنه ينصب على عدد معين من عناصره التى تكون موضع تخير لأهميتها أو لسهولة تصنيفها *pour leur commodité taxinomique* .

أما فى الحالة الأولى فتكثر الأوصاف المتقاربة والتى تقبل عدداً غير محدد لصور جديدة تقترب من الصور الموجودة فعلاً ، مما يسمح بالتطور . وفى الحالة الثانية نجد أننا أمام جدول منتظم لهذه العناصر

---

(٦٣) نفس المرجع ، ص ١٩٩ .



un tableau régulier ، يحتوى على عدد محدد من الخانات cases ، ويكون بمثابة مشروع لبيان أى خلق ممكن programme de toute création possible ، لأنه يحتوى على تصنيف ثابت للاجناس والأنواع مما أدى إلى ظهور مبدأ ثبات الأنواع .

ونلاحظ هنا أن التقابل بين فكرتين متعارضتين ترده الأركيولوجيا إلى مجال الأشياء دون أدنى محاولة لتصفيته أو للبحث عن الجذور العميقة له (٦٤) .

والتحليل الأركيولوجى يميز بين نوعين من التناقض : النوع الأول يكون على مستوى القضايا أو الصياغات اللفظية دون أن يمس النظام المنطوق الذى انبثقت عنه le régime énonciatif . وهذا التناقض يسميه فوكوه تناقضاً جوهرياً أو داخلياً intrinsèque ومثاله فى القرن الثامن عشر ، التقابل بين الصفة الحيرانية للحفريات La thèse du caractère animal des fossiles وبين نسبة طبيعة الجسم المعدنى إليها leur nature minérale . ورغم أن طرفى التقابل هنا يؤديان إلى نتائج متباعدة ، إلا أنه من الممكن — فيما يقول فوكوه — أن ندلل على أنهما ينتميان إلى نفس التكوين المقاتل . إنه تقابل بين أطراف مشتقة أركيولوجياً archéologiquement dérivées (٦٥) .

أما النوع الثانى من التناقض فهو يكون بين أطراف تنتمى إلى تكوينات مقالية مختلفة . ويسميه فوكوه تناقضاً خارجياً extrinsèque . ومثاله مبدأ ثبات أنواع الكائنات عند لينيه ومبدأ التطور عند داروين . والأول

---

(٦٤) نفس الموضع .

(٦٥) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٠٠ .

ينتمى إلى علم التاريخ الطبيعى ، بينما ينتمى الثانى إلى علم البيولوجيا (٦٦).  
الاركيولوجيا هي تحليل مقارن :

إن التحليل الأركيولوجى يقوم بعمل مقارنة بين التكوينات المقالية ، كما أنه يميز بعضها عن بعض . فهو يقرب بين عدة أنماط للمقال فى فترة زمنية محددة بهدف استخلاص أهم خصائصها ، ثم يعمل على مقارنتها بأنماط أخرى ظهرت فى عصور سابقة أو لاحقة. وقد كان هذا هو موضوع البحث الذى تناوله كتاب «الكلمات والأشياء» . (٦٧)

وإذا كانت الاستمولوجيا تقوم عادة على تحليل البناء الداخلى لنظرية من النظريات *structure interne* ، فإن التحليل الأركيولوجى هو أوسع من ذلك بكثير لأنه يفتش فى العديد من سجلات المعرفة *une multiplicité de registres* . وهو عندما يتجه نحو نمط محدد من أنماط المقال مثل الطب النفسى أو الطب الإكلينيكى (٦٨) ، فإنه يهدف إلى وصف هذا النمط فى علاقته بالمؤسسات والأحداث والممارسات والقرارات السياسية . وفى ارتباطه بشبكة من العوامل الاقتصادية وما يتصل بها من مشكلات السكان والحاجة لليد العاملة والبطالة . أى أنه يصف النمط المقالى فى علاقته بممارسات غير مقالية .

ونلاحظ هنا أن الأركيولوجيا تهدف إلى إيجاد تقارب بين تكوينات مقالية ومجالات غير مقالية . ويؤكد فوكوه أن إيجاد التقارب هذا لا يهدف إلى الكشف عن اتصال بين عناصر الثقافة المختلفة أو التأكيد على وجود

(٦٦) نفس الموضوع ، ونلاحظ أن التكوين المقالى الذى ينسب إليه علم التاريخ الطبيعى ينتهى فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، أما داروين فإنه ينتمى إلى التكوين المقالى الجديد .  
(٦٧) سنخصص له الفصل الثالث .  
(٦٨) الحديث عن هذين النمطين سيأتى بيانه فى الفصلين الرابع والخامس على الترتيب .

علاقة عليه بين هذه العناصر (٦٩) . فالأركيولوجيا لا تبحث عن علة الوقائع المنطوقية ، كما أنها لا تبحث عما لها من دلالة ، بل هي تحاول أن تكشف عن أن قواعد التكوين التي انبثقت عنها الوقائع المنطوقية يمكن أن ترتبط بأنساق غير مقالية . ويعود فوكوه إلى مثال الطب الإكلينيكي وهو الذي عاصر ظهوره في نهاية القرن الثامن عشر ظهور عدد من الأحداث السياسية والظواهر الاقتصادية وأيضاً ظهور تغيرات طرأت على المؤسسات .

فإذا كان التحليل يقوم على البحث عن علل ، فإنه ربما تساءل عن تأثير التغيرات السياسية والعمليات الاقتصادية في آفاق رجال العلم وفي توجيه مصالحهم وقيمهم ونظرتهم للأشياء ، وربما توصل أيضاً إلى النتيجة القائلة بأنه في الوقت الذي شعرت فيه الرأسمالية الصناعية بحاجتها إلى اليد العاملة أصبح للمرض بعد اجتماعي . وأصبح للجسد قيمة باعتباره أداة للعمل ، فتكفلت الدولة بمكافحة الأمراض وبالعناية بالمرضى ودرو الاستشفاء .

أما التحليل الأركيولوجي باعتباره تحليلاً مقارناً ، فإنه يقوم على مستوى آخر . فهو لا يهدف إلى بيان كيف أن الممارسة السياسية هي التي تحدد صورة المقال الطبي ومعناه ، بل هو يهدف بالأحرى إلى بيان أن هذه الممارسة تكون جزءاً من شروط ظهوره (٧٠) . ذلك لأن الطب الإكلينيكي والأحداث التاريخية التي عاصرتة يعبران عن صورة واحدة مشتركة . فإذا أخذنا بعض المفاهيم الطبية مثل مفهوم التكاتف العضوي *solidarité organique* أو التماسك

(٦٩) فوكوه ، «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢١٢ .

(٧٠) نفس المرجع . ، ص ٢١٣ .

الوظيفى *cohesion fonctionnelle* أو تواصل الأنسجة *communication tissulaire* :  
 (وهي مفاهيم جديدة أعقبت التخلي عن مبدأ تصنيف الأمراض  
 لصالح تحليل التفاعلات العضوية داخل الجسم) ، فإننا نجد أنها تلتقى  
 مع الممارسات السياسية التي انبثقت من بين أنقاض التصنيفات الطبعية التي  
 اشتهر بها المجتمع الاقطاعي . ذلك أن هذه الممارسات قد توصلت إلى علاقات  
 ذات نمط وظيفي ، وعرفت التكاتف الاقتصادي *des solidarités économiques*  
 في مجتمع فئاته المختلفة على بعضها البعض كى تفسن استمرار مسيرة الحياة .  
 ونلاحظ أن هذا الالتقاء بين المفاهيم الطبية والممارسات السياسية ،  
 يعبر عنه فوكوه بأنه انعكاس للمفاهيم ترى فيه ذاتها (٧١) ، أى أنه يستبعد  
 أن تكون الممارسات السياسية هي علة ظهور المفاهيم .

وعلى الرغم من ذلك فإن فوكوه يصرح بأن استقلال المقال ونوعيته  
 الفريدة *sa spécificité* ، لا يمكن أن يمنحانه مثالية خالصة  
 أو استقلالا تاريخياً كاملاً. فما يريد أن يكشف عنه الوصف الأركيولوجي  
 إنما هو هذا المستوى الفريد الذي يمكن التاريخ من أن يمنح الوجود لأنماط  
 من المقال لكل منها نمطه التاريخي الخاص كما أن لها علاقة بأنماط تاريخية  
 متعددة. (٧٢).

موقف الأركيولوجيا من التغير :

قالت الباحثة جيدي آني *GUEDEZ Annie* :

«إن ميشيل فوكوه الذي ظننا أن مكانه في مصاف

(٧١) نفس المرجع ، ص ٢١٢ .

(٧٢) نفس المرجع ، ص ٢١٥ .

الايلىن (زىنون وبارمنيدس) ، قد يقترّب على الأخرى  
من هيراقليطس... « فاذا قال هيراقليطس بأنك  
لا تستحم فى النهر الواحد مرتين ، فإننا نجد صدق  
ذلك لدى فوكوه فى عدم اطراد التجربة عنده

l' extrême irrégularité de l' expérience (٧٣)

والحقيقة أن الباحثة المذكورة ربما ظنت فى البداية أن بإمكانها أن تضع  
فوكوه إلى جانب زىنون ، لما عرف عن كتابة «الكلمات والأشياء» من أنه  
لفيلسوف بنائى يتمسك بنسق آتى ، وهذا النسق ربما تضمن عدم الاعتراف  
بالصيرورة . وهى الآن تدعى أن فوكوه يسرف فى عدم الاعتراف باطراد  
التجربة ، ظناً منها بأن هناك تحولاً خطيراً طرأ على فكر فوكوه . واحتمالاً  
للحق ، فإننا سنحاول أن نتعرف على الموقف المحدد لفوكوه فى هذه النقطة ،  
وذلك من خلال ماكتبه فى فصل بعنوان « التغير والتحول » (٧٤)

Le changement et les transformations

يقول فوكوه :

«إن النموذج الأركيولوجى ليس نسقاً منطقياً خالصاً

للآنية Un schéma purement logique de simultanéité

كما أنه ليس تتابعاً للأحداث يسير فى خط مستقيم .

بل إن هذا النموذج يحاول أن يبين أن هناك التقاء

بين علاقات متتابعة وأخرى ليست كذلك » (٧٥).

(73) GUEDEZ Annie : "Foucault" OP. Cit., P. 93.

(٧٤) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢١٦ - ٢٢١ .

(٧٥) نفس المرجع ، ص ٢١٩ .

ويقول :

«لأنه لمن المؤسف أن البعض يرون في الأركيولوجيا مجرد نفى للتاريخ وتأكيد لعدم الاستمرار la discontinuité . وهؤلاء هم الذين يتمسكون بما تم التعارف عليه منذ قرن ونصف من أن التاريخ هو حركة وتدفق وتطور ( mouvement, flux, évolution ) (٧٦).

ثم يخاطب أولئك المتمسكين بهذا الرأي القديم فيقول لهم :

« إن استخدامكم للاستمرار التاريخي هو الذى يقلل من شأنه . ذلك لأنكم تعتبرونه الدعامة التى يرد إليها كل شيء ، والقانون الأول والثقل الأساسى la pesanteur essentielle لكل ممارسة مقالية. إنكم تريدون تحليل كل تغير بالقياس إلى قوة الاستمرار هذه تماماً كما تحلل كل حركة بالقياس إلى مجال للجاذبية . غير أنكم بهذا إنما تلقون بها خارج الزمان la limite extérieure du temps فى سلبية مطلقة . أما الأركيولوجيا فإنها تعكس هذا الوضع ، أو على الأصح ... فلأنها تريد أن تحتفظ بدور خاص لكل من المتصل وغير المتصل . فتبين أن كليهما إنما يدخل فى مجال الممارسة المقالية » . (٧٧).

(٧٦) نفس المرجع ، ص ٢٢٥ .

(٧٧) نفس المرجع ، ص ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

يظهر مما تقدم أن الأركيولوجيا ليست ضد فكرة الزمان باعتباره سيلا متدفقا للأحداث ، بل هي ضد فكرة التابع المطلق وضد خضوع المقال لصورة واحدة من صور التابع ، أى أنها تؤيد الانفصال le discontinu أو القطيعة la rupture أو التقطع coupure وكلها بمعنى واحد عند فوكوه .

وكتب الدكتور زكريا ابراهيم عن ظاهرة «الانفصال» ما يلي :  
 «يشرح لنا فوكوه هذه الظاهرة فيقول (إن الانفصال لايعنى شيئاً آخر سوى أنه قد يحدث أحياناً في خلال عدة سنوات أن تكف ثقافة ما عن التفكير على النحو الذى درجت عليه حتى تلك الآونة . لكى تشرع في التفكير فى شىء آخر ، وعلى نحو آخر) ! صحيح أنه قد يحدث فى بعض الأحيان أن تتكرر لدى ثقافتين مختلفتين — نفس العبارات (تقريباً) . ولكنها عندئذ قلما تعنى نفس الأشياء ، بل لابد من أن يكون البناء العقلى القديم قد تصدع ، ومن ثم لابد لكل العلاقات من أن تكون قد تغيرت ، لكى ينشأ من كل هذا «مجال ابستمولوجى» جديد ! (٧٨).

وقد بين فوكوه أن الفترات التى تعرضت فيها الثقافة الغربية لهذه

---

(٧٨) زكريا ابراهيم : «مشكلة النية» ، ص ١٤٧ ، وما بين القوسين نص فوكوه «بالكلمات والأشياء» ، ص ٦٤ .

الظاهرة كانت في منتصف القرن السابع عشر وأواخر القرن الثامن عشر وحوالى منتصف القرن العشرين .

أما القطع الأول ، فقد كان يفصل عصر النهضة عن العصر الكلاسيكى . ولم يكن للغة في عصر النهضة أى مضمون تمثلى contenu représentatif لأنها كانت شيئاً بين أشياء العالم . بينما ظهر هذا المضمون التمثلى في العصر الكلاسيكى ونشأ عنه علم التاريخ الطبيعى وعلم النحو وعلم تحليل الثروة . Analyse de la richesse

أما القطع الثانى . فقد نشأ عنه علوم البيولوجيا والفيلولوجيا وعلم الاقتصاد السياسى . وتقدمت المعرفة العلمية الحديثة عندما أصبحت العين هى مبدأ الوضوح وعندما تحرر الإنسان من التمثلات التى خلقتها فحجبت عنه العالم والأشياء .

ثم جاء القطع الثالث عندما أصبح الرمز موضوعاً للعلم وما صاحب ذلك من ظهور لعلم اللغة الحديث ولل فكر البنائى بوجه عام (٧٩).

وقد يظن خطأ أن الأركيولوجيا تدرس عصوراً ثقافية غير أن «العصر 1<sup>ère</sup> époque لا يمكن أن يكون بأى حال موضوعاً la objet . وهى إذا تحدثت عن عصر معين فذلك لا يأتى إلا نتيجة للتحايل الأركيولوجى ذاته وبمناسبة الحديث عن ممارسات مقالية معينة » (٨٠) «إن الأركيولوجيا إنما تخرج على الأحرى حقبةً منطقية من هذه الوحدات الغامضة التى تسمى عصوراً» (٨١).

(٧٩) سيأتى الحديث بالتفصيل عن هذه المجالات الاستمولوجية في الفصل القادم .

(٨٠) فوكوه ، «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٣٠ .

(٨١) نفس المرجع ، ص ١٩٤ .



Elle fait surgir des «périodes énonciatives» dans ces unités confuses qu' on appelle «époques».

وبلاحظ فوكوه أن القطع الأركيولوجي ليس هو ذلك الفاصل (أو الحد) limite الذي يشار إليه من بعيد دون التمكن من تحديده ، إنه اسم يطلق على التغيرات التي تطرأ على النسق العام للتكوين المقالى (٨٢). وهو ليس زماناً ميتاً un temps mort يفصل ولو بمقدار لحظة بين نمطين أو حقتين متغايرتين ، بل هو عدم الاتصال المحدد بعدد من التغيرات المتميزة والذي يحدث بين وضعيتين واضحتي العالم (٨٣).

والقطع لا يعنى خضوع جميع التكوينات المقالية دفعة واحدة وفى لحظة ما لتغير مفاجئ يعيد تنظيمها من جديد وفقاً لقواعد جديدة . فعلم التاريخ الطبيعى وعلم النحوى العام وعلم تحليل الثروة رغم أنها قد تكونت جميعها خلال القرن السابع عشر ورغم تشابه «أنماط» ظهورها ، إلا أن نسق تكوين علم تحليل الثروة كان مرتبطاً بعدد كبير من الممارسات غير المقالية مثل حركة السلع la circulation des marchandises ، ومثل تداول العملة manipulations monétaires وأيضاً نظام حماية التجارة والصناعة مما تسبب فى بقاء تكوين هذا العلم الذى استمر أكثر من قرن ( من كاتيون Cantillon وحتى جرامون Grammont ) (٨٤) . أما التغيرات التي

(٨٢) نفس المرجع ، ص ٢٣١ .

(٨٣) نفس المرجع ، ص ٢٢٨ . وبلاحظ أن فوكوه يستخدم كلمة «وضعية» Positivite

ليحدد بها مرحلة معرفية تدق العلم . راجع الفصل السادس .

(٨٤) ريتشارد كاتيون ، اقتصادى إيرلندى ( ١٦٨٠ - ١٧٣٤ ) ، أما جاك جرامون فهو

رجل اقتصاد وسياسة : فرنسى الجنسية ( ١٧٩٦ - ١٨٦٢ ) .

مهدت لظهور علم النحو وعلم التاريخ الطبيعى ، فإنها لم تستمر لأكثر من خمس وعشرين سنة فقط (٨٥).

وخير مثال يستدل به فوكوه على عدم الاتصال بختاره من علم الطب la médecine. فهو يرى أن المقال الطبي قد طرأ عليه تغير عميق في فترة لا تزيد عن ربع قرن من الزمان (من سنة ١٧٩٠ إلى سنة ١٨١٥). وهو تغير لم يحدث له مثيل منذ العصر الوسيط أو حتى منذ عصر الاغريق. وقد شهد هذا التغير ظهور موضوعات جديدة مثل :

الإصابة الموضعية (المضوية) للأعضاء Lésions organiques ،

وتغير الأنسجة Altérations tissulaires ،

وخاصية الانشاز بين الأعضاء Voies et formes de diffusion interorganiques.

كما شهد هذا التغير كذلك ظهور مفردات جديدة استخدمت في الوصف بل وفي تسمية وتحديد بعض الأمراض القديمة قدم الإنسان مثل السل la tuberculose. وأيضاً شهد هذا التغير اختفاء بعض الألفاظ التي سبق أن استخدمت في في التشخيص لعدة مئات من السنين مثل الحمى fièvre (٨٦).

ويرى فوكوه أن نسق التكوين للطب الاكلينيكي إنما يتضمن عناصر أساسية يذكر منها على سبيل المثال تغير معدل البطالة taux de chômage ومقتضيات التوظيف des exigences de l'emploi والقرارات السياسية الخاصة بتجمعات أصحاب المهن corporations ، والقرارات الخاصة

(٨٥) فوكوه : «أر كيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٢٩ .

(٨٦) نفس المرجع ، ص ٢٢٢ .

بالجامعة ، والحاجات الجديدة les besoins nouveaux ، والإمكانيات الجديدة لمساعدة ذوى الحاجات في نهاية القرن الثامن عشر . (٨٧).

ويرى فوكوه أيضاً أن التحول الذي طرأ في العلاقات المميزة لنسق التكوين هو الذي تضمن التغير العميق الذي شهده علم الطب ، كما تضمن كذلك تحولاً آخر في العلاقات المتبادلة بين مجال الإدراك champ perceptif والقانون اللغوي code linguistique والأدوات المستخدمة في الإدراك médiation instrumentale والإعلام information (٨٨).

غير أن القول بأن تكوين مقال قد حل محل آخر لا يعنى بالضرورة ظهور موضوعات وتصورات وصياغات جديدة ، وإنما يعنى حدوث تحول في العلاقات لا يغير بالضرورة جميع العناصر . إذ من الممكن لواحد من هذه العناصر أو لأكثر من واحد منها أن يظل هو هو محتفظاً بمضمونه وصفاته رغم انتمائه لقوانين تكوين متميزة ويسجل بالتالى نوعاً من الاستمرار continuité . ومثال ذلك دورة النقد la circulation monétaire كموضوع رئيسي في علم تحليل الثروة في العصر الكلاسيكي ثم في علم الاقتصاد السياسي بعد ذلك . ومثال ذلك أيضاً فكرة الفعل المنعكس le concept de réflexe ، التي تحدت في العصر الكلاسيكي عند ويليس Willis وبروشاسكا Prochaska ، ثم ظهرت في الفسيولوجيا الحديثة (٨٩) . وهناك عناصر تظهر متأخرة لكونها مجرد اشتقاق dérivation في تكوين مقال معين ، ثم تحتل مكان

(٨٧) نفس المرجع ، ص ٢٢٤ .

(٨٨) نفس المرجع ، ص ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٨٩) توماس ويليس ، عالم فسيولوجيا وتشريح انجليزى ( ١٦٢١ - ١٦٧٥ ) ، وبروشاسكا تشيكي المولد والجنسية ( ١٧٤٩ - ١٨٠٩ ) :

الصدارة في تكوين مقالى لاحق . ومن أمثلة هذه العناصر فكرة المركب العضوى l'organisme التى ظهرت في نهاية القرن الثامن عشر في علم التاريخ الطبيعى نتيجة لعملية الوصف التصنيفى وأصبحت بعد ذلك تصوراً رئيسياً concept majeur في البيولوجيا عند كوفيه Cuvier . وأخيراً ، هناك عناصر تعود إلى الظهور بعد أن كانت قد أهملت مثل فكرة ثبات أنواع الكائنات fixation التى قال بها لينيه Linné ، وهى تعود إلى الظهور عند كوفيه . ومثل الفكرة القديمة عن اللغة الأصل une langue originare عندما عادت إلى الظهور في القرن الثامن عشر (٩٠).

ويرى فوكوه أنه على الرغم من أن وصف التغيرات على هذا النحو ينطبق تماماً على واقع المنطوقات ، فإن علم تاريخ الأفكار إنما ينظر إلى هذه التغيرات على أنها ظواهر خادعة ، ويبحث في التحليل في أن يردّها إلى عدد أقل من التغيرات . كما يبحث في أن يرد هذا العدد الأقل إلى أقل منه ، وهكذا حتى نصل إلى حد مثالى هو نقي للتغير وعودة إلى الاتصال (٩١). وإذا كانت هذه هي نظرة علم تاريخ الأفكار ، فإن الأركيولوجيا تتخذ موضوعاً لها هو هذا التغير ذاته ، أى العقبة l'obstacle التى يتعرّأمامها علم تاريخ الأفكار دون أن يتجاوزها (٩٢).

وإذا كان لابد من مسابقة واقع المنطوقات ، فإن «الأركيولوجيا ينبغي إذن أن تتابع التجمعات poursuivre les séries (أى تجمعات المنطوقات) ، وتتحرق المستويات traverser les niveaux (أى الوحدات

(٩٠) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٢٧ .

(٩١) نفس المرجع ، ص ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٩٢) نفس المرجع ، ص ٢٢٣ .

المعرفية)، وألا يقتصر عملها على مجرد متابعة سير الظواهر والمنطوقات وفقاً لبعده أفقى أو رأسى، بل طبقاً لمحور متحرك يساير المنهج الأركيولوجى» (٩٣). وربما كانت الحاجة لهذا «المحور المتحرك» من الضرورات المنهجية لمواجهة «عدم اطراد التجربة» الذى أشارت اليه الباحثة آنى Annie. وهذا يعنى أن المسائل المنهجية التى تثيرها أركيولوجيا المعرفة إنما تسيّر تماماً على عكس ما ألفه «علم تاريخ الأفكار». وأيضاً على عكس ما ألفناه نحن فى عاداتنا الابستمولوجية القديمة.

#### مجال البحث الأركيولوجى :

إن البحث فى أركيولوجيا العلوم إنما يتخذ لنفسه مكاناً داخل المجال الذى تظهر فيه وتتشابك مشكلات الكائن الإنسانى والشعور conscience ، والأصل ، والذات ، بل ومشكلة البناء structure أيضاً (٩٤). ولقد كان البحث الممكن يتمثل فى تفسير الوثائق الموجودة ، بأن يعيد تكوينها les réformer ، ثم يتحدد بعد ذلك هذا المجال الهائل . والذى هو عبارة عن مجموع المنطوقات الشفوية والمكتوبة فى انتشارها كأحداث . ثم تكون هذه المنطوقات بدورها مجالاً للبحث عن وحدات .

ولقد وقع الاختيار مؤقتاً على مجال العلوم المتصلة بالإنسان كمنطقة للبحث تنصف بعلاقاتها الخصبية والعديدة والتى يسهل وصفها . كما كانت المسألة الهامة التى تفرض نفسها دائماً هى تلك التى تتعلق باستخلاص العلاقات التى تظهر بين المنطوقات .

---

(93) Gilles DELEUZE : "Un nouvel Archiviste" in (Critique, Mars 1970).

(٩٤) فوكو : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٦ .

غير أن فوكوه يلاحظ أولاً أن من المنطوقات ما ينتسب لعلوم حديثة نسبياً مثل الاقتصاد السياسى أو البيولوجيا أو علم النفس المرضى *la psychopathologie* . كما أن منها ما ينتسب إلى علوم أخرى ربما صعب علينا أن نحدد متى بدأت بسبب امتداد جذورها في الماضى السحيق مثل علم النحو أو الطب . ويرى فوكوه أن هذه الوحدات الأخيرة يسهل تفتيتها إذا لم نتمكن من إيجاد روابط معترف بها بين مجموع ما تشمله من منطوقات ، فتحليل أمراض الرأس عند Willis ، والدراسات الاكلينيكية التى قام بها شاركوه Charcot لا يمكن أن تنتسب جميعاً إلى نفس نمط المقال . وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن طبيعة النسق الحالى للعلوم ككل (٩٥) .

ولقد كان السؤال المحدد الذى ورد عند فوكوه هو : لماذا يجتمع العديد من المنطوقات في وحدات مترابطة نسميها علمياً ؟..

ولكى يجيب فوكوه هذا السؤال ، فإنه يقوم بدراسة فروض أربعة ، يقول عنها أنها « محاولات فاشلة » تجعله يبحث عما يمكن أن تستند اليه بعض « العلوم » من سبب لرحلتها .

### الفرض الأول :

« إن المنطوقات المختلفة من حيث الصورة والمتناثرة في الزمان إنما تكون مجموعاً *ensemble* وذلك إن كانت تلتف حول نفس الموضوع » . (٩٦)

وعلى سبيل المثال ، إذا كانت المنطوقات المتصلة بعلم النفس المرضى

---

(٩٥) نفس المرجع ، ص ٤٤ - ٤٥ .

(٩٦) نفس المرجع ، ص ٤٥ .

تلتف كلها حول موضوع واحد هو «الجنون» (٩٧) ، فإنه لمن الممكن أن نتساءل عن هذه الوحدة المفترضة « folie » وعما إذا كانت تسمح بتقديم نفس المجموع من المنطوقات المترابطة والمنتظمة . ويجب فوكوه عن هذا التساؤل بالنفى . فالمنطوقات داخل هذه الوحدة المفترضة إنما تصف وتفسر وتقصي وتشير إلى متضاديات وتصدر أحكاماً ، وتصيغ عبارات لا ترد ، مع ذلك ، لنفس الموضوع .

«فالموضوع الذى انتسبت اليه المنطوقات الطبية فى القرن السابع عشر والثامن عشر لا يتطابق مع الموضوع الذى ترسمه الأحكام القضائية أو الإجراءات البوليسية فى نفس العصر . وكذلك نجد أن كل موضوعات المقال السيكيوباثولوجى قد تغيرت من بينيل Pinel أو اسكيرول Esquirol إلى Bleuler ويظهر بهذا الخصوص أننا لم نكن بصدد نفس الأمر ارض هنا وهناك ، كما أننا لم نكن بصدد نفس المرضى عقلياً » (٩٨).

ونلاحظ أنه أمام تعدد الموضوعات لا يمكننا أن نستنتج وحدة المقال بخصوص موضوع الجنون . «فالموضوعات تميز خلال التطبيق اليومى ، وفى فقه القانون ، وفى تشخيص الأطباء » ، كما أن قواعد التحول transformation والقطيعة rupture وعدم الاتصال هى التى تجعل الموضوع شيئاً آخر غير ذاته .

ويتضح مما تقدم أن وحدة المنطوقات لا يمكن أن ترد إلى وحدة المقال

---

(٩٧) نعلم فوكوه أن يستخدم لفظاً متداً هو الجنون ، وأن يضم تحته مجموعاً من العاصر الشاذة التى ظن (بضم الظاء) أنها متجانسة .

(٩٨) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة » ، ص ٤٥ - ٤٦ . وسياق تفصيل الحديث عن مقال الطب النفسى فى الفصل الرابع .

أو وحدة الموضوع ، بل إلى قانون الظهور والتحول la loi d' apparition et de transformation . كما يتضح أيضاً أن «تعريف مجموع من المنطوقات فيما تحتويه من تفرد individuel لا يكون بردها إلى موضوع واحد ، بل يكون بوصف انتشار موضوعاتها ، والإمساك بالفواصل التي تباعد بينها ، وقياس هذه الفواصل ، أو بعبارة أخرى صياغة قانون التوزيع الخاص بها loi de répartition» (٩٩).

الفرض الثاني: «وهو يهدف إلى تعريف مجموع من العلاقات بين المنطوقات استناداً إلى الصورة التي تتواجد عليها وأتماط ترابطها» (١٠٠). وفي هذا الفرض نجد أن فوكوه بعد أن قلل من أهمية الموضوعات objets والتصورات concepts ، يتساءل عما إذا كان الأسلوب style وسمية المنطوقات le caractère d'énonciation لا يكونان أكثر تحديداً لعلوم معينة مثل العلوم الطبية مثلاً .

وكان فوكوه قد لا حظ أن علم الطب قد تميز في القرن التاسع عشر بأسلوب معين un certain style . وذلك لأنه — لأول مرة — لم يعد قائماً على مجموعة من التقاليد والملاحظات والوصفات المتغيرة des recettes hétérogènes ، بل على معرفة رصينة تتميز بنظرة خاصة للأشياء وتقوم على تحليل الظاهرة المرضية من خلال علاقتها بالجسد ككل ، وتستخدم نسقاً محدداً في التعبير عما تراه بلغة أتفق على مفرداتها . وباختصار ، فقد

---

(٩٩) نفس المرجع ، ص ٤٦ - ٤٧ .

(١٠٠) نفس المرجع ، ص ٤٧ .



كان العلم الطبي وكأنه ينتظم حول مجموعة من المنطوقات تقوم على الوصف descriptifs .  
غير أن ذلك لم يدم طويلاً ..

وربما كان السبب هو الانتقال من مرحلة الفحص الذى يقوم على  
الملاحظة المباشرة وتسمع الصدر إلى مرحلة أخرى يدخل فيها استخدام  
المجهر والاختبارات البيولوجية .

وربما كان السبب أيضاً هو أن الطبيب لم يعد هو الملاحظ للمعلومة  
الطبية والمفسر لها فى نفس الوقت . فقد ظهر إلى جانبه من المراجع والأجهزة  
ما غير تماماً من وضعه كملاحظ .

ويضاف إلى ما تقدم أن المقال الطبي هو «مجموع من الفروض عن  
الحياة والموت ، وعن قواعد معينة تملأ الأخلاق السائدة ويمليها أيضاً  
متطلبات العلاج وتسير وفقاً لنماذج تعليمية . وتنبع قرابين المؤسسات .  
وهنا يتضح أنه ليس مجرد مجموع المنطوقات التى تقوم على الوصف» . (١٠١)  
وهنا أيضاً يتضح بطلان الفرض الثانى .

وإذا كان لنا أن نتحدث عن وحدة المقال الطبي بعد كل ذلك ، فإن  
مبدأ هذه الوحدة لا يمكن أن يتواجد فى صورة محددة للمنطوقات ؛ بل بالأحرى  
فى مجموعة القواعد التى سمحت بظهور الوصف الذى يعتمد على حواس  
الملاحظ ثم الملاحظة التى تعتمد على الأجهزة وتخضع لقوانين التجارب  
المعملية والحسابات الإحصائية والقواعد التى تفرضها المؤسسات ... الخ .

وعلى الجملة ، «فإن ما ينبغى الكشف عنه ليس سوى النسق الذى يتحكم

---

(١٠١) نفس الموضع .

في توزيع المنطوقات ، وأيضاً علاقات التضن أو عدم التضن التي تشملها ، والتحول الذي يطرأ عليها (١٠٢) .

الفرض الثالث : ألا يمكن تصنيف مجموعات من المنطوقات وذلك بتحديد نسق التصورات الدائم أو المتناسق الذي تصدر عنه ؟ (١٠٣) .

لقد كان علم النحو عند الكلاسيكيين ابتداءً من لانسو Lancelòt (١٠٤) وحتى نهاية القرن الثامن عشر يعتمد على نسق معين من التصورات concepts تقرر استخدامها وتحدد مضمونها : مثل الحكم jugement باعتباره صورة معيارية لكل جملة forme normative وتصور الفاعل Sujet والصفة attribut وهما مجتمعان تحت مقولة الاسم sous la catégorie de nom وتصور الفعل le verbe وقد استخدم مساوياً للرابطة في المنطق 'la copule logique وتصور الاسم كرمز للتمثل signe de représentation .

ولاحظ فوكوه أن نسق التصورات التي افترض أنها ثابتة لم يظل دائماً كذلك . فقد ظهرت مفاهيم جديدة منذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى الآن ؛ ربما كان بعضها مشتقاً من الأولى ، أما البعض الآخر فهو إما متغاير تماماً hétérogènes وإما متعارض كلياً . ومن أمثلة هذا النوع الأخير النظر إلى الفعل verbe على أنه اسم يشير إلى حدث أو عمل ، وفكرة المعرفة الكامنة في الكلمات والتي تنتقل من خلالها بطريقة غامضة obscurément ودلالة الأصوات وما لها من دور في التعبير la valeur expressive de sons . وكلها

(١٠٢) فوكوه ، «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٤٨ .

(١٠٣) نفس الموضع .

(١٠٤) لانسو تخرج في مدرسة البور روابال ، واشترك في تأليف كتاب المنطق الذي اشتهرت به هذه المدرسة . وهو من مواليد يريس ( ١٦١٥ - ١٦٩٥ ) .

مفاهيم تختلف تماماً عما استخدمه لانسلو ومعاصريه (١٠٥) . وهنا يبدو أن الصورة المتناسقة التي ظهر عليها علم قواعد النحو ليست في الحقيقة كذلك ، لأن مجموع المنطوقات والتحليلات والمبادئ والاستنتاجات التي اجتمعت تحت هذا الاسم إنما تكون وحدة مزيفة *une fausse unité* . ولذا ينبغي أن نكتشف وحدة جديدة تعتمد هذه المرة ، لا على تناسق بين التصورات ، بل على تتالي ظهورها وتباعدها أو تناقضها .

ونخرج من هذا الفرض بنظام في البحث شرط إمكانه هو دور الظهور *apparition* ودور الانتشار *dispersion* ودور التحول المحتمل *transformation éventuelle* .

الفرض الرابع : وهو الذي يختص بتجميع المنطوقات ووصف ما بينها من ترابط بفضل تطابق واستمرار الأفكار العامة (١٠٦) *L'identité et la persistance des thèmes* .

فلو أخذنا موضوع التطورية *évolutionnisme* ، سنجد أنفسنا أمام موضوع فلسفي بقدر ما هو علمي . يقول عنه فوكوه « إنه أقرب إلى علم نظام الكون *Cosmologie* منه إلى علم البيولوجيا » . كما أن هذا الموضوع قد ساهم في توجيه بعض الأبحاث أكثر مما ساهم في تفسير بعض النتائج ، وهو يذهب في مجال الافتراض إلى أكثر مما يمكن تحقيقة أو معرفته معرفة حقيقية . وعلى الرغم من كونه فكرة عامة ، فإنه مع ذلك لا يحتفظ في داخله بأي ضمان لوحدة المنطوقات خصوصاً وأن هذه الأخيرة ، وإن بدأت من مجال فلسفي إلا أنها تؤدي بعد ذلك إلى مجال علمي . وأيضاً لأن الفكرة العامة ، وإن كانت توحى بأبحاث ودراسات ، إلا أنها تظل مثالا ذهنياً هو بذاته لا يصدر عنه نتائج .

(١٠٥) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٩٠ .

(١٠٦) نفس المرجع ، ص ٥٠ .

ومن ثم نرى أن المنطوقات لا تدين للفكرة العامة *thème* ، إلا لأنها هي التي أوحى بها ، وذلك لأن الفكرة تظل حاركة عن المنطوقات ، كما أنها لا تحمل بين طياتها سبباً كافياً لحقيقة هذه المنطوقات .

لقد كانت «التطورية» في القرن الثامن عشر تؤكد اتصال وقرابة جميع الأنواع *la parenté et la continuité des espèces* (ديدرو Diderot) (١٠٧). بينما نجد أن التطورية في القرن التاسع عشر تعبر عن أنماط التفاعل بين الكائن الحي وبين الوسط المحيط به مما يؤدي إلى صور جديدة للحياة. والتطور بهذا المعنى الأخير يعبر عن عدم استمرار *discontinuité* وهنا نلاحظ مع ميشيل فوكوه أن نفس الفكرة الفلسفية تمخض عنها نمطان مختلفان من المقال .

ومما تقدم ، يتضح أن مجال البحث الأركيولوجي لا ينبغي أن يعول كثيراً على المعطيات الظاهرة أو مانسميه الموضوع *objet* أو الأسلوب *style* أو نمط تسلسل المنطوقات أو ثبات وتناسق بعض التصورات أو الأفكار ، بل ينبغي أن يكون التحليل منصباً — فيما وراء ذلك كله — على التبعر ذاته *la dispersion même* . وهذا يعني أن علينا أن ندرس صور التوزيع *les formes de répartition* ، وأن نكتشف أنساق التبعر *systemes de dispersion*

هذا هو الجديد في مجال البحث الأركيولوجي كما يقترحه ميشيل

---

(١٠٧) ديدروه : فيلسوف فرنسي (١٧١٣ - ١٧٨٤) ، تحول إلى المذهب المادي ، ويرى أن كل شيء يمكن أن يفسر تفسيراً ميكانيكياً مادياً وتظهر لديه فكرة لاتصال الكلاسيكية بين الكائن وبين الطبيعة : «أذ ليس هناك حاجز (في رأيه) بين الإنسان وبين الحيوان ، أو بين الصغور وبين الذنقات أو بين هذه الأخيرة وبين الحيوان» . راجع : P. CASTEX : "Manuel des Etudes littéraires IV", (Hachette, 1949), P. 93.

فوكوه ، وظاهر لنا أنه يختلف تماماً عن تاريخ الأفكار لما تضمنه من جدة وأصالة .

ولو أننا سائرنا هذا البحث الأركيولوجي في بداياته ، وعكفنا على دراسة ثلاثي المؤلفات الفلسفية لفوكوه (١٠٨) ، لوجدنا أن «تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي» يحاول أن يدرس التبعثر في المنطوقات ، ويثبت أن هذه المنطوقات قد تم جمعها منذ القرن السادس عشر في وحدة زائفة يضمها موضوع وهمي أطلق عليه اسم «الجنون» . وفي هذا الكتاب كان الوصف منصباً على مقال الطب النفسى في مجموعة ، وكانت المشكلة الرئيسية هي ظهور عدد من الموضوعات المتشابهة ، كما كان الكتاب يستهدف بالدرجة الأولى احتواء ما أسماه فوكوه «بالاختيار النظرى» *Choix théoriques* أو «الاستراتيجيات» *Stratégies* أى الأفكار العامة *Thèmes* والنظريات *Théories* (١٠٩) .

أما «مولد العيادة» ، فانه يبحث في التغير الذى طرأ على نمط المنطوقات في المدة من نهاية القرن الثامن عشر وحتى بداية القرن التاسع عشر ، وذلك فيما يختص بالمقال الطبى . لم يكن يهدف هذا الكتاب إذن إلى اكتشاف تكوين الأنساق التصورية أو تكوين الاختيار النظرى ، بل كان على الأحرى يهدف إلى اظهار مكانة المؤسسات . *Statut, ( ou ) emplacement institutionnel.*

(١٠٨) ثلاثي المؤلفات الفلسفية حسب ترتيب ظهوره عند فوكوه هو :

١ - تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي (١٩٦١) .

٢ - مولد العيادة ( ١٩٦٣ ) .

٣ - الكلمات والأشياء ( ١٩٦٦ ) .

(١٠٩) نلاحظ أن «الاختيار النظرى» سمي كذلك لأنه ليس ممارسة ملموسة ولا تتعلق بالذات .  
 Angèle KREMÉR-MARFÉTTI : «Foucault» Op. Cit., P. 155. انج :

وأخيراً نجد أن الدراسة في «الكلمات والأشياء» قد انصبت على مجموع شبكات التصورات وعلى قواعد تكوينها كما تكشف أيضاً عن مجالات «الاختيار النظري» التي تنبثق عنها التصورات . وسيكون ثالث المؤلفات هذا هو موضوع الفصول الثلاثة القادمة . نبدأها «بالكلمات والأشياء» نظراً لاتساع دائرة اختصاصه ، ولأنه يصل المنهج بالمذهب حسبما يرى الدكتور زكريا ابراهيم (١١٠) .

---

(١١٠) الدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٣٩ .

## الباب الثاني

### «تطبيقات أركيولوجية»

«إنني لم أزعم في أي مرة بأن «الاركيولوجيا» علم أو حتى مجرد أساس أو قاعدة لعلم ستتضح معالمه في المستقبل . إن كلمة «أركيولوجيا» إنما تشير فقط إلى خطة لتحليل الأداء اللغوي» .

فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة » ، ص ٢٦٩





## الفصل الثالث

### الأنساق المعرفية والعصور التاريخية

- ١ - معنى الحقبة المنطوقية .
- ٢ - استحالة المشاكلة (أو التشابه) .
- Les mutations de la ressemblance.
- ٣ - التماثل Similitude (في عصر النهضة) .
- ٤ - التطابق والتغاير (في العصر الكلاسيكي) .  
الماتيسيس والتاكسينوميا .  
علوم العصر الكلاسيكي :
- علم النحو العام  
التاريخ الطبيعي  
علم الاقتصاد
- ٥ - «إستميه» العصر الحديث .
- ٦ - خصائص الحقبة المنطوقية الحديثة .



## الأنساق المعرفية والعصور التاريخية

معنى الحقبة المنطوقية :

رأينا في الفصل السابق أن الأركيولوجيا تخرج حقبةً منطوقية من وحدات غامضة تسمى عصوراً (١). وكان ميشيل فوكو يقرر بأن الهدف من كتاب «الكلمات والأشياء» هو أنه ينشر بنهاية الحقبة المعرفية الحديثة 'I'Epistème moderne' ، كما يبشر بزوغ فجر جديد لفلسفة تتساءل عن اللغة وعن وحدتها الضائعة (٢). فما المقصود بالحقبة المنطوقية أو المعرفية ؟ .

لقد استخدم فوكو كلمة «ابستميه epistème» . ليشير بها إلى «مجموع العلاقات التي تربط بين الممارسات المقالية في عصر معين . وهي الممارسات التي تؤدي إلى أشكال معرفية وعلوم وأنساق صورية . كما تحدد النمط الذي تظهر به هذه العلوم وتلك الأنساق» . (٣) وهذا يعني أن «الإبستميه» ليس سوى «المجال الابستمولوجي» الذي يضم «مجموع المقولات الموضوعية ، أو تلك المبادئ» «شبه الترانسندنتالية» التي تحدد انفتاح المعارف وانغلاقها . وعلى ذلك ، فإن المنهج «الأركيولوجي» - بمعنى ما من المعاني - هو دراسة «لابستميه» العصر الواحد . (٤) .

وفي دراستنا لكتاب «الكلمات والأشياء» . نجد أنه يتناول حقبةً معرفية ثلاث ، يستخرجها من ثلاثة عصور تاريخية هي عصر النهضة والعصر

(١) ص ٦٥ .

(٢) فوكو : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣١٨ . والتساؤل هنا عن لغة ضائعة «لأنها مسرح ظهور كل شيء . سوى ذاتها» . وهي لم تكن ضائعة في عصر النهضة لأنها كانت شيئاً بين أشياء العالم .

(٣) فوكو : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٥٠ .

(٤) زكريا إبراهيم : «مشكلة البلية» ، ص ١٣٧ .

الكلاسيكي والعصر الحديث . كما نجده أيضاً يتناول هذه الحقب المعرفية من حيث أن كلا منها يكون نسقاً متكاملاً هو «الابستميه» . ومن هنا اشتهر فوكوه بأنه فيلسوف بنائى يتحمس للنسق .

وإذا كان البناء فى أبسط تعريفاته هو مجموع من العلاقات الثابتة بين عناصر متغيرة ، فلنأنا كذلك نلاحظ فى داخل «الابستميه» أن الشئ يمكن أن يرمز لأشياء أخرى كثيرة : ومع ذلك يقوم بدوره دائماً على نفس الوتيرة بمعنى أن تظل العلاقة بين العناصر محتفظة بطبيعتها ، وبالتالي يظل الرمز محتفظاً دائماً بنفس وظيفته .

غير أن البناء المغرفى قد يتعرض لاختلال التوازن ، فتتغير «الابستميه» وذلك عندما تتغير العلاقة ذاتها (أى تتغير علاقة الرمز بما يعنيه ، فلم يعد يعنى نفس الشئ ) .

وإذا كانت البناءات عند معظم مفكرى الاتجاه البنائى تتصف بالثبات permanence ، لذا فقد ظهر من قال بأن بنائية فوكوه هى بنائية بدون بناءات Structuralisme sans structure (٥) . ولسنا الآن بصدد تقييم عمل فوكوه أو تحديد المكانة التى يحتلها بين البنائين ، لأن ذلك سيرد فى مكانه المناسب ، ولأن مسار البحث فى هذا الفصل يتطلب عرضاً موضوعياً لبناءات الثقافة كما وردت عند فوكوه .

يرى فوكوه أن النظام البادىء فى الأشياء يفترض وجود مبدأ منظم ، أى يفترض وجود نسق به نميز وبه ندرك التشابه بين الأشياء . وهذا المبدأ

(٥) PIAGET Jean : "Le Structuralisme" Op. Cit., P. 108.

وسنعود إلى هذه النقطة فى الـ «التقييم والتعقيب» .

إنما يستتر وراء كل ما تكتسبه أى ثقافة من معرفة أو علوم .

يوجد إذن ، فى قلب كل ثقافة ، نمط من النظام une modalité de l'ordre  
مختبئ أو غير متعقل impensée ، هو بمثابة الأرضية التى ينبثق عنها بالضرورة  
تصنيف الخبرات البشرية . ويظهر هذا النظام دائماً كشرط لإمكانية المعرفة  
والتنظير ، وهو بوجه عام يقوم بعمل التبلي التاريخى L'a priori historique (٦) .  
ويرى فوكو - أنه أيضاً أن هذا النظام هو شبكة غير مرئية  
تربط بين الأشياء un réseau secret . وهذه الشبكة هى التى يتيسر بفضلها  
عرض وتصنيف الأشياء بالطريقة التى تمكننا من معرفة ما بينها من علاقات ،  
فتفسرها وتجعل التفكير فى أحدها مستدعياً للتفكير فى الآخر (٧) . إن  
هذه الشبكة إذن هى مبدأ كل معرفة . وهى لا توجد إلا من خلال نظرة أو  
انتباه أو لغة Ce réseau n'existe qu'à travers la grille d'un regard,  
d'une attention, d'un langage . فهى التى تمكننا من القول بأن التشابه بين  
الكلب والقط أقل من التشابه بين كلبين من كلاب الصيد على الرغم  
من أنها جميعاً مستأنسة ، وتتصف كلها بسرعة الجرى ، أى أنها أيضاً مبدأ  
كل تصنيف (٨) .

ويرى فوكو أن كل نظام يفترض وجود مضاهاة أو مشكلة أو تشابه  
des ressemblances بين الأشياء (٩) . ولقد كانت القضية الأساسية فى  
«الكلمات والأشياء» هى البحث عن تاريخ هذا «التشابه» وما طرأ عليه

(٦) «الكلمات والأشياء» ، ص ص ١٢ - ١٥

(٧) نفس المرجع ، ص ١١ .

(٨) نفس الموضع .

(٩) «الكلمات والأشياء» ، ص ١٢ .

من تحول ، خصوصاً وأن هذا التحول الذى طرأ على النظام إنما يكشف عن تحول فى العلاقة بين «الكلمات والأشياء» أو بين اللغة والوجود .

استحالة المشاكلة (أو التشابه) : Les mutations de la ressemblance :

اعتقد فوكوه أن اللغة فى صورتها الأولى ، عندما أعطاها الله للإنسان ، كانت رمزاً شفافاً ومعبراً عن الأشياء لأنها كانت تشبه الأشياء . فالأسماء وضعت فوق مسمياتها تماماً كما كتبت القوة فى جسم الأسد والملك فى نظرة النسر وتأثير الكواكب على جباه البشر . ويرى فوكوه أن هذه الشفافية قد تبددت بعد طوفان بابل عقاباً للبشر ، ولم تعدد اللغات وتفترق بعد ذلك إلا بعد أن تبدد هذا التشابه مع الأشياء . ومع ذلك ، فإن كل اللغات التى نعرفها الآن ما كان لنا أن نتواصل بها إلا على أساس من هذا التشابه الضائع وفى الفراغ الذى تركه (١٠).

عصر النهضة :

وإذا انعدم التشابه المباشر بين اللغة وبين الأشياء التى تسميها . فإن هذا لا يعنى انفصال اللغة عن العالم : ويستشهد فوكوه بما لا حظه أحد كتاب عصر النهضة (١١) من أن العبرانيين les hébreux والمصريين والعرب والآثراك والفرس والتتار يكتبون جميعاً من اليمين إلى اليسار ، وهم فى هذا يتفقون مع الحركة اليومية للسماء الأولى وهى أكثر الحركات اكتمالاً عند أرسطو . كما أن الاغريق واللاتين وسائر الأوروبيين يكتبون من اليسار إلى اليمين وفق حركة السماء الثانية المكونة من سبع كواكب . أما الهنود والصينيون واليابانيون

(١٠) «الكلمات والأشياء» ، ص ٥١ .

(١١) Claude DURET "Trésor de l'histoire des langues" (Cologne, 1613).

ذكره فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٥٢ .

فهم يكتبون من أعلى إلى أسفل وفقاً لنظام الطبيعة الذى أعطى للانسان الرأس من أعلى والقدمين من أسفل . وعلى عكسهم كتب المكسيكيون من أسفل أعلى أو فى خطوط حلزونية طبقاً للمسار السنوى للشمس حول دائرة البروج le zodiaque . ومن هذه الملاحظة يتضح أن اللغات فى هندستها المادية إنما تعبر عن العالم بسماؤه وأرضه ، كما يتضح أن البحث عن الوظيفة الرمزية ينصب على اللغة بوجه عام وعلاقتها الكلية بالعالم فى مجموعة .

وعلى أى حال ، فإن التقاء اللغة بالأشياء فى عالم مشترك ، إنما يفترض ميزة مطلقة للكتابة privilège de l'écriture سادت على وجه الخصوص فى عصر النهضة بسبب ظهور المطبعة وانتقال المخطوطات الشرقية المكتوبة باليد إلى أوروبا والاهتمام بتفسير النصوص الدينية . ولذا فإن ما تتصف به طبيعة اللغة فى ذلك العصر هو أن تكون مكتوبة ، أما الصوتيات فهى ليست سوى ترجمة مرحلية ومؤقتة للغة . فالله قد أنزل إلى العالم نصوصاً وكلمات مكتوبة : أما آدم فلم يفعل سوى قراءة العلامات المرئية الصامتة التى أنزلها الله كأسماء لمسميات هى الأشياء والحيوانات . ويضاف إلى ذلك أن القانون الإلهى مكتوب فى اللوح المحفوظ والكلم الحق موجود بالكتاب المقدس وليس فى ذاكرة البشر . وهذا ما دعا بعض مؤرخى القرن السادس عشر إلى أن يقرر صراحة بأن النص المكتوب كان دائماً يسبق القول الشفهي سواء أكان هذا السبق فى الطبيعة ذاتها أو فى معرفة البشر (١٢) . ومهما يكن من شئ ، فقد كانت الطبيعة ذاتها فى القرن السادس عشر نسيجاً متشابكاً من الكلمات والعلامات والروايات

---

(١٢) «الكلمات والأشياء» ص ٥٣ - ٥٤ .

والصفات والأقوال والصور التي تكون في مجموعها استعداداً معرفياً  
une disposition de l'épistémè مميّزاً لعصر النهضة .

ومن أمثلة ذلك ما نجده ، عند عالم طبيعي هو ألدروفاندى Aldrovandi من خليط متداخل من الوصف المضبوط والنصوص المنقولة والروايات التي لم تخضع لأى نقد والملاحظات العابرة عن تشريح حيوان أو عن مسكنه أو عن مدى استفادة علم الطب من هذا الحيوان ، وكذلك مكانه عند السحرة. وهذا ما دعا أحد علماء القرن الثامن عشر هو بيفون Buffon إلى التساؤل عن قيمة ما تقدمه مثل هذه الكتابات لعلم التاريخ الطبيعي ، خصوصاً وأن معظمها ليس وصفاً بل نسج خيال Une légende (١٣) . وهنا يقول فوكوه أن كلمة Icenda عند ألدروفاندى ومعاصريه تعنى أى شيء يقرأ ، كما أن معرفة أى شيء في ذلك العصر ، سواء أكان حيواناً أو نباتاً أو جاداً ، هي عبارة عن جمع تلك الطبقة السميكة من الرموز التي انبثقت عن هذا الشيء أو ظهرت بخصوصه . كما يرى فوكوه كذلك أن ألدروفاندى كملاحظ لم يكن أقل شأناً من بيفون ، كما أنه لم يكن أكثر ميلاً نحو تصديق كل ما يقال له أو أقل اهتماماً بالأمانة العلمية التي تتطلب تدقيق النظر . إن الاختلاف بين الرجلين إنما يرد في النهاية إلى أن نظرة كل منهما لا يربطها بالأشياء نفس النسق système أو نفس الاتجاه المعرفي la même épistémè .

ونلاحظ بهذا الصدد أن التحليل الأركيولوجي يتفق مع سائر الاتجاهات البنائية في النظر إلى مختلف الثقافات ومختلف الشعوب على قدم المساواة .

---

(١٣) ألدروفاندى هو عالم نبات إيطالي (١٥٢٢ - ١٦٠٥) . أما بيفون فهو عالم طبيعي وكاتب فرنسي (١٧٠٧ - ١٧٨٨) .



فليس هناك فكر ساذج في عصر النهضة مقابل فكر أكثر تقدماً في عصر  
عصر لا حق ، وليس هناك مرحلة سابقة على المنطق مقابل مرحلة الفكر  
المنطقي . وهذه النتائج تلزم بالضرورة عند البنائين من الاعتراف بطبيعة  
إنسانية واحدة كما تلزم عن الأخذ بفكرة البناء باعتباره نسقاً لا يكون الفكر  
سوى عنصر من عناصره .

إن ما يكون حقيقة المعرفة في عصر النهضة هو أنها لم تكن ملاحظة  
أو برهنة وإنما كانت تفسيراً ( أو تأويلاً ) interprétation . فن  
تعليقات على النصوص القديمة إلى أخرى عن القدماء أنفسهم ، ومن تعليقات  
على ما ينقله الرحالة إلى تعليقات على القصص والأساطير . أى أنها كانت  
باختصار انتقالاً من لغة إلى لغة ، أو أن اللغة كانت تملك بداخلها مبدأ  
تضاعفها principe intérieur de prolifération .

ويستشهد فوكوه على ذلك بعبارة لمتنى تقول : « لدينا نحو تفسير  
التفسيرات أكثر مما لدينا نحو تفسير الأشياء . كما أن لدينا الكثير من الكتب  
التي ينصب مضمونها على كتب أخرى بدلا من معالجته لموضوعات جديدة .  
إن ما نفعله ليس سوى نقد وتعليق ذاتيين » ( ١٤ ) .

ويرى فوكوه أن هذا النص يكشف عن علاقة داخلية اشتملتها لغة  
القرن السادس عشر ، وهذه العلاقة تضمن وجود حركة دائبة داخل اللغة  
تجعلها في نمو مطرد لا يتوقف . فالحقيقة لا تتكشف إلا في كلام يأتي مستقبلاً ،  
وهذا الأخير لا يملك التوقف والانغلاق على ذاته . غير أن هناك حركة

( ١٤ ) Montaigne, Essais, Livre III, Chap. XIII. (14)

ذكره فوكوه : « الكلمات والأشياء » ، ص ٥٥ .

مرتدة تكشف تحت المقال موضوع النظر مقالا آخر أكثر أهمية هو النص الأول  
*Texte primitif* الذى تدور حوله جميع التفسيرات رغم تعددها. إن هذا النص  
 الأول هو الكتابة التى تتجسد العالم *l'écriture qui fait corps avec le monde*  
 والتى نتحدث ابتداء منها إلى مالا نهاية ، فتتعدد أنماط المقال  
 رغم أن كل نمط منها يتوجه إلى تلك الكتابة الأولى على اعتبار أنها المقصد  
 النهائى والأمل فى العودة (١٥) . أى أننا أمام حركة دائرية أو كروية ،  
 كانت هى السمة المميزة للمعرفة فى عصر النهضة .

لم تكن اللغة فى القرن السادس عشر إذن عبارة عن مجموع من الرموز  
 المستقلة الموحدة النمط والشكل بحيث تنعكس فيها الأشياء كما تنعكس فى  
 مرآة بغية انكشاف حقيقتها ، بل إنها كانت على الأحرى ذات طبيعة معتمدة  
 وغامضة ومغلقة حول ذاتها وتختلط بصور العالم وتتداخل معها (١٦).  
 إنها كانت جزءاً من الطبيعة ، كما أن لعناصرها ما للحيوانات والنباتات  
 والنجوم من قوانين حتمية للتوافق *lois d'affinité* . فنجده مثلاً أن  
 راموس *Ramus* قد قسم منطقته إلى قسمين . أما القسم الأول فقد كرسه  
 لدراسة أصول الكلمات *l'étymologie* لا بقصد الكشف عن معناها الأصلية  
 بل بقصد الكشف عن خصائص أحرف الهجاء ومقاطع الكلمات . وأما  
 القسم الثانى ، فقد اختص بالقواعد *syntaxe* ويدرس البناء اللغوى المركب  
 بواسطة الكلمات وبالقياص إلى خصائصها . ولم تكن دعامة البحث اللغوى  
 عند راموس هو كم المعنى الذى تنقله اللغة ، بل ما يكمن من أهمية فى المقاطع  
 لذاتها *syllabes* ، وأيضاً فى أحرف الهجاء *lettres* ، مما يجعلنا نقارنها

(١٥) «الكلمات والأشياء» ، ص ٥٦ .

(١٦) نفس المرجع ، ص ٤٩ .

بالأشياء في العالم حين يكون بينها تجاذب أو تنافر (١٧).

وفي الحقيقة ، لقد كان الترابط بين الأشياء وبين كلمات اللغة من أهم خصائص الحقبة المعرفية لعصر النهضة . وهذا يعني أن نسق الرموز كان ثلاثياً حتى بداية العصر الكلاسيكي ، غير أن فوكوه لا يفوته أن يقرر بأن بدايات هذا النسق الثلاثي قد ظهرت في العالم الغربي قبل ذلك بكثير ، ابتداء من الفلسفة الرواقية . وقد كانت عناصر النسق الرواق تتضمن :

أ ( الكلام (حروف ملفوظة أو مكتوبة )

ب) مدلول الكلام (مضمون الفكر) .

ج) موضوع الكلام (وهو الشيء المشخص الموجود في العالم الخارجي) (١٨).  
أما عناصر النسق الثلاثي ternaire في عصر النهضة ، فإنها كما يبين فوكوه ، تبدأ بمجال صوري للعلامات des marques (هي الحروف الملفوظة أو المكتوبة) ، وهذه العلامات تشير إلى مضمون contenu (هو الشيء المشخص الموجود في العالم الخارجي) ، كما يستند إلى تماثل similitude (هو المدلول) يربط العلامات بالأشياء المعنية choses désignées .

ويرى فوكوه أن التجربة اللغوية في عصر النهضة قد شهدت أيضاً صورة معكوسة لنفس هذا النسق : فاللغة توجد أولاً في شكلها الخام والبدائي وتتخذ صورة بسيطة ومادية للكتابة باعتبارها علامة على الأشياء الموجودة في العالم

(١٧) نفس المرجع ، ص ص ٥٠ - ٥١ .

أما راموس فهو فيلسوف وعالم نحو فرنسي (١٥١٥ - ١٥٧٢) ، تحول إلى الديانة البروتستانتية ، وكان يبحث - في العقل - عن معيار الحقيقة ، وكان في ذلك مهتماً للأفكار الديكارتية .

(١٨) الدكتور عثمان أمين : « الفلسفة الرواقية » ، (مكتبة الأنجلو سنة ١٩٧١) ،

ص ١٢٤ .

(وهنا يظهر التماثل *Similitude* ، وهو ما يعبر عنه فوكوه بكتابة أشياء العالم *l'écriture des choses du monde* . ثم لا يلبث أن يتولد عن هذه الكتابة صورتان للمقال ، الأولى هي نص التعليق *texte du commentaire* على هذه الكتابة ، أما الثانية فهي نص افتراضى يوجد تحت العلامات المبرثة للجميع ، وتفترض أولويته وأصالته ، ويشرحه التعليق (١٩).

*Texte supposé originaire et que le commentaire interprète.*

ومن هنا نجد مستويات ثلاثة للغة تبدأ من كينونة واحدة للكتابة *L'être unique de l'écriture* كما نجد أن وحدة المقال لا تتناقص مع الثالث *la trinité* الذى تنقسم اليه .

وتلخص آنجيل ماريقي ما تصوّره فوكوه عن شكل المعرفة في عصر النهضة فتقول :

« كان خليط الكلمات والأشياء يسبح في وسط كونى

*un milieu cosmique* مقدس ومتشابك العناصر .

كل عنصر فيه يسمح بالمرور إلى الكل ، كما يسمح

بالمرور إلى أى عنصر آخر . وهنا تتجلى ظاهرة المشاركة .

*participation* كما يظهر التماثل *Similitude* « (٢٠) .

غير أن التشابه الذى كان تماثلاً في عصر النهضة سيتحول إلى تطابق *identité* وتغاير *différence* في العصر الكلاسيكى . مما يتسبب في ظهور تصورات جديدة وموضوعات جديدة أيضاً .

(١٩) «الكلمات والأشياء» ، ص ٥٧ .

Angèle KREMER-MARIETTI "Michel FOUCAULT" Op. Cit., (٢٠)

P. 53.

## العصر الكلاسيكي :

إذا كان المقال في القرن السادس عشر يتأرجح بين الوحدة والثالث ، فإن العصر الكلاسيكي قد تميز بنسق اللغة ليس ثلاثياً بل ثنائياً *binaire* ، ويتصف بأنه امتثالي *représentatif* ولا يرتبط بالعالم *désancré du monde* . ويرد إلى مجموع من الرموز *signes* التي تخضع لعلاقة الدال بالمدلول . وإذا كان القرن السادس عشر يسأل : كيف يمكن التأكد من أن نسق العلامات يتطابق مع ما يشير إليه ، فإن تساؤل العصر الكلاسيكي هو : كيف يمكن التأكد من أن الرمز يرتبط بمدلوله ؟ .

ويحدد فوكوه صورة الاستعداد المعرفي السائد في العصر الكلاسيكي فيقول : «إنها محاولة لتكوين علم عام للنظام ، ونظرية في الرموز تلال الامتثال ، واتجاه نحو عمل قوائم تنظيمية للعناصر المتطابقة والمتغايرة » (٢١) .

وإذا كان الحديث عن حالة المعرفة في العصر الكلاسيكي لا بد وأن يتطرق إلى الحديث عن المقال الديكارتي باعتباره بادرة التحول وبداية حتمية منطقية جديدة إلا أن «الديكارتي» لم تكن القوة الكبرى التي عملت على تدعيم أسس هذا المجال الجديد . وإنما كانت - في نظر فوكوه - مجرد انعكاس له ، إن لم نقل مجرد تعبير عنه (٢٢) .

ومهما كان من شيء ، فإن المتأمل لنصوص «التأملات الديكارتي» يجدها حافلة بالنظر في علاقة الدال بالمدلول ، أي علاقة الكلمات بمدلولاتها وهي المسألة التي شغلت علماء النحو في القرن السابع عشر ، كما يجدها

(٢١) «الكلمات والأشياء» ، ص ٨٦ .

(٢٢) الدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٤٣ . .

تكشف عن اختلاف في الطبيعة بين الأفكار يماثل اختلاف العلاقات الممكنة بين الأشياء . والتأملات الديكارتية لا تختلف في هذا كثيراً عما أورده مناطق البور رويال في هذا الشأن .

يقول ديكارت في التأمل الثالث :

«... إذا أخذت هذه الأفكار من حيث أنها أنحاء من أنحاء التفكير فحسب . فلأنى لا أرى بينها فرقاً ولا تبايناً ، وإنما تبدو لي كلها صادرة عنى على نمط واحد . ولكن إذا اعتبرتها صوراً للأشياء بعضها يمثل شيئاً وبعضها يمثل شيئاً آخر ، فبدى أنها تكون متباينة جداً . ... ثم إن الفكرة التى بها أتصور إلهاً . له العزة والملك ، أزلياً . لا متناهياً ، منزها عن التغير . عالماً بكل شىء ، قادراً على كل شىء . خالقاً للجميع الأشياء الخارجة عن ذاته — أقول أن هذه الفكرة على التحقيق تملك في ذاتها وجوداً موضوعياً أكثر مما تملك الأفكار التى تمثل لى الجواهر المتناهية .» (٢٣).

ويتبين من هذا النص أن الأفكار صور للأشياء ، وهى تختلف باختلاف الأشياء . كما يتبين أن الأفكار وجوداً موضوعياً ، و أن أكثرها مفارقة هو أكثرها موضوعية . وفي موضع لاحق من التأمل الثالث يقول ديكارت :

«يجب أن نذكر أن كل فكرة لما كانت عملاً من أعمال

---

(٢٣) ديكارت : «التأملات في الفلسفة الأولى» ، ترجمة الدكتور عثمان أمين ، (مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥١) ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .

الذهن فطبيعتها لا تتطلب من ذاتها أى وجود صوري  
سوى الوجود الذى تتلقاه وتستفيد منه الفكر أو الذهن  
فما هى إلا حال من أحواله أى نمط أو نحو من أنحاء  
التفكير» (٢٤).

ويقول أيضاً فى نفس التأمل :

« ... فالنور الفطرى يرشدنى إلى أن أعرف معرفة  
بدئية أن الأفكار فى نفسى أشبه بلوحات أو صور ،  
يمكن أن تقصر عن محاكاة كمال الأشياء التى أخذت  
عنها ، ولكن لا يمكن أبداً أن تحوى شيئاً أعظم وأكمل  
منها . » (٢٥).

ويمكننا أن نلاحظ مما تقدم أن العصر الكلاسيكى يلبس المقال ثوباً  
«أنطولوجياً». فاللوحات أو الصور التى يتحدث عنها النص هنا ليست  
سوى طرق متعددة للدلالة على وجود أشياء ، كما أن المقال يهدف إلى  
تسمية الأشياء بلفظ يشير إلى كينونتها . ويظهر أيضاً مما تقدم أن هناك تاذراً  
بين تحليل اللغة وتحليل الفكر. «فالقضية بالنسبة للغة هى كالمثل بالنسبة للفكر» (٢٦).

La proposition est au langage ce que la représentation est à la pensée.  
والكلمات لا ينظر إليها على أنها القشرة الرقيقة la mince pellicule التى  
تسير موازية للفكر من خارجه ، بل إنها استدعاء للفكر وإيضاح لأعماقه (٢٧).

(٢٤) نفس المرجع ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢٥) نفس المرجع ، ص ١٢٩ .

(٢٦) «الكلمات والأشياء» ، ص ١٠٧ .

(٢٧) نفس المرجع ، ص ٩٢ .

ويضاف إلى ذلك أن فعل الكينونة كان دعامة أساسية لعلم النحو والفلسفة معاً . فهو الذى يسمى كينونة الامثال Il nomme l'être de la représentation وهو الذى يسمح بربط نسق الرموز ككل كما يسمح بربطه بالأشياء ، أى أنه يسمح بربط الدال بالمدلول . يقول فوكوه : «إن لم تكن هناك وسيلة للتعبير عن الكينونة ، فلا وجود إذن للغة . ومع ذلك فإن فعل الكينونة لا وجود له بدون اللغة لأنه جزء منها» (٢٨).

وبناء على ما تقدم ، فإن المعرفة لم تعد قائمة على مقولات شبيهة بالمقولات الأرسطية ، (٢٩) فقد أصبحنا الآن بصدد ابستمولوجيا الصور Une épistémologie des formes وهى التى تقوم على مستويات للامثال قابلة للتحليل والتركيب وإعادة التنظيم .

الماتيسيس والتاكسينوديا :

إذا كان العصر الكلاسيكى قد اشتهر بأنه يفصل النفس عن المادة والروح عن الجسد ، فإنه كذلك يقوم بفصل اللغة عن العالم والكلمات عن الأشياء . ولم تعد هناك أولوية لما يكتب : « فالعين ستخصص للرؤية ، والرؤية فقط . أما الأذن فلإنها ستسمع فقط » (٣٠).

لم يكن من المدهش فى العصر الكلاسيكى إذن ، أن انتقلت الشفافية من

(٢٨) نفس المرجع ، ص ١٠٩ .

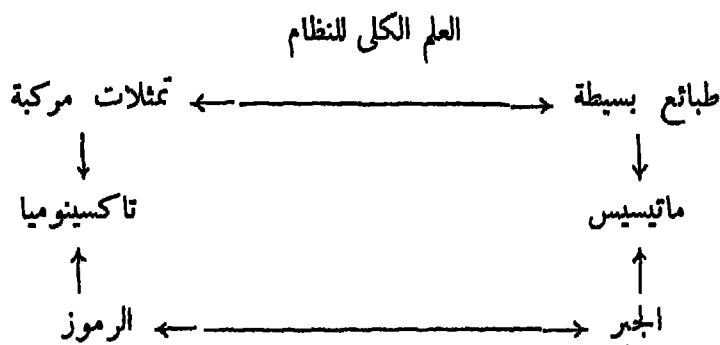
(٢٩) المقولات الأرسطية هى أوائل المحمولات أو أجناسها العليا ، وهى تمثل وجود الوجود المختلفة .

راجع : يوسف كرم : «تاريخ الفلسفة اليونانية» ، (لجنة التأليف والترجمة والنشر) سنة ١٩٥٣ ، ص ١٢٠ .

(٣٠) «الكلمات والأشياء» ، ص ٥٨ .



العالم إلى المقال ، وقد كانت السيادة في هذا العصر لمفهومين أساسيين هما الرمز *signe* والنظام *ordre*. أما العلوم التي كانت تتناول ما أسماه ديكرات بالطبائع البسيطة «فإنها كانت تلجأ للرياضيات الكلية *Mathesis Universalis* ولمنهجها العام وهو الجبر . وأما العلوم التي تدرس «الطبائع المركبة» (وهي العلوم التي يكون موضوعها بمثابة التقاء بين التمثل والتجربة) ، فإنها كانت تلجأ لمنهج التصنيف *Taxinomia* الذي يعتمد على نسق للرموز . ولقد كانت نسبة الرموز للطبائع المركبة كنسبة الجبر للطبائع البسيطة. فالرموز التي يضعها الفكر تكون جبراً للتمثيلات المركبة (٣١) . ومن هنا كانت العلاقة الوثيقة بين الرياضيات العامة وبين منهج التصنيف ، مما جعل المعرفة في العصر الكلاسيكي تجتمع تحت مثل أعلى تنطبع بطابعه ، ألا وهو العلم الكلي للنظام *La science générale de l'Ordre*. ونجد بكتاب « الكلمات والأشياء » توضيحاً لذلك كما يلي : (٣٢).



وقد كان فوكوه يهدف إلى بيان إمكانية رد التمثيلات الأمبيريقية إلى طبائع بسيطة ، وبالتالي رد «التاكسينوميا» إلى «الماتيسيس» . ولما كان

(٣١) «الكلمات والأشياء» ، ص ٨٦ .

(٣٢) «الكلمات والأشياء» ، ص ٨٧ .

إدراك البدهات *les évidences* ليس سوى حالة خاصة للامثال بوجه عام ، لذا ، فإنه من الممكن القول كذلك بأن «الماتيسيس» ليس سوى حالة جرتية «لتاكسينوميا» .

ويرى فوكوه أن منهج التصنيف أو التاكسينوميا إنما يتضمن نوعاً من الاتصال بين الأشياء *Un certain continuum des choses* . وعلى ذلك فإن العلوم التجريبية يمكنها أن تكشف بالتحليل أن الاتصال المطموس للكينونة *la continuité brouillée de l'être* يمكن استعادته من خلال الرابطة الزمانية *le lien temporel* للامثالات . ومن هنا كان البحث في أصل المعرفة هو المبدأ السائد طوال العصر الكلاسيكي (٣٣).

وإذا أردنا أن نحدد ابستميه العصر الكلاسيكي في كلمات بسيطة ، فاننا نقول أنه من ناحية «كانت تطبق رموز «العمليات الممكنة» على الأشياء المتطابقة أو المختلفة» (٣٤) .

On utilise les symboles des opérations possibles sur des identités et des différences.

(وعلى سبيل المثال ، فقد ظهر أثر ذلك في الأبحاث الطبية في ذلك العصر . لأن هذه الأبحاث — بسبب «تصنيفها للأمراض» — كانت تطبق نفس العلاج لمجرد ظهور نفس الأعراض على أى عضو من أعضاء الجسم ، وكانت في ذلك تتجاهل وحدة الكائن الحي .) (٣٥) ومن ناحية أخرى «كانت تحلل العلامات التي تتواتر باستمرار من جراء تشابه الأشياء وبفعل الخيال» (٣٦)

(٣٣) نفس الموضوع . ونلاحظ أن البحث من الأصل يفترض دائماً الاعتراض بالاستمرار التاريخي . .

(٣٤) نفس الموضوع .

(٣٥) سيوضح ذلك في الفصل الخامس بنشأة علم الطب .

(٣٦) «الكلمات والأشياء» ، ص ٨٧ .

(فثلا كان الاعتقاد في اطراد الطبيعة يترتب عليه الاعتقاد في تولد نفس المعلولات عن العلل المتشابهة ، كما بحث على تخيل صدور نفس المعلولات عن نفس العلل) .

وإذا تخيلنا عناصر المعرفة المختلفة في العصر الكلاسيكي داخل لوحة تنتظمها ، فإن اطار هذه اللوحة يكون هو الحساب والأصل *le calcul et la genèse* . إن الرموز داخل هذه اللوحة إنما تسمح بتكوين نسق آني *un système simultané* تتقارب فيه الامثالات وتتباعده ، وتظهر فيه عناصر التطابق والاختلاف *des identités et des différences* . وداخل هذه اللوحة نجد علم التاريخ الطبيعي ، وهو علم يدرس صفات الكائنات *science des caractères* ويؤمن باتصال الطبيعة وتداخل عناصرها . وداخل هذه اللوحة أيضاً ، نجد نظرية العملة والقيمة *la théorie de la monnaie et de la valeur* وهو علم الرموز التي تسمح بالتبادل *l'échange* . ونجد داخل اللوحة كذلك علم النحو العام ، وهو علم الرموز التي تسمح بتجميع المدركات الجزئية كما تقوم بضبط حركة الفكر (٣٧) .

إن هذه المجالات الثلاثة ، على الرغم من تباينها . ما كان لها أن تظهر في العصر الكلاسيكي إلا بفضل الإطار العام للوحة الذي يتكون من حساب المتساويات وأصل الامثالات (٣٨)

*le calcul des égalités et la genèse des représentations.*

ويرى فوكوه أن مفاهيم الماتيسيس والتاكسينوميا والأصل لا تشير إلى

(٣٧) «الكلمات والأشياء» ، ص ٨٨ .

(٣٨) نفس الموضع .

مجالات منفصلة بقدرما تشير إلى شبكة قوية من الخصائص المتداخلة appartenances التي تعرف الشكل العام للمعرفة في العصر الكلاسيكي . فالتكسينوميا لا تتعارض مع الماتيسيس لأنها هي أيضاً علم النظام . إنها ماتيسيس وصفية Mathesis qualitatives .

إن الماتيسيس هي علم المساويات science des égalités أى العمليات des attributions والأحكام des jugements . إنها علم الحقيقة la science de la vérité . وكان . فوكوه في موضع سابق بصرح بأن «الماتيسيس هي علم النظام المحسوب» science de l'ordre calculable .

أما التاكسينوميا فإنها تختص بمقولة التطابق والتغاير . إنها علم الفئات والتصنيف ، ومنهج للوصول إلى معرفة الكائنات . وأما الأصل ، فإنه متضمن في التاكسينوميا ، أو أنه يجد فيها على الأقل إمكانية تطبيقه . وهو تحليل لحالات النظام المتكونة وذلك ابتداء من حالات أمبيريقية متتالية ، والفرق بينه وبين التاكسينوميا هو أنه يفترض تسلسلاً متتالياً قد لا يكون مرئياً ، في حين أن التاكسينوميا تنظم لوحة من الاختلافات المرئية . والأصل قد لا يكون مرئياً ، في حين أن التاكسينوميا تنظم لوحة من الاختلافات المرئية . والأصل يدرس الرموز موزعة في الزمان ، أما التاكسينوميا فإنها تتناولها في آنية مكانية simultanéité spatiale (٣٩) .

وترى الباحثة أنجيل ماريتي أنه من الممكن أن نلتمس تبريراً لهذه النتائج التي توصل إليها فوكوه وذلك بالرجوع إلى كتابات ديكرت وخاصة «التأملات الميتافيزيقية» .

---

(٣٩) نفس الموضع .

ففى التأمل الأول نجد ديكارت يستبعد «الأشياء التى يمكن أن توضع موضع الشك» ويأتى فى مقدمة هذه الأشياء ما كان منها أكثر تعقيداً ، وما ارتبط بعلوم كان حظها من اليقين ضئيلاً مثل الفيزياء وعلم الفلك والطب. وعلى عكس الأشياء المعقدة نجد الأشياء البسيطة ترتبط بعلوم تتصف باليقين مثل علم الحساب والهندسة . ومع ذلك ، فإن الأشياء البسيطة ستوضع موضع الشك أيضاً لافتراض وجود الشيطان الماكر ، وهنا يرتد الامتثال إلى أدنى درجة وهى الشك .

غير أنه ابتداء من الشك نجد أن كينونة الكوجيتو تستمى وتتحوّل إلى امتثال مستقل فى ذاته هو أساس ودعامة المتمثل المفارق .  
support du représenté séparé أى دعامة المقال العالمى نفسه .

، وترى الباحثة أنجيل أن النفس الانسانية ستصبح مجالاً مفارقاً للمتمثل sphère séparée du représenté وذلك طبقاً لعنوان التأمل الثانى وهو «فى طبيعة النفس الإنسانية وأن معرفتها أيسر من معرفة الجسم» . لأنه إذا كانت معرفة النفس أكثر يسراً ، فهذا يعنى أن المقال يتكون ابتداء منها . ونحن نعلم أن المعرفة العلمية عند ديكارت هى مقال مفارق للأشياء un discours séparé des choses.

يقول ديكارت فى التأمل الثانى :

« إن القضية «أنا كائن وأنا موجود» قضية صحيحة

بالضرورة كلما نطقت بها وكلما تصورتها فى

ذهنى» .

وترى أنجيل أن فى هذه القضية بداية المقال العلمى المفارق للأشياء (٤٠) .

(40) Angèle KREMER-MARIETTI : "Foucault" Op. Cit., (٤٠)  
P. 62.

وهنا نلاحظ أن الأشياء les choses تختفى من الأفق المعرفي كي تترك مكانها للكلمات les mots. غير أن هذه الكلمات الجديدة يتميز اليقين فيها بالشفافية ، وهذا هو شرط انتهائها إلى الامتثال الديكارتي : وهو امتثال معدل ومتقى épuré ومصصح. وهذا الانتقاء وذلك التصحيح هما شرطا قبول ما كان يسمى حتى الآن «بالأشياء» بعد تعديله بفضل مفاهيم مفارقة séparées ، بسيطة أو مركبة . وهذا التعديل هو بمثابة مقدمة للمقال العلمي .

إن الفقرة الخاصة بقطعة الشمع في التأمل الثاني هي التي توضح الانتقال المشروع من التاكسينوميا إلى الماتيسيس حسبما يرى فوكوه . إذ عندما يبدأ ديكارت في هذه الفقرة بوصف عدد من الخصائص الملاحظة لقطعة الشمع ، فلاشك أنه بهذا إنما يستخدم مقالا للطبائع المركبة. وتلك الأخيرة لا يتكشف معناها إلا بما لحا من علاقات مع الطبائع البسيطة . ولا شك أن المقال الذي ينصب على هذه الطبائع البسيطة لا يعتمد على الحواس بل على التفكير والعقل. كما أن كينونة التمثل هي المؤسسة لكينونة الإدراك الحسي . فالامتداد بالنسبة لقطعة الشمع هو وحده الذي يبرر الصفات الملاحظة بالإدراك. وهذه الأخيرة لا تصبح ذات قيمة علمية إلا بعلاقتها بمفهوم الامتداد وهو المفهوم الهندسي للمكان . ولقد كان ديكارت يعتبر اللغة مدخلا إلى العلم . يقول ديكارت :

«إن الواجب على من تكون بغيته الارتفاع إلى معرفة  
تجاوز مرتبة العامة أن يتورع عن أن يلتمس في صيغ  
الكلام التي ابتدعتها العامة مظان للشبهات ومواطن  
للشك » (٤١).

---

(٤١) ديكارت : «التأملات في الفلسفة الأولى » ، ترجمة الدكتور عثمان أمين ، ص ١٠٥ .

وهذا يعنى أن لغة العلم إنما تتجاوز صيغ الكلام العادية . إنها لغة جديدة شفافة لا تختلط بلغة الحس ، كما أنها تتضمن في ذاتها معيار يقينها .

غير أننا ينبغي أن نلاحظ مع ميشيل فوكوه أن اللغة عند ديكرارت خاصة وفي العصر الكلاسيكى بوجه عام لا تمثل قطاعاً تاريخياً يسمح بنمط غير محدد من العقل أو التفكير . إنها تمثل بالأحرى «مجالاً للتحليل يتحدد بداخله مسار الزمان والمعرفة الانسانية» (٤٢). وهذا يعنى أننا بصدد مجال مغلق ، يتعذر بسببه نمو المعرفة ، لأنه سيكون علوماً ذات صبغة دوجماتيقية أى ايقانية dogmatiques ، كما ينبثق عنه فلسفة للتمثل تحولت بمضى الوقت إلى فلسفة إسمية nominaliste وشكية sceptique (٤٣). يقول فوكوه :

«إن الاتجاه العلمى فى العصر الكلاسيكى لم يحدث فى تاريخ الفكر أى تغير ، كما أنه لم يصف أى جديد إلى مسار المعرفة» (٤٤).

ولكى يبرر فوكوه هذا الرأى عن حالة العلوم الكلاسيكية ، فإنه يتناول بالدراسة ثلاثة منها هى علم النحو العام والتاريخ الطبيعى والاقتصاد . وقد وقع الاختيار عليها لأن التحليل فيها يكون أكثر وضوحاً .

علم النحو العام : La grammaire générale

رأينا فيما تقدم عن العصر الكلاسيكى أن التحليل يرد المعرفة فى هذا

(٤٢) «الكلمات والأشياء» ، ص ١٢٥ .

(٤٣) نفس المرجع ، ص ٨٨ .

(٤٤) نفس المرجع ، ص ١٠٣ .

العصر إلى نظرية عامة للرموز والتمثل. غير أن تحليل عملية التمثل هو رهن بوجود المقال وتأكيد لكيونته . كما أن اللغة ليست أداة اتصال بين الأفراد فحسب بل هي أيضاً الطريق الذي يؤدي حتماً إلى ربط التمثل بالتفكير . ولهذا فإن علم النحو كان له أهمية كبيرة في الفلسفة خلال العصر الكلاسيكي لأنه أول تحليل متعمد للفكر وأول قطيعة مع المباشر rupture avec l'immédiat . إنه منطقي تلقائي للنفس أو فلسفة تتلاءم معها . بل إن كل فلسفة عاها أن تستند إليه إن أرادت أن تعثر على النظام الضروري والتميز للتمثل (٤٥) .

إن علم النحو العام هو دراسة للنظام اللغوي باعتباره تابعاً لرموز لغوية. وهذا التابع ليس هو ذاته في جميع اللغات ، إذ أن بعضها يضع الحدث في وسط الجملة وأحياناً في آخرها . والبعض يبدأ بالموضوع الرئيسي للتمثل ، أما البعض الآخر فيبدأ بالملايسات الثانوية ... الخ .

ونلاحظ أن علم النحو العام من حيث هو تفكير بنصب على اللغة بوجه عام إنما يظهر علاقة هذه الأخيرة بفكرة العمومية universalité . فاللغة الكلية أو العامة في العصر الكلاسيكي هي اللغة التي يمكنها أن توفر لكل تمثّل ، ولكل عنصر من عناصر التمثّل . الرمز الذي يظهره بطريقة أكيدة . وكان العصر الكلاسيكي يفترض في هذه اللغة القدرة على توفير الرموز المناسبة لكل التمثلات أيا كانت ، وأيضاً إقامة جميع الروابط الممكنة بينها (٤٦) . وحيث أن اللغة يمكنها أن تستوعب جميع التمثلات ، فإنها بحق شرط للعمومية أو للكلّي L'élément de l'universel .

(٤٥) نفس المرجع ، ص ٩٨ .

(٤٦) نفس المرجع ، ص ٩٨ - ١٠٠ .



وقد انتشرت في العصر الكلاسيكي فكرة الإلمام بكل معرفة عن العالم. «  
وذلك لأن الاستمولوجيا الكلاسيكية تعتبر أن الوجود موجود ، دون أن  
لن يكون فيه أى موضع للعدم ، وبالتالي أن في الامكان تمثله ، دون أن  
تكون هذه الامكانية مشوبة بأدنى شائبة ، أو متخللة بأية فجوة ؟ (٤٧) .  
ومن هنا ظهرت دائرة معارف شاملة في القرن الثامن عشر تهدف إلى الكشف  
عن خبايا العالم (٤٨) .

«ولم تكن صفة العمومية في علم النحو العام تعنى اهتمامه بالبحث عن  
قوانين نحوية تطبق على كل الحالات اللغوية وتظهر ، في وحدة مثالية  
وملازمة *contraignante* ، بنية كل لغة ممكنة . إن العمومية في هذا العلم  
إنما تعنى ما يزعجه من قدرة على اظهار الوظيفة التمثيلية للمقال ، تلك الوظيفة  
التي تكمن وراء القواعد النحوية » (٤٩) .

وإذا كان علم النحو العام يدرس الوظيفة التمثيلية للكلمات وعلاقة  
الكلمات بعضها ببعض ، فإنه يقترح أولاً تحليل الرابطة أى دراسة نظرية  
القضية ثم نظرية الفعل *théorie du verbe* ، ثم يقترح ثانياً تحليل الأنماط  
العديدة للكلمات وكيفية التعبير عن التمثيلات (٥٠) . وقد ترتب على ذلك أن  
«بقى «علم النحو العام» - في ظل العصر الكلاسيكي - مجرد «منطق» ، دون  
أن يصبح في وسعه التعرض لدراسة المشكلة الفينومينولوجية الخاصة بالتواصل  
بين اللوات .. كما أنه لم يكن ينطوي على أية دراسة سيكولوجية للغة» (٥١) .  
يقول فوكوه :

(٤٧) زكريا ابراهيم : « مشكلة البنية » ، ص ١٤٨ .

(٤٨) أنشأها دالامير وديدرو (١٧٥١-١٧٧٢) .

(٤٩) «الكلمات والأشياء» ، ص ١٠٦ .

(٥٠) نفس الموضع .

(٥١) زكريا ابراهيم : « مشكلة البنية » ، ص ١٤٥ .

«إن فلاسفة البور روابال قد أتوا بعلم للنحو ليس سوى  
تكملة أو امتداد طبيعي لمنطقهم . فالمنطق وعلم النحو  
عندهم يشتركان في تحليل الرموز» (٥٢) .

L'Histoire naturelle: علم التاريخ الطبيعي

كان فوكوه يحرص على أن يبين أن هناك «وحدة نسقية» مشتركة هي  
التي تجمع بين مختلف العلوم الكلاسيكية . فكما أن علوم اللغة كانت تهتم  
بالنظام الداخلي للكلمات وتنظر إلى الزمان على أنه نمط داخلي للتحليل دون  
أن يكون له أية قوة تاريخية دافعة ، كذلك كان الحال بالنسبة لعلوم الحياة  
فهناك وجود لكائنات حية تظهر من خلال شبكة معرفية كونها علم التاريخ  
الطبيعي ، غير أنه لم يكن هناك قوة تاريخية دافعة تسمح بتطور الكائن الحي . وآية  
ذاتك «أن تاريخ الكائن الحي إن هو إلا تاريخ هذا الكائن ذاته داخل شبكة  
معرفة تربطه بالعالم» (٥٣) .

يقول فوكوه :- .

«إن التطورية l'évolutionnisme لا وجود لها في الفكر  
الكلاسيكي . والسبب في ذلك أن هذا الفكر لم يتصور الزمان  
كمبدأ تطور للتنظيم الداخلي organisation interne  
للكائنات الحية ، بل إنه يعتبره مبدأ لثورة ممكنة في  
المجال المكاني الخارجي الذي تتواجد فيه هذه  
الكائنات» (٥٤) .

(٥٢) «الكلمات والأشياء» ، ص ٩٠ .

(٥٣) نفس المرجع ، ص ١٤١ .

(٥٤) نفس المرجع ، ص ١٦٣ .

وهنا يمكننا أن نلاحظ أن مقال الطبيعة le discours de la nature لا ينفصل عن مجال اللغة والامثال ، وهو ليس سوى اتجاه أساسى للمعرفة الكلاسيكية يرد معرفة الكائنات إلى امكانية تمثيلها فى نسق من الأسماء (٥٥)، ويفترض فيما يفترض وجود التصنيف classification وتحليل العناصر المتطابقة والمتغايرة . كما يمكننا أن نلاحظ كذلك أن مجال الامثال هو الأصل فى الكلام والتصنيف معاً "l'origine du "parler" et du "classer" ، وأن عنصر الاتصال الموجود فى الطبيعة يواكبه فى حالة الامثال اتصال الشعور la continuité de la conscience . ولذا فإن اللغة تفترض اتصالاً أساسياً وموضوعياً كما أن علم التاريخ الطبيعى فى اعداده لقائمة الأنواع والأجناس والفصائل classes يكون لغة يتوقف ظهورها على هذا الاتصال (٥٦).

إن علم التاريخ الطبيعى ليس سوى علم المرقى المنظم وفقاً لبناءات الواقع la science du visible structuré . وهو يهدف إلى البحث عن خصائص مميزة للكائنات دون التعرض لخصائص الحياة . أما أنه لا يتعرض لخصائص الحياة ، فذلك ما يؤكد فوكوه على الرغم مما يدعيه البعض من إمكانية التحدث عما كانت عليه «علوم الحياة» أو «علوم الانسان» فى العصر الكلاسيكى ، إذ يقرر فوكوه بأن الانسان والحياة لم يكونا مجالا لتقائماً لاستئارة فضول المعرفة فى ذلك العصر (٥٧) .

وإذا كانت « تكسينوميا » العصر الكلاسيكى تعرف العضو l'organe استناداً إلى بنائه sa structure ووظيفته sa fonction ، وإذا كان هذا

(٥٥) نفس المرجع ، ص ١٧٠ .

(٥٦) «الكلمات والأشياء» ، ص ١٧٣ .

(٥٧) نفس المرجع ، ص ٨٦ .

التعريف يفترض أولاً التصنيف إلى أنواع وأجناس ثم يهدف إلى رد كل عضو إلى مكانه في التصنيف وإلى مجال استخدامه ، فإن «إبستميه» العصر الحديث سيعلق أهمية كبرى على الوظيفة. ولقد كان هذا الإيداناً بظهور تحول لا يرد «المشاكل» أو «التشابه» *ressemblance* إلى التطابق بل إلى التمثيل *analogie* ، ومثال هذا الأخير وظيفة الخياشيم للتنفس في الماء والرئة للتنفس في الهواء (٥٨). ونلاحظ هنا أن اللغة لم تعد تكفى للإحاطة بالمتغيرات ، وأن المشاهدة أصبحت قاصرة ، لأن التصنيف يعتمد على جانب غير مرئي ، كما نلاحظ أن هذا التحول قد أحل البيولوجيا محل علم التاريخ الطبيعي .

وقد بينت الدراسات في علم البيولوجيا أنه إذا كانت الوظائف لدى الأنواع المختلفة تمثل اتصالاً *continuité* ، وإذا كان هذا هو الحال كذلك بالنسبة للأعضاء من حيث اكتمالها أو قصورها لدى الكائنات ، فإن هذا الاتصال إنما يفتح على مجال لعدم الاتصال . ومثال ذلك عدم وجود صور وسطى للحياة بين الفقرات واللافقرات يمكنها أن تضمن الانتقال أو الاتصال بين فئتها .

وعلى كل حال ، فإن الأفكار البيولوجية الجديدة قد قضت على فكرة الاتصال الكلاسيكية بين الكائن وبين الطبيعة : كما ظهر عدم الاتصال على مستوى الكائنات الحية (٥٩).

### علم الاقتصاد :

يرى فوكوه أنه من المتعذر أن نتحدث عن علم للاقتصاد في العصر

---

(٥٨) نفس المرجع ، ص ١٧٧ .

(٥٩) «الكلمات والأشياء» ، ص ٢٨٤ .

الكلاسيكي ، وذلك لعدم ظهور «مفهوم الانتاج» production خلال تلك الحقبة المعرفية (٦٠).

صحیح أنه قد وجدت مفاهيم «القيمة» valeur و « الثمن » prix و «الفائدة intérêt و «التجارة» commerce ، غير أن هذه المفاهيم يمكن على الأحرى أن تكون علماً «للثروة» richesse وليس «للاقتصاد» .

ويرى الفيزيوقراطيون physiocrates أنه لكي يكون هناك «قيمة» valeur ، و «ثروة» ينبغي أن يكون هناك تبادل échange ينشأ عن الفائض من السلع التي يحتاج إليها آخرون (٦١) . وعلى سبيل المثال فإن الثمار التي نقتطفها والتي نغتنى عليها ما هي الا متاع تقدمه لنا الطبيعة . وهذا المتاع لكي يصبح ثروة لا بد وأن تكون الثمار وفيرة بدرجة تفوق حاجتنا إليها ، ولا بد أن يكون هناك أعيار لا يتفرون عليها فيطلبونها منا . يقول كيناي Quesnay :

«إن الهواء الذي نستنشقه والماء الذي نغترفه من الأنهار وأيضاً كل الإمكانات الطبيعية الوفيرة والتي يشترك في التمتع بها سائر البشر ، لا يمكن أن نسميها ثروات لأنها لا تخضع للتبادل» (٦٢) .

ويظهر مما تقدم أن كيناي واتباعه يحلون الثروات ابتداء من ظهور

(٦٠) «الكلمات والأشياء» ، ص ١٧٧ .

(٦١) نفس المرجع ، ص ٢٠٤ . والمذهب الفيزيوقراطي يترجمه كيناي Quesnay .

(١٦٩٤ - ١٧٧٤) . والفيزيوقراطيون يعتبرون الزراعة مصدراً واحداً للثروة .

(٦٢) Quesnay, article "hommes" (in Daire, Les Physiocrates, (62) P. 41.)

ذكره فوكرو ، نفس المصدر ، ص ٢٠٥ .

التبادل ، أى ابتداء من أشياء ليس لها قيمة ثم تصبح ذات قيمة عندما يمكن مقايضتها بضمن نقلها أو جمعها أو ما تستنفده من جهد في تحولاتها المختلفة. غير أن فوكوه يلاحظ أن الفيزيوقراطيين وهم يبدأون تحليلهم بالشىء الذى تشير إليه القيمة ، والذى كان موجوداً قبل دخوله ضمن نسق الثروة ، إنما يقومون بما يماثل عمل النحويين عندما يشرع أولئك في تحليل أصول الكلمات وما يطرأ على هذه الأصول من تجريدات جعلت منها «أسماء» و «صفات» لغوية. كما يلاحظ فوكوه أيضاً أن الفيزيوقراطى الذى يربط الشىء بالقيمة يماثل النحوى الذى يربط الصوت بالشىء (٦٣) . ولا عجب في ذلك على الإطلاق ، فتحليل الثروات يخضع لما يخضع له التاريخ الطبيعى والنحو العام من «وحدة نسقية».

إن القيمة في «تحليل الثروات» تحتل نفس المكان الذى يحتله البناء structure والوظيفة في التاريخ الطبيعى . (والبناء في علم التاريخ الطبيعى هو انتماء الأعضاء أو الكائنات إلى كل منظم من أنواع وأجناس) . كما أن تصنيف السلع حسب قيمتها وثمنها يماثل تصنيف الكائنات الطبيعية حسب وظائفها وحسب أوصافها . والقيمة هى بداية التبادل ، وهى أيضاً بداية أى نشاط اقتصادى . فإذا كانت أ، ب لهما نفس القيمة . فإن هذا يعنى أن قيمة «أ» التى يمتلكها «الآخر» بالنسبة لاحتياجى إليها هى تماماً كقيمة «ب» التى أمتلكها أنا والتى يحتاج هو إليها .

وهنا يلاحظ فوكوه كذلك أن القيمة تتماثل مع الوظيفة الحملية la fonction attributive ، وهى الوظيفة التى يحققها «الفعل» في علم النحو العام خصوصاً وأن الفعل حينما يظهر القضية فإن ذلك يكون بمثابة العبء الأولى التى تبدأ منها اللغة (٦٤).

(٦٣) «الكلمات والانتبا» ، ص ٢١٥ .

(٦٤) نفس المرجع ، ص ٢١٤ .

وقد ارتبط مفهوم «القيمة» في العصر الكلاسيكي بمفهوم «العمل» عند آدم سميث . فكان يحلل العمل على اعتبار أن له القدرة على إقامة مقياس ثابت يبين قيم الأشياء ، فافترض أن كمية العمل الضرورية لإنتاج شيء ينبغي أن تكون مساوية لكمية العمل التي يمكن لهذا الشيء أن يقايس بها في عملية التبادل (٦٥). وهنا نلاحظ عند سميث بماثلة أو «مطابقة» *identite* بين العمل كنشاط إنتاجي وبين العمل كسلعة يمكن أن تباع وتشتري .

وهنا نصل إلى ختام هذا الجزء عن العصر الكلاسيكي . وقد شغلنا به حيزاً كبيراً في هذا الفصل حتى يتناسب مع كم الموضوعات والتصورات الكلاسيكية التي ناقشناها ميشيل فوكو وتعرض لها بالدراسة والتحليل . وإذا أردنا أن نلخص في كلمات قليلة أهم ما استهدفته الدراسة في هذه المرحلة ، فإننا نستعير نصاً ورد في كتاب «أركيولوجيا المعرفة» وفيه يقول فوكو :

«لم يكن هدفنا أن نبين أن الناس في العصر الكلاسيكي يهتمون بوجه خاص «بالنظام» *l'ordre* أكثر من اهتمامهم بالتاريخ ، وبالتصنيف *classification* أكثر من الصيرورة ، وبالرموز *signes* أكثر من المؤثرات العلية ، بل لقد كان هدفنا هو أن نظهر مجموعاً محدداً من التكوينات المقالية التي يربطها عدد من العلاقات التي يمكن وصفها» (٦٦).

«إبستميه» العصر الحديث : *l'Epistémè moderne*

رأينا في العصر الكلاسيكي أن الطبيعة لا ترى إلا لأنه يمكن التعبير عنها بالقول

(٦٥) نفس المرجع ، ص ٢٦٥ . وآدم سميث هو اقتصادي اسكتلندي (١٧٢٣ - ١٧٩٠).

(٦٦) فوكو : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٠٦ .

La nature est visible parce qu'elle est dicible. فالرؤية واللغة والعقل كانت تجمعها هوية واحدة أو أنها كانت تتطابق إلى حد كبير. غير أنه في أواخر القرن الثامن عشر لا حظنا انتقالاً ملموساً من التمثيل *représentation* إلى التأويل *interprétation* وخضعت الأشياء لقوانين الصبرورة بدلاً من خضوعها لقواعد التصنيف؛ وحلت دراسة الوظائف *fonctions* (في علم البيولوجيا) محل دراسة الصفات *caractères* (في علم التاريخ الطبيعي)؛ وبدأ التساؤل عن الإنتاج *production* محل محل التساؤل عن الثروة *richesse*، وظهر علم فقه اللغة *philologie* على يد جريم *Grimm* وشليجل *Schlegel* وراسك *Rask* وبوب *Bopp* (٦٧)، وأولئك لا يعترفون بتصور اللغة على أنها نسق للتمثيلات يمكن أن يتولد عنه تمثيلات جديدة، بل إن اللغة قد تمحلت على أيديهم إلى كيان مستقل عن الإنسان يبدو وكأنه مجرد وساطة ضرورية *une médiation nécessaire* تضمن إمكانية المعرفة. ولما كان في استقلال اللغة عودة إلى التفسير وظهور النقد *l'exégèse*، فقد نظر فوكوه إلى كتاب «رأس المال» لكارل ماركس على أنه مجرد نقد وتفسير جديد «للقيمة»، كما نظر إلى كل أعمال فرويد على أنها شرح لعبارات غامضة تكثف أقوالنا الظاهرة. وعلى الرغم من أن فوكوه يعتبر أعمال نيتشه علامة كبرى على الفصل بين الإنسان واللغة في القرن التاسع عشر، إلا أنها في نظره مجرد شرح وتأويل لبعض الكتابات الإغريقية. (وكان نيتشه قد توصل في أبحاثه اللغوية إلى فصل الكوجيتو واستبعاد

- 
- (٦٧) = جريم *Grimm* مؤسس علم فقه اللغة بألمانيا (١٧٨٥ - ١٨٦٣).  
 = بوب *Bopp* عالم لغة ألماني، مؤلف علم النحو المقارن (١٧٩١-١٨٦٧).  
 = راسك *Rask* عالم لغة دانماركي، ألف أول «قواعد نحو» للغة الأيسلندية *l'islandais*، وأثبت القرابة بين هذه اللغة وبين اللغة السلافية واليونانية واللاتينية (١٧٨٧ - ١٨٣٢).  
 = شليجل *Schlegel* عالم لغة، وناقد أدبي ألماني (١٧٦٧-١٨٤٥).



الذات ، وهو لهذا اتهم باللاشيئية الهدامة *le nihilisme destructeur* . ويرى فوكوه أن نيتشه لم يفعل سوى الكشف عن اللاشيئية المستترة في لغة العصر الكلاسيكي . وعلى سبيل المثال لا حظ نيتشه أن إفراط ديكارت في الحذر كثيراً ما ترتب عليه نتائج عكسية . فهو يصادف الشيطان الماكر ويحدده دون أن يستطع الاعتراف به أو إبطال سطوته . وكان نيتشه يعرف اللاشيئية بأنها : عدم وجود الهدف أو تعلل الإجابة عن (لماذا ؟) . وطبقاً لهذا التعريف فإنه يتساءل عن هدف ديكارت من عدم التسليم بوجود الشيطان الماكر أو عدم إبطال سطوته رغم الاعتراف به وتحديدده ؟ . وغياب الهدف هنا يعنى الوقوع في اللاشيئية حسب التعريف السابق .

وعلى هذا ، فإن نيتشه ، في حقيقته التاريخية ، لم يأت إلا ببنى النفي *la négation de la négation* أى أنه دحض لا شيئية العصر الكلاسيكي) .

ومهما يكن من شيء . فإن القارئ لكتابات فوكوه سيدرك العلاقة الخاصة التي تربطه بالفيلسوف نيتشه ، إذ لا شك أن البحث في «جذور الأخلاق» *la généalogie de la morale* عند نيتشه يماثل إلى حد كبير تساؤلات فوكوه عن «أنساق المعرفة» . فقد كان نيتشه يتعرض لمسألة قيمة القيم وأيضاً للظروف الاجتماعية والأوساط الثقافية التي سمحت بتكوينها .

خصائص الحقبة المنطوقية الحديثة :

يرى فوكوه أن الاتجاه المعرفي الجليدي في القرن التاسع عشر قد ارتبط باحياء النزعات الانسانية وأيضاً بظهور أنواع جديدة من «اليوتوبيا» يسميها فوكوه «يوتوبيا الأفل» *les utopies d'achèvement* . وإذا كانت يوتوبيا العصر الكلاسيكي تنضمن نظرة مثالية ، وتفترض تواجد الأشياء في لوحة

منتظمة لا تنفصل فيها عن الامثالات ، فإن يوتوبيا القرن التاسع عشر إنما تنصل بأقول الزمان : فالمعرفة لم تعد تنتظمها جداول أو لوحات ، بل هي تتبع نمط التسلسل l'enchaînement والصيرورة (٦٨) .

ومن ثم ، فقد كانت السمة الأولى التي تميز بها مطلع القرن التاسع عشر هي : — تنهى الوجود البشرى la finitude de l'homme ( في علاقته الوثيقة بالعمل والحياة واللغة) . ذلك أن التمثل قد فقد قدرته على تأسيس الروابط التي يمكنها أن تربط بين عناصره المختلفة ، أى أنه عجز عن تحقيق وظيفته دون الرجوع إلى ملابسات خارجية فحدث القطع coupure . فالإنسان لا يمكنه أن يفكر في ذاته se penser إلا وهو مقود dominé بالعمل والحياة واللغة ، أى أنه يفكر ابتداء مما لديه من معرفة مسبقة عن الإنتاج وعن الكلمات التي يستخدمها وعن الكائن الحى الموجود بداخله (٦٩) . وعلى ذلك ، فإن المعرفة الوضعية « المنتهية » le savoir positif (fini) إنما تؤسس اعتماداً على كائن لا يمكن أن ينفصل عن المعرفة الوضعية ، أى أنه كائن منتهى ( Un être fini ) .

حقيقة أن الإنسان قد حاول أن يتجاوز حدوده بأن يفسر ذاته ابتداء من ميتافيزيقا الحياة أو العمل أو اللغة ، غير أن هذه الميتافيزيقا قد تصدت لها حالة التناهى التي يعيشها الإنسان . ففلسفة الحياة تهتم الميتافيزيقا بأنها ستار من الوهم voile d'illusion ، وفلسفة العمل تعتبرها تفكيراً أيديولوجياً مسبباً للاغتراب aliénation . أما فلسفة اللغة فلإنها تشير

---

(٦٨) «الكلمات والأشياء» ، ص ٢٧٤ . وربما كانت يوتوبيا الأقول هنا تشير إلى النظرة المتشائمة التي ظهرت في أعمال ريكاردو وماركس ونيشة وشوبنهاور .  
(٦٩) «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٢٧ .

اليها باعتبارها عرضاً ثقافياً (٧٠) . ولا شك أن هذا الفشل قد مهد الطريق أمام الأنثروبولوجيا أى مجموع الأبحاث المسماة «بالعلوم الانسانية» .

أما السمة الثانية للاستعداد المعرفى الحديث فهى : الازدواجية التجريبية —

le redoublement de l'empirique dans le transcendantal. « الترانسندنتالية »  
 «بمعنى أن الإنسان يستخرج من الانسان (التجريبى) معرفة بذلك الانسان (الترانسندنتالى) الذى هو شرط لإمكانية كل معرفة ! ولو شئنا أن نعبر عن هذه الثنائية بلغة أخرى ، لكان فى وسعنا أن نقول أن الإنسان قد أصبح لأول مرة — فى تاريخ الفكر البشرى — «موضوعاً» و «ذاتاً» (معاً) لكل تأملاته» (٧١).  
 أى موضوع مدروس وذات دارسة فى نفس الوقت .

يقول فوكوه :

«منذ مائة وخمسين عاماً ونحن نصطدم بألفاظ مثل الملك

الخاضع أو المشاهد المنظور» Souverain soumis,

Spectateur regardé (٧٢).

وهو بذلك يقصد التقابل بين الانسان باعتباره موضوع معرفة أمبيريقية وموضوع معرفة متجاوزة فى نفس الوقت .

وترى الباحثة Jeanne PARAIN-VIAL أن فوكوه هنا ينتقد مذهب

«الفينومينولوجيا» عند هسرل فى محاولته للهرب من الوضعية إلى الترانسندنتالية ،

وهى محاولة فاشلة لأنها تبدأ من تحليل المعاش le vécu (٧٣).

---

(٧٠) نفس المرجع ، ص ٣٢٨ .

(٧١) دكرى ابراهيم : «مشكلة البنية» ، صص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٧٢) «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٢٣ .

Jeanne PARAIN -VIAL : Op. Cit., P. 184.

(٧٣)

— السمة الثالثة هي ظهور فكرة الغير متعقل l'impensé . وهذه  
الفكرة تتضمن الإشارة إلى انسان لم يعد ينظر إليه من خلال شفافية الكوجيتو  
الكلاسيكي ، بل إنسان يكتشفه غموض opacité يحاول الشعور دائماً  
أن ينفذ اليه . إنه انسان يجهل ذاته ، وهذا الجهل بالذات يسير موازياً  
للرغبة في متابعتها والامساك بها .

يقول فوكوه :

«إن الإنسان لم يكن ليتمكن من أن يرسم لذاته حدودها  
كصورة خارجية للاستعداد المعرفي ( الحديث )  
l'épistémè moderne دون أن يكتشف جانباً مظلماً في  
داخله ، متغلغلاً فيه وخارجاً عنه ، ينقاد له ويحتويه  
في نفس الوقت . هو لا وعي أو لا فكر impensée  
(أو سمة ماشئت) . وهو لا يقطن في الانسان كطبيعة  
منطوية على ذاتها أو كنتيجة لتراكم تاريخي . إنه هو  
(الآخر) بالنسبة إلى الانسان» (٧٤).

ويرى فوكوه أن النظرة الأركيولوجية إنما تعتبر الانسان والافكر  
متعاصرين (٧٥) . وهذا يعني أنه يستبعد أى دور للتاريخ ، لأنه يعتبر  
الافكر جزءاً من الطبيعة الانسانية .

ويعلق فرانسوا فال François WAHL على سمة «الاستعداد المعرفي الحديث»  
ويرى أن «الغير متعقل» يمكن أن يقال عن اللا شعور l'inconscient على اعتبار

(٧٤) «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٣٧ .

(٧٥) نفس الموضوع .

أنه توأم الانسان *jumeau de l'homme* أو ظله *son ombre*. وهو غريب عنه وقريب منه في نفس الوقت (٧٦).

إن الأهمية الفريدة لهذا الازدواج تكمن في أنها تغذي الفكرة العامة المسيطرة على الفكر الحديث وهي «فكرة الغيرية» *Altérité* التي ينبغي التوصل إليها داخل ذاتنا. ويرى فوكوه أن الموضوعية الوضعية *l'objectivisme positiviste* قد اقتضت على معالجة هذه الفكرة العامة معالجة سطحية. أما النظرة الأركيولوجية فإنها ترد لهذه الفكرة حجمها الحقيقي على مستوى المعاش *au plan du vécu* وذلك ابتداء من مقال يعبر الذات ويتخطاها في نفس الوقت، وابتداء من تصور جديد لفكر بدون كوجيتو *une pensée sans cogito*، وتاريخ بدون ذاكرة (٧٧).

وقد لاحظ فرانسوا قال أن «الغير متعقل» عند فوكوه يذكرنا بالشيء. في ذاته *l'en-soi* عند هيجل، والاعتراب *aliénation* عند ماركس، والمتضمن *l'implicite* عند هسرل.

— أما عن السمة الرابعة والأخيرة فهي تتلخص في أن لإنسان «الابستميه» الجديد لا يكتشف ذاته إلا متصلة بنسق تاريخي متكامل. فالإنسان يحتل مكاناً في «التطور» البيولوجي كما أن له دوراً في «تطور» الثقافات، وتاريخه يحتل بتاريخ الأشياء. «غير أننا من الممكن — بالرجوع إلى تاريخ الانسان — أن نرتب خبرته بالأشياء وأيضاً كل ما يعرفه بخصوصها، فينتج عن ذلك أنه: إذا كانت كل بداية للإنسان ظهرت في زمن الأشياء،

(76) F. WAHL : Op. Cit., P. 364.

(٧٦)

(77) Ibid., P. 365.

(٧٧)

فإن الزمن الفردى أو الثقافى للانسان le temps individuel ou culturel de l'homme إنما يسمح بتعريف اللحظة التى ظهر فيها وجه الحقيقة لأول مرة بالنسبة لهذه الأشياء « (٧٨) .

وعلى ضوء هذه السمات العامة للحقبة المنطوقية الحديثة يمكننا أن نفهم ظهور علوم مثل الطب النفسى والطب الإكلينيكى والبيولوجيا والاقتصاد وفقه اللغة والعلوم الانسانية .

أما الطب النفسى والطب الاكلينيكى ، فسيختص بهما الفصلان الرابع والخامس .

وأما البيولوجيا والاقتصاد وفقه اللغة والعلوم الانسانية فسيختص بها القسم الأخير من الكتاب .  
ونبدأ بالطب النفسى .

---

(٧٨) «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٤٤ .

# الفصل الرابع

## ظهور الطب النفسى

- ١ - ظاهرة الجنون فى عصر النهضة .
- ٢ - العصر الكلاسيكى :
  - العزل الكبير .
  - الحساسية تجاه الجنون فى العصر الكلاسيكى .
  - العزل والاغتراب .
  - الارتداد إلى الجنون اختيار حر .
  - الجنون ارتداد إلى الطبيعة الحيوانية .
  - الجنون كمرض فى العصر الكلاسيكى .
  - أطباء العصر الكلاسيكى .
- ٣ - ظهور الطب النفسى :
  - الطب النفسى الوضعى .
  - الجنون والمرض العقلى .
- ٤ - الاغتراب والفكر المعاصر .
- ٥ - نتائج الدراسة .





## ظهور الطب النفسى

ذكرنا فى موضع سابق أن «أركيولوجيا المعرفة» قد أرست دعائم منهج جديد فى دراسة الظواهر البشرية .

وكانت الاستمولوجيا فى مطلع القرن العشرين قد تفتحت على شكل «دراسة ثقافية للتاريخ» باعتبار أن التاريخ هو نمط الوجود البشرى وأسلوب وحيه بوجوده . وكان يظن أن مفتاح كل مشكلة «البشرية» إنما يكمن فى فلسفة تكشف «معنى» التاريخ (١). غير أن هذه الدراسة كانت تتطرق لمسائل ميتافيزيقية ، وتدخل بالتالى عنصر الذاتية ، فابتعدت تماماً عن الموضوعية . ولذا فإن المطلب الاستمولوجى الذى تتوخاه الأركيولوجيا الجديدة إنما يقتصر على مجرد «دراسة تاريخية للثقافة» تبرز «وجود اللغة» على أشلاء «اختفاء الذات» ، وتهتم بالكشف عن شروط ظهور أنماط المقال داخل حقب منطقية متغايرة .

ولقد كان ظهور «علم الطب النفسى» فى أوائل القرن التاسع عشر هو نقطة الانطلاق التى انبثق عنها دراسة ظاهرة «الجنون» عند فوكوه كما يقرر هونفسيه (٢). ويرى فوكوه أن هذا العلم لم يكن له نفس المضمون أو نفس التنظيم الداخلى أو نفس الوظيفة العملية لما كان يطلق عليه فى القرن الثامن عشر : «علم الأمراض العصبية» أو «أمراض الرأس» (٣) . وهذا يعنى أن فوكوه لم يلاحظ وجود أى اتصال أو استمرار بين ما كتب فى هذا الموضوع فى القرن الثامن عشر وما كتب عنه فى القرن التاسع عشر . ولما كانت «الأركيولوجيا»

(١) ذكرى إبراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٢٣ .

(٢) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٣٣ .

(٣) نفس الموضع .

تهدف إلى دراسة شروط عدم التجانس المعرفي ، لذاظهر كتاب «تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي» ، وهو يضم جميع الممارسات المقالة التي تلتف حول موضوع «الجنون» ، والتي بدأت منذ القرن السادس عشر واستمرت حتى ظهور علم الطب النفسي في القرن التاسع عشر . وقد بينت هذه الدراسة أن «الجنون» folie لم يكن له نفس المفهوم في القرن السادس عشر وفي العصر الكلاسيكي وفي العصر الحديث ، وذلك لأنه قد تعرض لنفس حالات القطع التي تعرضت لها بقية عناصر الثقافة في تلك الحقب المنطوقية .

### أولا : عصر النهضة :

يرى فوكوه أن «الجنون» قد دخل عالم المقال في عصر النهضة مع ظهور كتابات كل من برانت Brant وإراسم Erasmus (٤) . ففي هذه الكتابات نجد اهتماماً بتلك الخبرة المأساوية (الجنون) ، كما نجد مواجهة بينها وبين الوعي الناقد la conscience critique . ويرى فوكوه أيضاً أنه بفضل التفكير الديني المسيحي في ذلك العصر لم يعد هناك وجود للجنون إلا بالقياس إلى العقل . فقد كان العقل هو المجال الذي يتحدد بداخله معنى الجنون . والدليل على ذلك ما لاحظته شارون Pierre CHARRON في القرن السادس عشر من «وجود تقارب كبير بين الحكمة والجنون ، تشهد عليه

---

(٤) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، صص ٣٩ - ٤٠ .

Michel Foucault : "Histoire de la folie à l'âge classique", (Plon, 1961), PP. 39 — 40.

«برانت» هو شاعر فرنسي ، ولد في ستراسبورج (١٤٥٨ - ١٥٢١) .

«إراسم» مفكر فرنسي ، صاحب نزعة إنسانية (١٤٦٩-١٥٣٦) .

أفعال الخجل من البشر (٥) . وأيضاً ما قرره إراسم Erasmus من أن  
«المدخل إلى الحكمة لا بد وأن يمر بالجنون» (٦) .

وكان مونتني Montaigne فيلسوف عصر النهضة قد قام بزيارة  
للشاعر الايطالى الشهير تاس Tasse ، وكان هذا الأخير يهذى ، فخرج مونتني  
بتساؤلات عن مدى اقتراب العقل من الجنون ، يقول مونتني :  
«إن تاس من أنبغ الشعراء الايطاليين وأكثرهم  
موهبة ، فما السبب الذى جعله يتردى إلى هذه الحالة ؟  
أليس وضوح العقل عنده ، وما لديه من قدرات  
تنظيمية خاصة هو الذى تسبب فى غياب العقل ؟....  
أليست هذه القدرات النفسية النادرة هى التى تركته  
بلائفس ؟» (٧) .

ونلاحظ هنا أننا بصدد الكشف عن جنون حال بالعقل une folie  
immanente à la raison . فحقيقة الجنون إنما تكون شيئاً واحداً أو  
وحدة متكاملة مع انتصار العقل وسيادته المطلقة .  
يقول فوكوه :

(٥) Pierre CHARRON : "De la sagesse" (livre 1er chap. XV, (٥)  
éd. Amaury Duval, 1827, t. I), P. 130.

ذكره فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٤٥ .  
- وشارون هو أخلاقى فرنسى ، ولد فى باريس (١٥٤١-١٦٠٣) . وهو صاحب «رسالة  
فى الحكمة» تعتبر مجرد ترديد لأفكار مونتني .  
(٦) ذكره فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٤٥ .  
Montaigne, "Essais" (liv. 11, chap. XII, éd. Garnier, t. II), (٧)  
P. 256.

ذكره فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٤٦ .  
- مونتني هو فيلسوف أخلاقى فرنسى (١٥٣٣ - ١٥٩٢) .

«إذا جاء الجنون ليتوج مجهود العقل فذلك لأنه  
يكون جزءاً من هذا المجهود (٨).

وقد ظهر إلى جانب هذه النظرة للجنون باعتباره جزءاً من طبيعة  
العقل ذاته ، اتجاه فكري متشائم يربط بين الجنون وبين عالم آخر فائق  
للطبيعة . وقد تزعم هذا الاتجاه جيروم بوش Jérôme Bosch وأستاش  
ديشامب Eustache deschamps وكلاهما يرى أن ظاهرة الجنون  
مثيرة للقلق وانتشارها يبشر بتناهي الوجود البشري ويهدد بالفناء (٩) .

وعلى الرغم من أن «الجنون» في عصر النهضة كان إما مسبباً للقلق أو مهدداً  
بالفناء ، إلا أنه كظاهرة بشرية ، كان مألوفاً لدى مجتمعات عصر النهضة  
وأيضاً في الكتابات الأدبية عند أمثال سرفانتيس Cervantes وشكسبير Shakespeare.  
وهذا ما يعبر عنه فوكوه بقوله: «إن عصر النهضة قد حرر صوت الجنون» (١٠).

ثانياً : العصر الكلاسيكي :

إذا كان عصر النهضة قد حرر صوت الجنون ، فإن العصر الكلاسيكي  
قد ارتد به إلى الصمت .

العزل الكبير : Le grand renferment

شهد القرن السابع عشر بيوتاً واسعة للعزل internement . ففي سنة

١١ . (٨) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٤٦ .

(٩) المرجع السابق . ص ص ٢٦-٣٢ .

- جيروم بوش ، رسام هولندي (١٤٥٠-١٥١٦) .

- إيتاش دي شاب ، شاعر فرنسي (١٣٤٦ - ١٤٠٦) .

(١٠) نفس المرجع ، ص ٥٦ .

= سرفانتيس ، شاعر إسباني (١٥٤٧-١٦١٦) ، وهو صاحب رواية دون كيشوت  
الشهيرة .

- شكسبير ، من أكبر شعراء إنجلترا (١٥٦٤ - ١٦١٦) .

١٦٥٦ صدر في فرنسا مرسوم ملكي بتأسيس «المستشفى العام» في باريس . وكان يدخل هذا المستشفى كل من يتقدم من تلقاء نفسه أو من كانت ترسله السلطات الملكية أو القضائية . أما المسؤولون عن هذا المستشفى ، فقد كانت لهم سلطات إدارية وبوليسية وقضائية تمتد إلى خارجها ، كما كان لهم سلطة توقيع جزاءات على جميع فقراء باريس خارج أو داخل المستشفى . ويظهر إذن أن هذا المستشفى لم يكن مؤسسة علاجية فقط ، لأنه كان يقرر ويصدر أحكاماً وينفذها دون المرور بالمحاكم . وباختصار فقد كان هذا المستشفى بمثابة تنظيم للقمع ، كما كانت فكرة انشائه أقرب لتحقيق أهداف ملكية وبورجوازية منها لتحقيق أى هدف علاجي .

وفي عهد الحكم المطلق أيضاً صدر مرسوم ملكي آخر سنة ١٦٧٦ يقضى بإنشاء مستشفى عام في كل مدينة من مدن المملكة الفرنسية . ويبين فوكوه أن «بيوت العزل» لم تكن قاصرة على فرنسا ، بل كانت ظاهرة عامة في أوروبا ارتبطت بالحكم المطلق وبمناهضة حركة الإصلاح الديني - la contre-Réforme . وهو يذكر أمثلة «للبوت» التي ظهرت في ألمانيا وإنجلترا وهولندا وإيطاليا وإسبانيا . كما يذكر تواريخ إنشائها في القرن السابع عشر والثامن عشر (١١) .

ولكي يبين فوكوه خطورة «بيوت العزل» هذه ، يذكر أنه بعد سنوات قليلة من إنشاء المستشفى العام بباريس ، امتلأ بأكثر من ستة آلاف شخصاً أى ما يقرب من ١٪ من سكان العاصمة وفي هذا المستشفى كانت السلطات تقوم بعزل المجانين إلى جانب المتسولين والعاطلين والمعاقين والمحكوم عليهم

---

(١١) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٦٠ - ٦٥ .

تعسفياً بالسجن ، ولم يعرف إلى الآن سبب جمعهم سوياً (١٢) .  
ولقد ارتبط «الجنون» بأرض العزل إذن منذ منتصف القرن السابع عشر  
وعلى مدى قرن ونصف . يقول اسكيرول Esquirol :  
«رأيت هؤلاء المخبولين عراة تغطيهم أسمال بالية ،  
وينامون على القش الرطب . وكانوا محرومين من  
استنشاق الهواء النقي ، ومحرومين أيضاً من ضروريات  
الحياة ، كما كانوا يستسلمون لحراس غلاظ القلب» (١٣).  
كيف يمكن أن نفسر انتشار ظاهرة العزل الكبير ؟ . لقد كان المؤرخ  
العادي يفسر انتشار هذه الظاهرة في جميع أرجاء أوروبا طوال العصر الكلاسيكي  
تفسيراً غامضاً ، ويصرح بأنها كانت نتيجة حساسية عامة سبقت الثورات  
Sensibilité pré-révolutionnaire (١٤) .

ويرى فوكوه أن انتشار العزل بهذه السرعة وبأكثر مما كان عليه عزل  
المصابين بالبرص la lèpre في العصور الوسطى لا يمكن أن يفسر هذا التفسير  
الساذج . ذلك أن عزل المصابين بالبرص لم يكن يحمل سوى المعنى الطبي ،  
أما العزل الذي مارسه العصر الكلاسيكي ، فقد كان يحمل معنى سياسياً  
واقتصادياً واجتماعياً ودينياً وأخلاقياً . هذا بالإضافة إلى القول «بحساسية عامة»  
لابد وأن يفترض أن هذه الحساسية قد تكونت لا شعورياً على مدى سنوات

---

(١٢) نفس المرجع ، ص ٥٩ .  
(١٣) Esquirol, Des établissements consacrés aux aliénés en France (١٨١٨) in Des maladies mentales, Paris, 1838, t. II, 134.

ذكره فوكو ، نفس المرجع ، ص ٦٠  
- اسكيرول هو طبيب فرنسي ولد في تولوز (١٧٧٢ - ١٨٤٠).  
(١٤) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٦٦ .

عديدة في الثقافة الأوروبية ، ثم أطلعت علينا فجأة في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، فجمعت هذا الخليط الغريب من البشر وراء نفس الأسوار التي عزلت المصابين بالبرص (١٥).

يقول فوكوه :

«إن ما يبدو أماناً على أنه حساسية غير محددة المعالم  
sensibilité indifférenciée كان لدى الكلاسيكيين  
بمثابة إدراك واضح المعالم  
une perception clairement articulée (١٦).

ينبغي علينا إذن أن نسأل عن نمط الإدراك هذا لكي نعرف صورة الحساسية تجاه الجنون في عصر تعودنا أن نسميه عصر العقل . ولنعلم مقدماً أن جميع من شملهم العزل في العصر الكلاسيكي كانت توجه لهم تهمة واحدة هي<sup>٦</sup> الجنون .

الحساسية تجاه الجنون في العصر الكلاسيكي :

إذا أردنا التنقيب عن هذه الحساسية في العصر الكلاسيكي ينبغي أن نلجأ أولاً إلى عالم المقال . ولقد كانت «التأملات الديكارتية» باعتبارها «مقال العقل» تنظر إلى «مقال الجنون» على أنه مختلف عنها في الطبيعة تماماً.

يقول ديكارت في التأمل الأول :

«كيف أستطيع أن أنكر أن هاتين اليدين يداي  
وهذا الجسم جسمي ، اللهم إلا إذا أصبحت مثيلاً  
لبعض الخبولين الذين اختلت أذهانهم وغشى عليها

(١٥) نفس الموضع.

(١٦) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٧٦ .

بسبب الأبخرة السوداء التي تصعد من المرة (أو الصفراء) ،  
فما ينفكون يؤكدون أنهم ملوك ، في حين أنهم فقراء  
جداً ، وأهم يلبسون ثياباً موشاة بالذهب والأرجوان ،  
في حين أنهم في غاية العري ، أو يتخيلون أنهم جراراً أو  
لهم أجساماً من زجاج ! ألا لهم مجانين ، ولن أكون  
أنا أقل منهم إسرافاً وخبلاً إذا اقتديت بهم ونسجت  
على منوالهم « (١٧) .

ومن هذا النص يتضح أن مسيرة الشك الديكارتي قد أدت بالفيلسوف  
إلى مواجهة مع «الجنون» إلى جانب خداع الحواس والحلم والشيطان الماكر  
وغير ذلك من أسباب الخطأ .

أما الحواس ، فعلى الرغم من أنها خادعة . إلا أنها تترك رغباً عنها  
بقية من حقيقة *un résidu de vérité* : «لا نستطيع أن نشك فيها شكاً يقبله العقل ...  
مثال ذلك أني ها هنا جالس قرب النار ، لابس عباءة المنزل ، وهذه الورقة  
بين يدي » (١٨) .

وأما الحلم فإنه من الممكن أن يفعل ما يفعله المصورون ، فهؤلاء  
يمكنهم أن يبدلوا «ما أوتوا من مهارة في تمثيل بنات البحر والتيوس الآدمية  
في أشكال هي غاية في الغرابة والبعد عن المألوف» (١٩) . غير أن الحلم  
لا يمكنه أن يخلق أو يكون أشياء غاية في البساطة والعمومية هي التي تضمن

---

(١٧) ديكارت : «التأملات في الفلسفة الأولى» ، ترجمة الدكتور عثمان أمين ،

ص ٧١ .

(١٨) نفس الموضع .

(١٩) نفس المرجع السابق ، ص ٧٣ .



إمكانية الصور الخيالية « مثل الطبيعة الجسمانية على العموم وامتدادها » .  
كما أنه لا يمكنه أن يشك في هذه الطبائع البسيطة .

أما بالنسبة للجنون . فالأمر على عكس ذلك تماماً ، لأن المخاطر التي  
تهدد المسيرة إلى اليقين إذا زالت فليس ذلك لأن شيئاً مالا يمكن أن  
يكون زيفاً بل لأننى «أنا الذى أفكر لا يمكن أن أكون مجنوناً» *moi qui pense, je ne peut pas être fou.* فعندما أعتقد أن لى جسداً ، هل أكون متأكداً من  
امتلاكى للحقيقة أكثر ثباتاً ممن يتخيلون أن لهم جسداً من زجاج ؟ . نعم  
بالتأكيد وذلك «لأنهم مجانين ، ولن أكون أنا أقل منهم إسرافاً وخبلاً إذا  
اقتاديت بهم ونسجت على منوالهم » :

ويمكننا بناء على ما تقدم أن نؤكد على الحقائق التالية :

أولاً : إن استخدام العقل يستبعد خطر الجنون . ويترتب على ذلك  
أن الذى اندرف إلى الجنون إنما ينحرف باختياره أو لأن له طبيعة أخرى  
تختلف عن طبيعة الانسان الذى يفكر . وهذه النظرة هى التى سادت طوال  
العصر الكلاسيكى كما سيأتى بيانه ، وربما كانت هى المبرر لتوقيع عقوبة  
العزل أو السجن لكل من اتهم بالجنون .

ثانياً : إن «الجنون يتضمن ذاته» (٢٠) *La folie s'implique elle-même* .  
وهو بالتالى يفترق تماماً عن العقل . فمسيحة الشك الديكارتي تشهد بأن القرن  
السابع عشر يستبعد وجود العقل إلى جانب الجنون على الرغم من أن عصر النهضة  
كان يقرب بينهما كما سبق أن رأينا فى تعليق مونتني على حالة الشاعر

---

(٢٠) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٥٨ .

الايطالى تاس Tasse والذى يفيد «بأن العقل يقترب كثيراً من الجنون عندما يكون قد توصل إلى أسنى انجازاته » .

ثالثاً : أن الجنون لا يمكن اعتباره سبباً مؤدياً إلى الشك ، لأن العقل ليس معرضاً إلا لخطورة الوقوع فى الخطأ أو الوهم فقط .  
وقد ضمن فوكوه هذه النقاط فى عبارة موجزة يقول فيها :  
«إن الشك الديكارتى إنما يقضى على مباهج الحواس ،  
كما يتجاوز صور الأحلام ، وهو مقود فى ذلك دائماً  
ببريق الأشياء الحقيقية . غير أنه يستبعد الجنون باسم  
الذات التى تشك والى لم يعد بإمكانها الارتداد إلى الجنون  
إلا إذا كان بإمكانها أن تتوقف عن التفكير أو عن الوجود» (٢١).

لقد كانت ممارسة العزل فى العصر الكلاسيكى هى تعبير عن ظهور موقف جديد حيال البؤس بوجه عام ، وكان هذا الموقف الجديد ينبثق عن حركة الإصلاح الدينى فى أوروبا بزعامة مارتن لوثر Luther (١٤٨٣-١٥٤٦)، وكالفن Calvin (١٥٠٩ - ١٥٦٤) . ففى عالم لوثر وكالفن نجد أنه لا ارتباط بين الفاقة والثراء ، وليس هناك حق للفقير على الغنى ، فكلاهما تمتد إليه يد الرعاية الإلهية إن بالزيادة أو بالنقصان . فالله يثيب ويعاقب ، والفقير لون من ألوان العقاب . وقد أدت حركة الإصلاح الدينى فى النهاية إلى علمانية الأعمال une laicisation des oeuvres . وهذا يعنى أن أعمال الخير لا علاقة لها بالتقرب إلى الله ، وعلى الدولة أن تطلع برعاية الفقراء والعجزة . ومن الممكن صياغة الحساسية الجديدة حيال البؤس على النحو التالى : على الإنسان

---

(٢١) نفس الموضوع .

أن يؤدي واجباته حيال المجتمع ، أما البؤس فقد جاء نتيجة لعدم النظام وهو عقبة كؤود أمام النظام . ولم تقتصر هذه المفاهيم على الكنيسة البروتستنتية بل تعدتها تدريجياً إلى العالم الكاثوليكي (٢٢).

كانت هذه هي أولى الحلقات التي ستحكم الحصار حول الجنون في العصر الكلاسيكي . فإذا كان العصر الوسيط قد أضفى جانباً من القداسة على المجانين ، فذلك لأنهم يشتركون مع البؤساء فيما لديهم من قوى غامضة. أما في العصر الكلاسيكي ، فقد ظهر المجنون على قاعدة بوليسية تختص بحفظ النظام داخل المدينة شأنه في ذلك شأن البؤساء والفضالين الذين يضمهم المستشفى العام (٢٣).

ولقد كانت الأزمة الاقتصادية التي أصابت العالم الغربي كله في القرن السابع عشر من الأسباب التي حتمت العزل . فهو يضمن امتصاص العاطلين وحماية المجتمع من الاضطراب والثورات ، خصوصاً إذا علمنا أنه في الوقت الذي كان فيه سكان باريس أقل من مائة ألف نسمة ، كان عدد المتسولين فيها أكثر من ثلاثين ألفاً (٢٤).

ويرى فوكوه أن أهم ما نجحت «بيوت العزل» في تحقيقه هو أنها قد حولت وجوها ألفها المجتمع إلى أشكال غريبة لم يعد يعترف بها لإنسان ، وحالت بالتالي بين الانسان وبين جزء منه ، ثم ابتعدت بهذا الجزء إلى آفاق بعيدة. لقد كان هذا العزل هو خالق الاغتراب Ce geste aoté créateur d'aliénation

(٢٢) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ص ٦٨-٦٩ .

(٢٣) نفس المرجع ، ص ٧٤ .

(٢٤) نفس المرجع ، ص ص ٧٦ - ٧٩ .

وعلى هذا ، فإن من يؤرخ لمسألة العزل هذه إنما يقوم بدراسة  
أركيولوجية للاغتراب .

### العزل والاغتراب :

يرى فوكوه أن العزل l'internement الذى عرف بدوره السلبي وهو  
استبعاد فريق من الناس exclusion . له أيضاً دور إيجابي هو التنظيم  
organisation . ذلك أنه قد أوجد تقارباً بين فئات من الأشخاص والقيم  
لم يكن للثقافات السابقة أن تدرك بينها أى تشابه . ثم جعل هذه الفئات تنزلق  
تدرجياً نحو الجنون ، ممهداً بذلك لتجربتنا نحن . وهى التجربة التى تتكامل  
فيها هذه الفئات فى نطاق انسابها إلى الاغتراب العقلي l'aliénation mentale  
ولكى يتم هذا التقارب كان لابد من إعادة تقييم لعالم الأخلاق ، وتحديد  
جديد لقيم الخير والشر — المستحب منها والمستهجى ، ثم إقامة معايير جديدة  
للتكامل الاجتماعى . ولم يكن العزل شيئاً آخر سوى التعبير عن كل هذا  
التغير الذى ميز ثقافة العصر الكلاسيكى (٢٥).

وسنبداً فى هذا الجزء بذكر أمثلة لتلك الفئات التى طبق عليها العزل .

ذكر فوكوه أن المصابين بأمراض سرية كانوا يقبلون فى المستشفى العام  
بعد المرور ببعض الاجراءات . وذكر أن أهم هذه الاجراءات هى أن  
يسددوا ما عليهم من دين أولاً للاخلاق العامة ، أى أن يمروا بطريق العقوبة  
والتوبة بأن يضربوا بالسياط قبل أن يتقرر قبولهم.

ولاحظ فوكوه أن علاج الأمراض السرية باستخدام معدن الزئبق كان

---

(٢٥) ميشيل فوكوه : «تاريخ الجنون » ، ص ٩٦ .

يعنى استخدام علاج ضد المرض وضد الصحة في نفس الوقت. إذ لا مانع من علاج المرض، غير أنه لا بد من انهاء الصحة التي تمهد لارتكاب الخطيئة (٢٦).

لقد وضع المصابون بالجنون إلى جانب المصابين بأمراض سرية قراب مائة وخمسين عاماً داخل «بيوت العزل». وربما ظهر أثر ذلك فيما بعد كما يلي :

نلاحظ أولاً أن الفكر الحديث لا يعدم القرابة بين الفئتين ، إذ أنه قد يخصص لهما نفس المصير ونفس العقاب .

ونلاحظ أيضاً أن الفكرة التي تتضمن علاج الجسد وعقابه في نفس الوقت ربما كانت أساساً لفهم العلاج الذي طبق على الجنون في القرن التاسع عشر .

ونلاحظ كذلك أن وضع الجنون إلى جانب الخطيئة قد يكون هو السبب في الجمع بين العته *la déraison* وبين الاستئذان *la culpabilité* ، أو النظر إلى الجنون على أنه مذهب . وهي صفة تلحق بالجنون حتى أيامنا هذه ويعتبرها الطبيب حقيقة طبيعية .

وهكذا خلقت روابط غامضة لم تمحها السنون رغم مرور أكثر من مائة عام على ظهور «الطب العقلي الوضعي» *La psychiatrie dite "positive"* .

ويرى فوكوه أن ما ينبغي أن نبحث عنه بعمق إنما هو دهاء العقل الطبي الذي يعالج ويعاقب في نفس الوقت ، خصوصاً وأنه قد سمح بهذا الخلط بين العلاج والعقاب في عصر سمي «بعصر العقل» . غير أن فوكوه قد وجد تفسيراً لذلك في عبارة لأحد المشاهير من قساوسة العصر الكلاسيكي هو سان

---

(٢٦) نفس المرجع ، صص ٩٧-٩٩ .

فانسن دى بول St. Vincent de Paul (١٥٨١ - ١٦٦٠). تقول العبارة «إن العقوبة الدنيوية تعفى الانسان من عقاب الآخرة» (٢٧).

ونلاحظ بهذا الصدد أنه إذا كانت « القراية » بين الطب والأجلاق هي فكرة قديمة قدم الطب الإغريقي، فإن القرن السابع عشر مقترنا بمنطق العقل المسيحي قد طبع هذه الفكرة في مؤسساته بطابع هو أبعد ما يكون عن الإغريق لأنه يعتمد على القسر والعنف .

ومن الفئات التي كان يطبق عليها العزل أيضاً عند الكلاسيكيين جميع الأشخاص الذين لا يحافظون على روابطهم الأسرية . فقد شهد العصر الكلاسيكي بأن حياة الأسرة هي الفصيل بين العقل والجنون . ذلك لأن في الأسرة وبالأسرة يوجد العقل ، وبدونها يتعرض الانسان للإصابة بالجنون . ألم تقل مدام جوردان لزوجها (في إحدى مسرحيات موليير) : «إنك يازوجي مصاب بالجنون بسبب اتباعك للأهواء» (٢٨) ؟ ألم يصرح بلزاك في إحدى رواياته بأن الماركيز ديسبارت La Marquise d'Espart طلبت توقيع عقوبة «العزل» على زوجها بسبب شواهد تدل على أن له علاقات ضد مصالح الأسرة ؟ «ألم يفقد هذا الزوج عقله في نظر القانون ؟» (٢٩).

ويرى فوكوه أنه في بداية القرن الثامن عشر شهدت «بيوت العزل» في فرنسا حالة سيدة في السابعة عشرة من عمرها تسمى مدام بودوان Mme-Beaudoin

(٢٧) نفس المرجع ، ص ١٠١ .

(28) Molière : "Le Bourgeois Gentilhomme". (٢٨)

- موليير مؤلف مسرحي فرنسي (١٦٢٢ - ١٦٧٣).

(29) Balzac, "L'interdiction". La Comédie humaine, éd. Conard, (٢٩) t. VII. PP. 135.

- بلزاك مؤلف روائي فرنسي ، ولد في مدينة تور (١٧٩٩ - ١٨٥٠).

أنهت بأنهما لم تعد تحب زوجها ، وكانت تعلن تمردها على أى قانون يجبرها على أن تعيش معه ، «فكل انسان حرقى أن يعطى قلبه وجسده لمن يشاء ، والجريمة الحقيقية هى أن يعطى أحدهما دون الآخر .» ورغم أن المحقق المختص قد أبدى دهشته لقوة الحججة التى ترددها المرأة ، إلا أن هذا لم يكن كافياً لتخليصها من العزل ضمن سائر الخليل» (٣٠) ومن هذه الحالة يتبين لنا أن العصر الكلاسيكى وهو «عصر العقل» يمكنه أن يتصور حالة جنون لا يكون فيها العقل مضطرباً ! .

وفى نهاية القرن الثامن عشر، صدر مرسوم ملكى فى فرنسا (سنة ١٧٨٤)، يعتبر الصراع بين الفرد وأسرته من الشئون الخاصة . وابتداء من هذا التاريخ وطوال القرن التاسع عشر اعتبر هذا الصراع مسألة سيكولوجية ، بعد أن كان طوال فترة «العزل» من الأمور التى تهدد النظام العام l'ordre public والأخلاق العامة .

ونلاحظ مما تقدم أن العصر الكلاسيكى قد قام بثورة أخلاقية عندما أدخل ضمن مفهوم «الجنون» مجموعة خبرات كانت لمدة طويلة منفصلة عن بعضها البعض مثل الأمراض السرية والدعارة والخيانة الزوجية والجنسية المثلية. ذلك أن الأمراض السرية كان ينظر إليها فى بداية عصر النهضة كما ينظر إلى الطاعون أو الجوع أو غير ذلك من الكوارث التى تعتبر عقاباً عاماً أرسلته السماء لا يهدف إلى مجازاة أى خروج معين على الأخلاق (٣١) ، أما الجنسية المثلية ، فقد أعطتها «النهضة» حرية التعبير تم اكتنفها الصمت ودخلت ضمن المنوعات فى العصر الكلاسيكى (٣٢).

(٣٠) راجع : ميشيل فوكو : «تاريخ الجنون» : ص ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٣١) نفس المرجع ، ص ٦٨ .

(٣٢) نفس المرجع ، ص ص ١٠٢ - ١٠٣ .

ولقد ترتب على هذه الثورة الأخلاقية في مجال الجنس وما تبع ذلك من تطبيق «العزل» وانزلاق نحو «الجنون» أن نسجت روابط جديدة بين الحب والجنون مازلنا نلمس أثرها حتى اليوم . بل إن فوكوه لا يزال عندما يقرر بأن «معرفتنا العلمية والطبية للجنون إنما ترسو على قاعدة سابقة من الخبرة الأخلاقية للجنون» (٣٣).

لقد حكم العصر الكلاسيكي بالعزل أيضاً على الفئات التي كانت تستهين بالديانة وبالمتدسات . ويرى فوكوه أن العصر الكلاسيكي لم يكن يميز فعلاً بين هذه الفئات وبين جميع الفئات الأخرى التي سبق ذكرها ، فكلها تستوجب «العزل» وكلها متهمة بالجنون .

ففي سنة ١٧٠٤ حبس قسيس يسمى بارجيديه Bargedé له من العمر سبعون عاماً . وجاء في التقرير المصاحب لقرار الحبس : «يعزل مثل بقية المجانين ، وذلك لأن شغاه الوحيد كان ينحصر في اقراض النقود مقابل فوائد كبيرة مما لا يتناسب مع مكانة رجل الدين » . وهنا نلاحظ أن بارجيديه إنسان خبل *insensé* لأنه فقد استخدام العقل ، بل لأنه يمارس الربا *usure* الذي يتناقض مع تعاليم الكنيسة (٣٤) .

وعثر فوكوه في «أرشيف» سجن الباستيل على حالة «الكونت» المسمى دوسلن Doncelin . وكان دوسلن قد وضع في سجن الباستيل لادعائه بأنه الوارث الشرعي للعرش . كما كان يؤكد بأن القديسة مريم المندراء تظهر له مرة كل ثمانية أيام ، وأن الله يحدثه من حين لآخر وجها لوجه . وقد جاء بالتقرير المرافق للسجين ما يلي :

(٣٣) نفس المرجع ، ص ١٠٦ .

(٣٤) نفس المرجع ، ص ١٥١ .



« نرى أن يحبس هذا السجين في المستشفى طوال حياته لأنه من الخبل الذين لا يرجى لهم شفاء ، أو أن ينسى داخل سجن الباستيل باعتباره من المجرمين الخطرين ؛ وربما كان الحل الثاني هو الأكثر ملاءمة لهذه الحالة » (٣٥).

ويتبين لنا من المثالين السابقين أن إدراك العصر الكلاسيكي يسجل تطابقاً بين الجنون والخطيئة أو الجريمة .

الارتداد إلى الجنون اختيار حر :

ويؤى فوكوه أن العصر الكلاسيكي في رفضه للجنون بأشكاله إنما يكشف عن ضمير أخلاقي معين *Une conscience éthique* . كما يرى أن عدم الاهتمام بالتمييز الدقيق بين الخطيئة والجنون إنما يشير إلى منطقة أكثر عمقاً داخل هذا الضمير ، تكاد تجعل الفصل بين (العقل والجنون) قائماً على أساس من الإرادة والمسئولية الشخصية للفرد . وإذا كان العصر الكلاسيكي لم يعبر عن ذلك صراحة أثناء ممارسة العزل وتبريره ، إلا أنه من الممكن الكشف عن طبيعة هذا الضمير من خلال التفكير الفلسفي في ذلك العصر .

ولقد رأينا في موضع سابق (٣٦) أن مسيرة الشك الديكارتي نحو اليقين لم تتأثر إطلاقاً بالجنون . والسبب في ذلك هو أنه كان حاضراً دائماً ومستبعداً دائماً في نفس الوقت بفضل إرادة الشك ذاتها . فهناك اغراء مستمر بالنوم والاستسلام للخزعبلات يهدد العقل. غير أن هذا الاغراء تستبعده الإرادة التي ترنو نحو اكتشاف الحقيقة (٣٧) كما رأينا في نفس الموضع أيضاً أن الشك

(٣٥) نفس المرجع ، ص ١٥٢ .

(٣٦) ص ١١٩ - ١٢٢ .

(٣٧) التأمل الديكارتي الأول ، الفترة الأخيرة .

المنهجى الديكارتي هو شك ارادى ، يتضمن وجود الذات المفكرة ،  
ويستبعد بالتالى الانزلاق فى الجنون .

ونجد عند سينيوزا أن الحرية هى ضرورة من ضرورات العقل ، تفترض  
مجالا للاختيار يمتد عبر التفكير ، وهى فى النهاية ليست سوى مبادأة العقل  
ذاته . والعقل لا تعارض مع الأخلاق باعتبارها مجموعة قوانين أخلاقية ، لأن  
هذه الأخيرة اختيار ضد «الجنون» (٣٨) . الحرية إذن هى «حرية الحكيم  
الذى يحسن استخدام العقل» La «liberté du sage» . فالإنسان الحر هو الذى  
يعيش تحت قيادة العقل بعد أن يتخلص من الأحكام السابقة والانفعالات  
العمياء وكل ما هو غير انساني فى الإنسان (٣٩) . وهذا يعنى أن الاستخدام  
الكامل للعقل لا يكون إلا بالاستبعاد الكلى للجنون .

غير أن الإنسان من الممكن أن يتردى فى الجنون بفعل الحرية . فالجنون  
هو البديل المضاد لاختبار يمكن الإنسان من الممارسة الحرة لطبيعته العقلية ،  
ولهذا فقد نظر إلى الجنون نظرة غير انسانية . والتردى فى الجنون هنا لا يشير  
اطلاقاً إلى اختلال فى العقل بقدر ما يشير إلى منطقة تكشف عن الوجه الحقيقى  
للإنسان بفعل الحرية (٤٠) .

ويتضح مما تقدم أن العقل فى العصر الكلاسيكى ينبثق عن مجال  
الأخلاق la raison prend naissance dans l' espace de l'éthique . ومن  
ثم فإن الاغتراب العقلى يستوجب العقاب .

(٣٨) فوكو : «تاريخ الجنون» ، ص ١٥٨ .

(٣٩) André VERGEZ : "La Philosophie en 60 chapitres," (39)  
(Fernand Nathan, Paris 1965), P. 151.

(٤٠) فوكو : «تاريخ الجنون» ، ص ١٥٨ .

## الجنون ارتداد إلى الطبيعة الحيوانية :

والجنون مجرد الانسان من إنسانيته ، ويجعله على علاقة مباشرة بالجانب الحيواني فيه . وقد أورد فوكوه من نصوص العصر الكلاسيكي ما يؤيد هذه النظرة (٤١).

وإذا كان ظهور الدوافع الحيوانية سافرة (في العصر الحديث) دليلاً على الإصابة بالمرض العقلي، فإن ظهورها في العصر الكلاسيكي كان علامة على أن المجنون ليس مريضاً. فهذه الدوافع الحيوانية تكسبه صلابة، وتحميه من كل ما يسبب المرض للانسان العادي . فهو محصن ضد الجوع والألم والحر والبرد، وليس هناك ما يدعو للاشفاق عليه أو حمايته . ويترتب على ذلك أن الجنون لا يمكن أن يدخل ضمن اختصاص علم الطب ، كما أنه لا يخضع لحال التقويم والإصلاح ، لأننا بصدد ثورة حيوانية جامحة لا تستجيب إلا للمعاملة الخشنة. وقد أورد فوكوه بياناً تفصيلياً لمؤسسات دينية وتربوية كانت تمارس معاملة خشنة ضد المجانين في العصر الكلاسيكي لأنها ظنت أن هذه المعاملة هي العلاج الأوحـد (٤٢) . وهي لا تخلص المجنون من طغيان حيوانيته بل تخلصه مما تبقى من إنسانيته وذلك باستبعاد أى معاملة إنسانية لم تعد تليق به ! فالإصابة بالجنون إنما «تضع حداً للحياة الانسانية» (٤٣) .

إن «العزل الكبير» لم يتم في فترة توقف فيها العلاج الطبي أو تخلفت عنها الأفكار الانسانية Les idées humanitaires ، إلا أن «الجنون» كان يدرك على

(٤٢) نفس المرجع ، صص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٤٣) نفس المرجع ، ص ١٧٢ .

أنه نفى للعقل في عصر اتصف بأنه عصر العقل . هو إذن لا وجود يقضى  
«بالعزل» (٤٤).

لقد كان «العزل» يكشف عن ماهية الجنون باعتباره «لا وجود» non-être ،  
وذلك برده إلى حقيقته أى إلى «العدم» néant . ولما كان العزل لا يهدف  
إلا للإصلاح ، فإن هذا الإصلاح لا يكون إلا بالقضاء على هذا الجانب  
السلبى للوجود أو تأكيد الموت . ولم يكن تمنى الموت بالنسبة للمعزولين  
دليلاً على الانحراف أو إنعدام الإنسانية أو مبالغة في الوحشية ، بل على  
الأحرى كان دليلاً على التناسق بين الفكر والتطبيق في ذلك العصر . فقد  
احتوت سجلات «بيوت العزل» على عبارات مثل : «إن صحته تتدهور  
تدريجياً وننتشم أن يموت قريباً» (٤٥).  
الجنون كمرض في العصر الكلاسيكى :

إن ظهور الجنون كمرض في العصر الكلاسيكى حقيقة لا يمكن إنكارها.  
أما ما يشكل صعوبة أمام الباحث ، فهو وجود خبرة أخرى في العصر  
الكلاسيكى تتعامل مع الجنون بالعزل والعقاب والعنف . ويرى فوكوه  
أنه على الرغم من أن تواجد الخبرتين معا جنباً إلى جنب من شأنه أن يحيط  
المسألة بالغموض أمام الباحث غير المدقق ، إلا أن هذه المعاصرة هي التي  
تساعدنا في فهم نمط الإدراك الذي يتميز به ذلك العصر (٤٦).

شهد العصر الكلاسيكى إذن ظهور الجنون كمرض ، غير أن ممارسة

---

(٤٤) نفس المرجع ، ص ٢٦٧ .

(٤٥) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٢٦٨

(٤٦) نفس المرجع ، ص ١٣١ .

العزل كانت مستقلة عن الطب ! صحيح أن المستشفى العام كان مزوداً بطبيب ولم يكن ذلك لشعور المسئولين أنهم يحبسون فيه المرضى ، بل لخوفهم من انتشار «حمى السجون» «fièvre des prisons» بين نزلائه (٤٧) . وليس في ذلك ما يدعو للدهشة ، إذ لم يكن هناك أدنى فرق بين قلاع السجون وقصور الاستشفاء .

ففي بداية القرن الثامن عشر ، أقتيد المدعو كلود ريمي Claude Rémy إلى قصر بيستر Bicêtre (وهو بيت العزل المخصص للرجال) بقرار من البرلمان . وجاء في القرار ما يلي : «يحكم عليه بالعزل والحبس مدى الحياة بقصر بيستر ويعامل معاملة الخبل» (٤٨) .

ويرى فوكوه أن العصر الكلاسيكي الذي فصل الكلمات عن الأشياء إنما يفصل أيضاً بين النظر والتطبيق . فلم توجد اكتشافات مناسبة في فن العلاج تتمشى مع الاكتشافات التي تمت في ميدان «الفسولوجيا» على يد هارفي وديكارت وويليس Willis (٤٩) . بل إن ثنائية الفكر والمادة التي قال بها ديكارت لم يتبعها في مجال الطب ثنائية مماثلة بين الروح والجسد أو بين الجانب السيكولوجي والجانب العضوي . وعندما استفاد الطب بهذه الثنائية بعدمضي قرن ونصف من الزمان ، لم يكن ذلك وفاء لذكرى ديكارت ، بل نتيجة لظهور تقييم جديد للخطيئة (٥٠) .

(٤٧) نفس المرجع ، ص ١٢٨ .

«حمى السجون» هو مرض ظن أنه ينتشر بين نزلاء السجون والأماكن المزدحمة .

(٤٨) نفس المرجع ، ص ١٢٩ .

(٤٩) نفس المرجع ، ص ٣١٦ .

(٥٠) نفس المرجع ، ص ٣٣٧ . ونلاحظ أن تقييم الخطيئة لم يظهر إلا مع ظهور علم النفس . فعلم النفس لم ينشأ إلا لكي يحدد المقياس العام الذي يمكننا من الحكم على ما يصدر عن الأفراد من أفعال . راجع أيضاً : «تاريخ الجنون» ، ص ٤٦٩ .

ومنع ذلك فإن فوكوه لا يتفق مع الرأي القائل بأن الجنون كمرض لم تنضج معالجه إلا في وضعية القرن التاسع عشر .

ففي العصور الوسطى وعصر النهضة لم يكن الجنون مدبركاً إلا أنه كان معترفاً به على مسرح الواقع الاجتماعي . إذ كانت «سفينة المجانين» في العصور الوسطى بمثابة فكرة خيالية تحمل الخطر في صورتها العامة وتذهب به إلى عرض البحار (٥١).

ويذكر فوكوه أيضاً أن العصور الوسطى قد جعلت للمجنون أدواراً يقوم بها في مشهد الحياة المألوفة وذلك قبل وجود الطب الذي يحدد معالجه (٥٢). وبعد انتهاء العصر الوسيط مباشرة تولته رعاية نزعة إنسانية طيبة ظهرت تحت تأثير التيارات الثقافية الآتية من المشرق العربي . ويقول فوكوه عن هذه التيارات الثقافية :

«يبدو أن العالم العربي قد أنشأ مبكراً مستشفيات حقيقية مخصصة للمجانين . فقد أنشأت مستشفى للمجانين في مدينة فاس ابتداء من القرن السابع الميلادي ، وفي مدينة بغداد في أواخر القرن السابع . وفي القاهرة في غضون القرن التالي مباشرة ، وكان العلاج في هذه المستشفيات يقوم على استخدام الموسيقى والرقص ومشاهدة المسرحيات والاستماع إلى أحسن القصص .

(٥١) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ١١٨ .

(٥٢) كانت تعلق علامة الصليب على رؤوس الخيل حتى لا يتعرض لهم أهله . وكان الخيل يدخلون قصور الملوك دون أن يوقفهم الحراس ، كما كان الحكام يهتفون لقدمهم .

كما كان هناك أطباء متخصصون هم الذين يشرفون على  
العلاج ويقررون إيقافه عندما يتحققون من نجاحه. ولم يكن  
من قبيل المصادفة أن ظهرت في أسبانيا أولى مستشفيات  
الجل في أوروبا وذلك في أوائل القرن الخامس عشر...  
وقد اشتهرت في أسبانيا مستشفى سراقسة Saragosse  
التي أنشأت سنة ١٤٢٥ ، ومستشفى إشبيلية Séville  
سنة ١٤٣٦ ، ومستشفى طليطلة Tolède سنة ١٤٨٣ ،  
ومستشفى بلد الوليد Valladolid سنة ١٤٨٩ « (٥٣).

أما مستشفى «سراقسة» ، فقد حاز إعجاب بينيل Pinel — فيما يرويهِ  
فوكوه — بعد مرور أربعة قرون على إنشائه . وذلك لحسن تنظيمه وإتقان  
إدارته .

يقول بينيل :

« كانت أبوابه مفتوحة على مصراعها للمرضى من  
جميع البلاد وجميع الحكومات وجميع الملل كما يتبين  
من العبارة المنقوشة على المدخل : Urbis et Orbis  
(وتعني : لسكان المدينة وللعالم) . وكانت حدائقه  
الغناء تكبج جماح النفوس وتردها عن الضلال بفضل  
تتابع الفصول وظهور الثمار والانتقال من الحصاد إلى  
جمع الكروم أو قطف الزيتون » (٥٤).

(٥٣) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٥٤) ذكر فوكوه هذا النص ص ١٣٤ من «تاريخ الجنون» . أما بينيل فهو الذي  
ارتبط اسمه بتحرير المجانين من بيوت العزل في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر . وكان  
من أوائل الأطباء في تخصص الطب العقلي .

وإلى جانب هذه الصورة المشرقة لما كانت عليه «البيمارستانات» في العالم العربي وفي إسبانيا بتأثير الثقافة العربية ، يضع فوكوه أمام أعيننا صورة قائمة لما كان عليه التعامل مع «الخليل» في العصر الكلاسيكي . يقول نقلا عن أحد الكتاب في القرن التاسع عشر :

« كان حراس الخليل يقودونهم للتنزه بعد العشاء في فناء المنزل وكانوا يتعاملون معهم بالعصا تماماً كما يعامل قطيع من الغنم . وإذا انحرف أحدهم عن «القطيع» ، أو تباطأ في السير ، فإنه كان يعاقب بطريقة جائرة لدرجة أن البعض كان يصاب بعاهة مستديمة أو يموت بسبب الضربات الشديدة على الرأس » (٥٥).

ويرى فوكوه أن هذا «العزل» الذي اتخذ صورة «غير انسانية» لم يكن بسبب خلل في الإدارة . فالمؤسسات لم تكن وحدها المسؤولة عن هذه الصورة البشعة ، بل إن مسؤولية ذلك إنما تقع على عاتق الإحساس بالجنون la conscience de la folie أو إدراكه . فهذا الإحساس لم يكن بوسعه أن ينظر إلى «البيمارستان» باعتباره مكاناً للاستشفاء ، بل باعتباره — على أحسن تقدير — بيتاً للإصلاح .

ولإذا كان عصر النهضة قد اعترف «بالجنون» دون أن يدركه (٥٦) ، فإن العصر الكلاسيكي إنما يدركه ، ويظهره «بالعزل» .

أما عن التغير الذي حدث منذ نهاية عصر النهضة وحتى منتصف العصر

(٥٥) ذكره فوكوه ، نفس المرجع ، ص ١٣٦ .

(٥٦) أنظر ص ١٨٠ .



الكلاسيكي فإنه لم يكن تطوراً في المؤسسات بقدر ما كان تغيراً في الإحساس بالجنون ، ذلك أن تطور المؤسسات ليس سوى مظهر لتغير هذا الإحساس أو الوعي .

وهنا يحق لنا أن نتساءل : لماذا لم يتغير هذا الإحساس لصالح المرضى رغم تواجد المؤسسات العلاجية في دولة مجاورة هي اسبانيا ؟ وهل اتصف العصر الكلاسيكي بتخلف المعرفة الطبية بالنسبة للعصر الذي سبقه ؟ .

وفي الإجابة عن التساؤل الأول نقول أن خصائص «الابستميه» أو الاستعداد المعرفي السائد في العصر الكلاسيكي لم تكن تسمح بأن يتسلل إليها أى مفاهيم جديدة أو غريبة على النسق الثقافي السائد . فهذا النسق يتحدد «بعلم كلى للنظام» ، ويفصل التمثلات عن واقع الأشياء ، ويفشل في الربط بين النظر والعمل (٥٧) .

ويجب فوكوه عن التساؤل الثانى ويرى أن ما شهده العصر الكلاسيكي من عدم اكتراث بالجنون لم يشهده أى عصر غيره ، كما يرى أن هذا العصر هو عصر التمزق الشديد الذى وصل إلى الأعماق (٥٨) . غير أن هذا لا يعنى اطلاقاً أن القرن السادس عشر كان متقدماً على العصر الكلاسيكي فيما يختص بمعرفة الجنون. فالنصوص الطبية الكثيرة التى وردت إلينا من العصر الكلاسيكي كافية لإثبات العكس (٥٩) . لأن هذه النصوص تشير إلى تطور في المفاهيم العلمية كما تشير إلى أن الوعي الطبى بالجنون ، حتى وإن اعترف باستحالة الشفاء ، فإنه مع ذلك كان من الممكن أن يقضى على الأعراض

(٥٧) راجع خصائص «ابستميه العصر الكلاسيكي» ، الفصل السابق .

(٥٨) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ١٩٠ .

(٥٩) نفس المرجع ، ص ١٢٨ .

أو - على الأقل - يتحكم في الأسباب (٦٠) . وقد جاء عجز هذا «الوعى» من جراء سلب جميع سلطاته ، فالحكم «بالعزل» كان ينبثق عن تصور سياسى وقضائى واقتصادى كما كانت تختمه ضرورات إجتماعية . فلم يكن الطبيب هو الذى يحدد من المجنون ؟ وما درجة جنونه ؟ وما إذا كانت حالته تستلزم العزل أولاً ؟ بل كان يتم ذلك كله بقرار من القاضى أو المحكمة أو أسرة الفرد أو رجال الدين أو الجيران بما يقدمونه من التماس للقاضى (٦١) . وهذا يعنى أن الحكم بالمجنون كان ينبثق عن حساسية إجتماعية *sensibilité sociale* مثله في ذلك كمثل الجريمة أو الفضيحة أو العار . ولم يكن غريباً أن تساءل الناس (ساخرين) في بداية القرن التاسع عشر عما إذا كان بقدرة الطبيب أن يتعرف على حالات الجنون أو أن يشخص طبيعتها (٦٢) .

#### أطباء العصر الكلاسيكى :

لما كان الفرد المعترب عقلياً لا يتقيد أمام المجتمع بأى التزام ، لذا فقد كان هناك ما يبرر عزله قانوناً . ومن هنا فقد عملت الخبرة الطبية في العصر الكلاسيكى على تبرير هذا العزل ، إيداناً بظهور طب للأمراض العقلية يعتمد على أساس من الخبرة القانونية للاغتراب .

ففي القرن السابع عشر وتحت ضغط المفاهيم القانونية التى تستهدف تحديد شخص المجنون ، ظهرت البناءات الأولى للطب النفسى عند أطباء قانونيين من أمثال «زاكياس» *Zacchias* . وقد قام هذا الأخير بعمل تصنيف لمستويات الضعف العقلى كانت تسيقا (أو تمهيداً) للتصنيفات الحديثة التى جاءت بعد ذلك .

(٦٠) نفس المرجع ، ص ١٩١ .

(٦١) نفس المرجع ، ص ١٤٣ .

(٦٢) نفس الموضوع .

أما القرن الثامن عشر فقد كانت مهمته أن يبحث عن الإلتقاء بين المفهوم القانوني وبين الحساسية الاجتماعية . أى بين «ذات عاجزة قانوناً» وبين «إنسان يعبر صفو الجماعة» (٦٣).

وقام فوكوه باستعراض جميع المحاولات التي قام بها أطباء القرن الثامن عشر لتحقيق هذه المهمة . وقد لا يتسع المقام هنا للإحاطة بكل ما جاء عنها في كتاب «تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي» ، وسنكتفي بالإشارة إلى أهم المناقشات التي دارت في هذا العصر وتطرق لموضوع الجنون .

كان الكثير من الأطباء يبحث عن مصدر الجنون في اضطرابات الحس ، وكانوا في ذلك متأثرين بأفكار الفيلسوف لوك . ولا يوافق سوفاج Sauvages ، وهو من أطباء القرن الثامن عشر على هذا الاتجاه ويقول : «إن أحول العين لو رأى الشيء الواحد مزدوجاً فإنه ليس مجنوناً . أما المجنون فهو من رأى الأشياء مزدوجة واعتقد أنها كذلك» (٦٤) . الجنون عند سوفاج إذن هو اضطراب في النفس وليس في الحس .

وكان فولتير يتفق مع سوفاج في هذا الرأي ، وإن كان يعتقد أن اضطراب النفس يعنى وجود خلل بالمخ . فنسبة المخ إلى النفس هي تماماً كنسبة العين إلى البصر .

يقول فولتير :

«إننا نسمى جنوناً ذلك المرض الذي يصيب أعضاء

---

(٦٣) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ١٤٦ .

(64) Boissier de SAUVAGES, "Nosologie méthodique", tra. Gouvion, Lyon, 1772, t. VII, PP. 130, 141.

ذكره فوكوه ، ص ص ٢٢٨ من «تاريخ الجنون» .

المخ والذي يمنع الإنسان من أن يفكر أو يعمل مثل  
الآخرين » (٦٥).

ويلاحظ فوكوه أن ما كتبه فولتير في هذا الموضوع إنما يتعدى مناقشات  
الأطباء في عصره ، والتي كانت تقتصر على علاقة الحواس بالمخ . ففي نص  
لفولتير نجد محاوره شيقة بين أحد المجانين وأحد الأصحاء (٦٦) ، يقول  
النص في حديث موجه إلى المجنون :

«لعلم يا صديقي أنه على الرغم من أنك فقدت الحس  
المشترك *le sens commun* ، فإن روحك تظل شفافة  
وطاهرة وخالدة مثل أرواحنا ، ولا تختلف عنها إلا في  
في حين الإقامة . فالنوافذ عندك مغلقة ، والهواء  
لا يتجدد ، وروحك مهددة بالاختناق » .

أما المجنون ، فإنه يعلم أن الأمر على عكس ذلك تماماً بما لديه من رؤية  
ثاقبة تنبثق من أعماقه فيقول :

«إنكم يا أصدقائي تفكرون في الأمر على طريقتكم.  
أما أنا ، فلدى نوافذ مفتوحة مثل نوافذكم ، خصوصاً  
وأني أرى نفس الأشياء التي ترونها وأسمع نفس الكلمات.  
ومن الضروري إذن أن تكون روحي قد أساءت استخدام  
الحواس أو أن تكون من نوع رديء . وباختصار ، فلما

(65) Voltaire : "Dictionnaire philosophique", article folie, éd. Benda,  
P. 285.

ذكره فوكوه ، ص ٢٢٦ من «تاريخ الجنون» .

(66) Ibid, P. 286.

ذكره فوكوه ، ص ٢٢٨ في «تاريخ الجنون» .

أن تكون روحى مجنونة بذاتها ولما أن لا يكون لها وجود على الإطلاق .

ونلاحظ من هذا النص أن ما جاء على لسان المجنون من أن «روحه قد أساءت استخدام الحواس» أو أن «روحه مجنونة بذاتها» ، أو أنها «قد لا تكون موجودة إطلاقاً» ، إنما يثير تساؤلات عن علاقة الروح بالجسد وعن استقلالها عنه أو إندماجها فيه ؛ وعما يمكن أن يكشفه البحث في الجنون من طبيعتها المادية ، وكلها تساؤلات لم تلق اهتماماً لدى الباحثين إلا في القرن التاسع عشر عندما ظهر الطب النفسى الروحى والطب النفسى المادى . ويؤكد فوكوه على أن جميع النصوص التى تطرقت إلى موضوع الجنون في العصر الكلاسيكى ، لم تعتبره مرضاً من أمراض النفس بل شيئاً آخر تماماً يخص النفس والجسم مجتمعين (٦٧). ولذا فن البحث أن نحاول التمييز في العصر الكلاسيكى بين طرائق العلاج «الفيزيقي» وبين التطبيب النفسى *médications psychologiques* ، وذلك لسبب بسيط هو أن علم النفس لم يكن قد عرف بعد . أما ظهور هذا التمييز فيما بعد ، فإنه يبدأ في الوقت الذى سينظر فيه إلى الجنون باعتباره مجرد مرض ، والمرضى يعالجون علاجاً جسمى ، أما الاغتراب *dérailson* فإنه سيدخل في نطاق علم النفس .

ومن المناقشات الهامة التى تناولت موضوع الجنون في القرن الثامن عشر ، ما يتصل منها بعلاقته بالبيئة . فإذا كان القرن السابع عشر قد اكتشف الجنون في فقدان الحقيقة *la perte de la vérité* ، وهى إمكانية سلبية *possibilité négative* ، تتصل بالقدرة على اليقظة ، ولا تتعلق بالطبيعة بل بالحرية (أى حرية الإرادة) ،

(٦٧) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٢٣١ .

فإن القرن الثامن عشر يشهد بأن الجنون لم يعد يسكن في الإنسان بل في البيئة ،  
 أى عندما تتغير علاقة الإنسان بالمحسوس أو بالزمان أو بالآخرين (٦٨). ولما كان  
 في «العودة إلى الطبيعة» ضمان لمستقبل أفضل حسب الأفكار السائدة في القرن  
 الثامن عشر ، فإن في الابتعاد عنها اقتراب من خطر الجنون . لأن «الجنون  
 هو الطبيعة المفقودة ، وهو اختلال للرغبات ، وضياح لميزان الوقت ، وهجر  
 للملموس من الأشياء» . وإذا كان الجنون في القرن السابع عشر يتسبب في  
 الارتداد إلى الطبيعة الحيوانية ، فإن سبب الجنون في النصف الثاني من القرن  
 الثامن عشر هو البعد عن هذه الطبيعة (٦٩) . وهنا يظهر التقدم الحضارى  
 وكأنه سلاح ذو حدين أحدهما يؤدي إلى الجنون . فهذا التقدم يعنى تعدد  
 الاختراعات والأدوات البديلة التي تتوسط بين الإنسان والطبيعة ، كما  
 أنه يغري بزيادة الاطلاع والدراسة وحياة المكتب والتفكير المجرد ، وفي  
 كل هذا إهمال لمطالب الجسد، إذ «كلما كان العلم مجرداً أو معقداً، كلما كثرت  
 مخاطر التردى في الجنون بسببه» (٧٠).

ونلاحظ أن فوكوه ربما كان متعاطفاً مع هذه الأفكار . فهو يورد

---

(٦٨) نفس المرجع ، ص ٣٩١ .

(٦٩) نفس المرجع ، ص ٣٩٣ - ٣٩٤ .

ربما ظهر من يعترض بأن هناك «قليلة» داخل «ابستميه» العصر الكلاسيكي بين تصور  
 القرن السابع عشر وتصور القرن الثامن عشر لطبيعة وأسباب الجنون . وهذا الاعتراض غير  
 صحيح . فالتناقض الظاهر بين تصوريين هو تقابل بين أطراف مشتقة أركيولوجيا داخل  
 الابستميه الواحد الذي يتحدد بداخله انتمى في مجال حر للاختيار .

(70) Tissot (S. — A.), "Avis aux gens de lettres sur leur santé."  
 (Lausanne, 1767), P. 24.

ذكره فوكوه « تاريخ الجنون » ، ص ٣٨٩ .

نصوصاً تبين أن البدائين لا يعرفون المرض العقلي لأنهم يعيشون مع الطبيعة ولم تقسدهم الحضارة. ويلجأ في ذلك لشهادة بعض الأنثروبولوجيين من أمثال راشن Rush وهنبولت Humboldt (٧١).

ومهما كان من شيء، فإن هذا التفكير عن الجنون وعلاقته بالبيئة في القرن الثامن عشر يعتبر إرهاباً للأفكار الرائدة عن الإنسان والتي ستظهر فيما بعد. فالقرن الثامن عشر يقدم تصوراً للاغتراب يسمح بتعريف البيئة على أنها نقي للإنسان négativité de l' homme وعلى أنها القليل الملموس لكل جنون ممكن (٧٢) l'a priori concret de toute folie possible.

ويرى فوكوه أننا أمام مبدأ فلسفي هيجلي يختلط بفكرة بيولوجية عامة. أما المبدأ الهيجلي، فهو الذي يرى في تعدد البدائل المتوسطة بين الإنسان والطبيعة خطراً يهدد بالاغتراب

( l' aliénation est dans le mouvement des médiations )

وأما الفكرة البيولوجية، فقد عبر عنها بيشا Bichat بقوله: «إن كل ما يحيط بالكائنات الحية إنما يهدف إلى تحطيمها» (٧٣) tout ce qui entoure les êtres vivants tend à les détruire. فكما أن موت الإنسان يأتي من خارجه، كذلك الجنون أيضاً والاغتراب.

ثالثاً : ظهور الطب النفسي في العصر الحديث :

إذا كان العقل في العصر الكلاسيكي يتحدد في مجال حر للاختيار، فإن

(٧١) راجع : فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٧٢) فوكوه ، «تاريخ الجنون» ، ص ٣٩٧ .

(٧٣) نفس المرجع ، ص ٣٩٦ .

- بيشا هو من علماء التشريح والفسيولوجيا الفرنسيين (١٧٧١ - ١٨٠٢) وسرد الحديث عنه في الفصل القادم .

الحدود بين العقل والجنون في القرن التاسع عشر إنما تقام على أرض. وضعية  
 Positif ، وإذا كان العصر الكلاسيكي في رفضه للجنون يستند إلى ضمير أخلاقي  
 معين ، فإننا نجد أن عصر بينيل Pinel قد غير العلاقة الأساسية بين الأخلاق  
 والعقل ، وأصبح العقل هو الذي يقود الأخلاق ، كما أصبح الجنون قصوراً  
 لا إرادياً يصيب العقل من الخارج . وعندئذ فقط اكتشفت الحالة المفزعة  
 التي عاش عليها المجانين لسنوات طويلة داخل بيوت العزل ، فقد عومل  
 «البرياء» معاملة «المذنبين» . وهذا التغير لا يعني أن «الجنون» قد حصل  
 أخيراً على مرتبة انسانية ، كما أنه لا يعني أن «الباثولوجيا» العقلية قد خرجت  
 به لأول مرة من عهد سابق تميز بالبربرية ؛ بل إن هذا يعني بكل بساطة  
 أن الإنسان قد غير من علاقته القديمة بالجنون ، فلم يعد يدرجه إلا منعكساً  
 على سطحه هو ، وفي عرض إنساني هو المرض (٧٤). غير أن هذا الإدراك الجديد  
 لم يتكون طفرة واحدة من تلقاء ذاته ؛ بل كان لتكوينه شروط قدمت له ،  
 وسباق حتم ظهوره . فقد صدر في سنة ١٧٨٥ مرسوم ملكي — في فرنسا —  
 يأمر بادخال الرعاية الطبية في بيوت العزل . وصدر في نفس السنة قرار من  
 «الجمعية الوطنية» يطالب بالتحقق من حالة «المعزولين» ، وأن يذكر في  
 «ملف» كل منهم ما إذا كان خبيلاً أم لا (٧٥) . وهنا يظهر العلم القانوني  
 للخبيل على أنه شرط أساسي لكل «عزل» . كما تظهر الملامح الأولى لعلم  
 جديد سوف يزعم لنفسه القدرة على علاج المجنون ككائن أنساني وهو «الطب  
 النفسي» بقيادة بينيل Pinel .

(٧٤) فوكوه ، «تاريخ الجنون» ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .  
 (٧٥) فوكوه ، «تاريخ الجنون» ، ص ١٨٩ .



وإذا زعم البعض أن الجنون لم يصبح موضوعاً للدراسة العلمية الجادة على يد الطب النفسي إلا بعد أن تخلص من شوائب دينية وخلقية علقت به منذ العصور الوسطى ، فإن ميشيل فوكوه يؤكد لم أن الجنون لم يصبح موضوعاً objet إلا بعد أن حكم عليه بالعزل قراب مائة وخمسين عاماً ظل طواها صامتاً . فالعزل يظهر الجنون ويعزله في نفس الوقت (٧٦) . وإذا كان العصر الوضعي Page positiviste (بدايات القرن التاسع عشر) يدعى بأنه هو الذي حرر المجانين من هذه السجون المظلمة التي لا تنفذ إليها عين الإنسانية ، فإن فوكوه يرى أن هذا الإدعاء لا أساس له أيضاً (٧٧).

إن الاحساس بحقيقة الجنون la conscience de la folie لم يتطور داخل نطاق حركة إنسانية قربته بالتدريج من الواقع الإنساني «للمجنون» ، كما أنه لم يتطور تحت تأثير حاجة علمية besoin scientifique جعلت الجنون يتحدث عن ذاته بطريقة موضوعية. بل إن هذا التغير قد انبثق داخل مجال واقعي هو «العزل» . وكان العزل قد تعرض لأزمات عنيفة هي التي كان لها الفضل في إظهار وتكوين ذلك الاحساس الجديد الذي كان معاصراً للثورة الفرنسية .

وربما نندهش ، إذا علمنا أن النظرة الجديدة للجنون كانت ذات طابع سياسي بالدرجة الأولى (٧٨).

فقد شهد القرن الثامن عشر مناقشات عديدة تخص موضوع «العزل» .

(٧٦) نفس المرجع ، ص ١١٩ .

(٧٧) نفس المرجع ، ص ٤١٦ .

(٧٨) فوكوه ، «تاريخ الجنون» ، ص ٤١٨ .

ولم تكن تهدف هذه المناقشات إلى تحرير المجانين أو علاجهم بل كانت تنصب على الجمع بين فئتي المجنون وغير المجنون نتيجة لاحتجاج الكثيرين من أعضاء الفئة الثانية . وقد كان من بين المحتجين من يقول : «حجزت ضمن مجانين كان بعضهم هائجاً مما جعلنى معرضاً للاهانات فى كل لحظة» (٧٩). وقال أحد رجال الدين شاكياً (٨٠) «إن هذا هو الشهر التاسع الذى حجزت فيه ضمن عشرين مجنوناً هائجاً ، وفى ظروف مثيرة للرعب حقاً » .

وقد تضاغت هذه الإحتجاجات فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، وصار الجنون مثيراً لرعب أى إنسان يحكم عليه بالحجز . كما اعترف ميرابو ، أشهر خطباء الثورة الفرنسية ، بأن الجنون كان أداة فى يد السلطة ورمزاً لعنادها . تستخدمه فى مواجهة كل من أريد عقابه (٨١).

ويذكر فوكوه أنه إذا كان عام ١٧٧٠ يمثل بداية لإعادة النظر فى «مسألة العزل» . فإن هذا التاريخ كان يتوافق فى التوقيت مع ذروة الأزمات الاقتصادية فى إنجلترا وفرنسا . وقد رأى الاقتصاديون فى ذلك الوقت أن «العزل» خطأ اقتصادى . فالسكان هم أحد عناصر الثروة ، والثراء يرتبط بالعمل الذى يقوم به الإنسان . كما نبه هؤلاء الاقتصاديون إلى أن رعاية الدولة لفرد لا يعمل يكون على حساب الأفراد العاملين . والرعاية الوحيدة التى يمكن للدولة أن توفرها للأفراد هى إزالة العوائق التى تحد من حريتهم وبالتالي من إنتاجهم (٨٢) .

(٧٩) نفس الموضع .

(٨٠) هو الأب مونتيريف L'abbé de Moutérf ذكره فوكوه نفس المرجع ص ٤١٩ .

(٨١) فوكوه ، «تاريخ الجنون » ، ص ٤١٩ .

(٨٢) نفس المرجع ، ص ٤٣٢ .

وبالإضافة إلى موجات الاحتجاج ونصائح الاقتصاديين ، فقد جاء «إعلان حقوق الإنسان» (٨٣) ليقضى تماماً على بيوت العزل . فهو ينص على عدم جواز القبض أو السجن إلا بعد المحاكمة وثبوت الاتهام . وقد انبثق عن هذا «الاعلان» مرسوم خاص بتاريخ ١٦ مارس سنة ١٧٩٠ ، يصدر أمراً بما يلي : «في خلال ستة أسابيع من تاريخه يفرج عن كل مسجون في بيوت العزل ما لم يكن متها في إحدى الجرائم وما لم يكن محجوزاً بسبب الجنون» (٨٤).

وهنا يتضح أنه في الوقت الذي انهار فيه نظام العزل تماماً يظل المجنون حبيساً مثله في ذلك كمثل المحكوم عليهم من المجرمين . وقد كان هذا التغير الجديد هو الذي أدى إلى ظهور تساؤلات جديدة طرحها الأطباء والمفكرون من أمثال تينون Tenon وكاباني Cabanis (٨٥) . إذ رأى هؤلاء الأطباء أن العزل المثلالي هو الذي يوفر حرية الحركة للمجنون ، وذلك بأن يسمح له بالخروج من عزلته إلى الهواء الطلق في حداثق خاصة معدة لذلك . وهم يجمعون على ما للحرية من قيمة أساسية في العلاج وذلك لاعتقادهم بأن قيود الجسد إنما تطلق العنان لجموح الخيال ، وأن هذا الأخير هو ممكن الخطأ والمستول عن كل أمراض النفس . فالحرية كبداً في العلاج تجعل الخيال بصطدم دائماً بالواقع الملموس . وقد استخدم هذا المبدأ في العلاج النفسي فيما بعد عندما أطلق حرية الحوار والمحادثة .

---

(٨٣) صدر هذا الإعلان في أعقاب الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ وهو غير الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي سيصدر عن الأمم المتحدة فيما بعد سنة ١٩٤٨ .  
 (٨٤) فوكوه ، «تاريخ الجنون» ، ص ٤٤٢ .  
 (٨٥) سيأتى ذكرهما في الفصل القادم .

ويظهر مما تقدم أن العزل قد أصبح مكاناً للعلاج يستهدف الشفاء بعد أن كان مجاً حتى الموت . كما يظهر أن هذا التحول لم يحدث بسبب الاستخدام المتطور للطب بل بسبب إعادة التنظيم الداخلى لبيوت العزل ذاتها . فالقيم الجديدة التى دخلت بيوت العزل هى التى سهلت دخول الطب إلى هذه البيوت ، وحولتها بالتالى إلى بیمارستانات .

بينيل (٨٦) وتوك : (أو الطب النفسى الوضعى)

لقد ارتبطت أسماء بينيل وتوك بظهور بیمارستانات الحديثة . إذ كانا يمارسان العلاج انطلاقاً من فكرة أساسية وهى أن الجنون ليس ارتداداً إلى طبيعة أخرى مخالفة لطبيعة الانسان كما أنه ليس فقداً تاماً للعقل . فالشفاء عند بينيل إنما يكشف عن وجود فضائل إنسانيه نقيه ومبادئ ثابتة لدى الخبل . يقول :

«لم يكن ليتسنى أن أرى أزواجاً مثاليين ، وآباء وأمهات يتفانون في محبة أبنائهم ، وأفراد أبحر صون على الإخلاص في عملهم ، ما لم أكن قد عاشرت هذا العدد من الخبل بعد أن وصلوا إلى دور النقاة» (٨٧) .

---

(٨٦) بينيل هو طبيب فرنسى ، ولد فى مقاطعة «تارن» بفرنسا (١٧٤٥ - ١٨٢٦) . وكان يعمل فى مستشفى بيستى Bicêtre فى الفترة التى ساد فيها الارهاب بعد الثورة الفرنسية . ويرجع له الفضل فى حماية عدد كبير من الارستقراطيين ورجال الدين من المقصلة بحجة وصابتهم بالخبل .

(87) P. Pinel, "Traité médico-philosophique", Paris (1801)

ذكره فوكوه ، «تاريخ الجنون» ، ص ٥١٣ .

أما صمويل توك فكان يستشهد بحالة سيدة أصيبت بالخلل . وكانت إذا ارتفعت درجة حرارتها لا تهدى كما يحدث للأصحاء بل كانت تتذكر أحداث طفولتها وتسلك سلوكاً عاقلاً طوال إصابتها بنوبة الحمى . وهذا يعنى أن الجنون لا يذهب العقل تماماً . وكان توك لذلك يفضل استخدام الكلمة الفرنسية aliéné بدلا من الكلمة الانجليزية insane .

ويذكر فوكوه أن هذه الفكرة الأساسية في العلاج عند بينيل وتوك قد عبر عنها الفيلسوف هيغل فيما بعد بقوله :

«إن العلاج الحق ينبغى أن يقوم على أساس أن الجنون ليس فقداً تاماً للعقل . لا من ناحية الذكاء ولا من ناحية الإرادة والمسئولية ، بل هو مجرد اضطراب في النفس وتناقض في العقل يحدث مثيله في الجسم . فالمرض الجسمى ليس فقداً تاماً للصحة بل هو تناقض يكتنفها . إن هذا العلاج الانسانى — أى العاقل — للجنون ، إنما يفترض وجود العقل لدى المريض ويعتبره نقطة انطلاق أساسية (٨٨) .

ويتضح مما تقدم أن البيارستان الحديث كان بمثابة الموقظ للطبيعة المنسية كما كان معبراً للعودة إلى المجتمع . ويتضح أيضاً أن النظرة الوضعية قدرأت حقيقة الجنون في العقل البشرى ذاته على عكس التصور الكلاسيكى الذى كان يرى في خبرة الجنون دحضاً لكل حقيقة بشرية .

وإذا تساءلنا عن مكانة الطبيب في البيارستان الحديث ، فإننا نلاحظ أنها لا تستمد من كثرة المعلومات الطبية أو الاسعافات التى يمكن أن يؤديها الطبيب بل من دوره الذى يماثل دور «الحكيم» sage له من وظيفة قضائية وأخلاقية . ولذا كان الفيلسوف كمنط يعتقد بأن الدور الرئيسى في المارستان ينبغى أن

(٨٨) Hegel Encyclopédie des sciences philosophiques P. 408. (88)

ذكره فوكوه ، «تاريخ الجنون» ص ٥٠١ .

يقوم به «فيلسوف» (٨٩).

غير أن علم الأمراض العقلية — كما شهدته البيارستانات في القرن التاسع عشر — لم يتجاوز مجال الملاحظة والتصنيف إلى لغة الجوار . فهو لم يكن حواراً بحق إلا في الوقت الذي سيقوم فيه التحليل النفسي بطرد «النظرة الوضعية» (وهي أساسية في مارستان القرن التاسع عشر) ، على أن يستبدل بها قوة اللغة .

ويرى فوكوه أن اكتشافات فرويد قد أزاحت الستار عن فهم أوربي خاطيء لموضوع الجنون . فقد فهم الجنون قبل فرويد على أنه «كلام ممنوع» أو «لغة مستبعدة» . أما فرويد ، فهو لم ينظر إلى هذا «الكلام الممنوع» على أنه فلتات لسان أو أخطاء لغوية أو تصريح بالكفر أو بأى معنى لا يحتمل ، بل إنه ينظر إليه على أنه كلام متوقع حول ذاته *qui s'enveloppe sur elle même* ، ويعنى شيئاً آخر غير معناه الظاهر ، وهذا الشيء هو قانون أو لغة خفية *ésotérique* . ومالكلام الظاهر الا غلاف لهذه اللغة منبثق عنها ومتضمن فيها . ويلاحظ فوكوه أن فهم فرويد على هذا النحو يكفى لحماية أبحاثه ضد كل التفسيرات التي تتخذ صبغة سيكولوجية والتي سادت في النصف الأخير من هذا القرن . «فالتحليل النفسى ليس «علم نفس» ، بل هو تجربة للاعتراب *une expérience de la déraison* يعمل علم النفس الحديث على طمسها » (٩٠) . أو «هو حوار مع خبرة الاعتراب التي ردت إلى الصمت على يد الوضعية» (٩١) . ويترتب على هذا الفهم الجديد أن الجنون يظهر لا كلفز محير يختبئ معناه بل كنمط مؤجل لأى معنى . وهنا يلاحظ فوكوه تقارباً بين الجنون وبين الأدب المعاصر .

(٨٩) فوكوه ، «تاريخ الجنون» ، ص ٥٢٤ .

(٩٠) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٣٦٠ .

نلاحظ أيضاً أن التحليل النفسى هو محاولة لدراسة «الاشعور» (خارج «الإنسان» نفسه) ، وهو بالتالى يستبعد أى تفسير سيكولوجى .

راجع زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٥٨ .

(٩١) نفس المرجع .

ففى 'نهاية القرن التاسع عشر - أى مع اكتشاف التحليل النفسى ، نجد أن الأدب قد أصبح كلاماً يحمل بين طياته مبدأ فهمه ، أى أنه يفترض تحت كل جملة من جملة أو تحت كل كلمة من كلماته وجود قوة قادرة على تغيير المعانى والقيم داخل اللغة التى ينتمى إليها . وهذا يعنى أنه أصبح لغة مرفوضة langage exclu لأنه يتمرد على الضوابط اللغوية المعروفة وقوانينها ، أو أنه لغة أخرى أو نفى للغة un non-langage ، وهذا هو نفسه تعريف الجنون منذ فرويد (٩٢) .

ويقول فوكوه أنه منذ روسل Raymond Roussel (١٨٧٧-١٩٣٣) ، وأرتوت Antonin Artaud (١٨٩٦-١٩٤٨) ، وهما من الأدباء الفرنسيين ، بدأنا نشعر بأن لغة الأدب لا تعرف بما نقوله ولا بالبناءات التى تجعلها دالة ، إذ أن لها كينونة مستقلة ، وهذه الكينونة هى ما ينبغى البحث عنه والتساؤل بصددده (٩٣) .

إن كينونة الأدب منذ أن ظهرت ملاحظها عند مالا رمية تتصف بالتضمن الذاتى l'auto-implication وتكمن فى نفس المنطقة التى شغلها الجنون منذ فرويد (٩٤) .

ويرى فوكوه أنه بهذا يكون قد قرب بين جملتين متناقضتين كلاهما يشير إلى نفس المصدر وهما: أنا أكتب «j' écris» وأنا أهذى «je délire» (٩٥) .

(٩٢) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٥٨٠ .

(٩٣) نفس المرجع ، ص ٥٨١ .

(٩٤) نفس الموضع .

ومالا رمية ، شاعر فرنسى ولد فى باريس (١٨٤٢ - ١٨٩٨) . وهو إمام الحركة الرمزية ، وسنده أن الموسيقى الكلمات أكثر أهمية من معناها .

(٩٥) نفس الموضع .

## الجنون والمرض العقلي :

يرى فوكوه أن الجنون والمرض العقلي لا ينتميان إلى نفس الوحدة الأنثروبولوجية *la même unité anthropologique* على الرغم من أنهما احتلا نفس المكان في مجال «اللغات المرفوضة» منذ القرن السابع عشر . وهو يرى أن المرض العقلي في طريقه إلى الاختفاء بسبب تقدم العلاج (٩٦) .

ويحدد فوكوه تاريخ الفصل بين الجنون بمعنى الاغتراب وبين الجنون بمعناه الباثولوجي (أو المرض العقلي) وذلك بأول أغسطس سنة ١٨٠٨ ، وقد كان هذا هو تاريخ الرسالة التي كتبها روايه كولار Royer-Collard (أول من حاول أن يؤسس علماً وضعياً للجنون بمعناه الباثولوجي) إلى فوشيه Fouché وهو وزير البوليس في عهد نابليون بونابرت ، يطلب طرد الماركيز دى ساد من بيت أراد أن يؤسس به بيارستانا . وكان دى ساد Sade هو الكاتب الوحيد الذى اتصف بالجرأة وصاغ نظرية في «الاغتراب» . وقد اتهمه كولار بأنه يزاول أعمالاً غير أخلاقية لا تدخل ضمن الجنون الذى يقوم هو على علاجه بالمستشفى (٩٧) .

ويرى فوكوه أن التقابل بين الرجلين كان من الصدف الغريبة إذ أن أحدهما هو أول من قام بصياغة نظرية الاغتراب ، والثانى يحاول أن يجعل الجنون قاصراً على الإصابة الباثولوجية فقط . كما كان هذا التقابل هو بداية تحطيم الوحدة المتضمنة في الجنون بمعناه الكلاسيكى والتي كانت تشتمل على أنماط مختلفة ومتباعدة .

(٩٦) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٥٨٢ .

(٩٧) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .



وإذا كان دى ساد هو أول من فصل الجنون عن المرض العقلى ، فإن شخصية الـ Neveu de Rameau هي آخر الشخصيات الغربية التي جمعت بين الاثنين كما أنها هي أيضاً التي تبشر بلحظة الانفصال بينهما (٩٨) . ولقد كان ظهور هذه الشخصية «أو النص» الذي كتبه ديدلروه (١٧١٣-١٧٨٤) في صيغة حوار بين فيلسوف وبين مجنون بمثابة عودة لما كانت عليه شخصية الجنون في العصور الوسطى . شخصية مريحة ، تضحك الآخرين ، وتعيش مع العقلاء على هامش الحياة ، غير أنها تتكامل معهم . وقد جاء في هذا النص أن المجانين «يخرجون على هذا الاتساق الممل والذي أدخلته علينا التربية واصطلح عليه أفراد المجتمع . كما أنهم يخرجون على ما درجنا عليه من سلوك . فإذا ظهر أحدهم ضمن جماعة ، فإنه بمثابة حبة من «خبز» تتكاثر فتزد إلى كل فرد جزءاً من ذاتيته الطبيعية . إنه يثير تعاطف البعض كما يثير استهجان البعض الآخر . وهو من الممكن أن ينطق بالحقائق ويجعلنا نعرف الخيرين ، كما يكشف النقاب عن الأوغاد» (٩٩) .

وهذه العبارة تكشف عما سيكون عليه معنى الجنون في العالم الحديث . فكل ما يبتعد به عن العقل أو عن الحقيقة أو عن الحكمة إنما يقربه من صفاء الكائن .

عاد الجنون إلى الظهور إذن في مجالى الأدب واللغة بعد غيبة طالت أكثر من قرن من الزمان .

(٩٨) نفس المرجع ، ص ٣٦٤ .

(٩٩) Diderot , "Le Neveu de Rameau" PP. 426—427 (99)

ذكره فوكوه ، نفس المرجع ، ص ٢٦٦ .

ويصح له. بالتعبير عن ذاته إوبأ أن يفصح عن علاقته الأساسية بالحقيقة في الأعمال الأدبية. ولم يكن - فيما يقوله - يتعد كثيراً عما تتضمنه الصور المضطربة للأحلام من حقائق إنسانية قديمة أو حديثة ، تقرب من الذاتية ، وإن كانت تغزل الفرد تماماً لأنها تنبثق عن النظام الأبدي للأشياء (١٠٠) .

ويلاحظ فوكوه أن صور الجنون التي تحررت في نهاية القرن الثامن عشر لا تتطابق تماماً مع تلك التي أراد القرن السابع عشر أن يطمسها. فإذا كان هناك في عصر النهضة من ربط بين الجنون وبين عالم فائق للطبيعة، فإن الصور المحررة تجل مكاناً في أعماق البشر وفي رغباتهم وتخيلهم. فهي تظهر التناقض الغريب في شهوات البشر : بين القسوة والتعطش للعذاب ، وبين السيادة والعبودية ؛ وبين الرغبة والقتل (١٠١) . وإذا كان المشاهد للمجنون في العصر الكلاسيكي يمكنه أن يقرر بنفسيه - من الخارج - مدى بعد المسافة التي تفصل حقيقة الإنسان عن حيوانيته ، فإن الجنون في القرن التاسع عشر كان ينظر إليه نظرة حياد واهتمام : حياداً لأننا من الممكن أن نكتشف فيه الحقائق العميقة في الإنسان ، واهتمام لأن في اعترافنا به اعترافاً بأنفسنا. فنحن نسمع في أنفسنا نفس الأصوات ونفس القوى ونفس الأضواء الغريبة (١٠٢) .

les mêmes étranges lumières (١٠٢) .

إن السادية le sadisme ليست مجرد اصطلاح أطلق مؤخراً على ممارسة قديمة هي الحب Eros ، إنها حدث ثقافي مكثف un fait culturel massif

(١٠٠) فوكوه ، «تاريخ الجنون» ، ص ٥٢٦

(١٠١) نفس المرجع ، ص ٣٨٢

(١٠٢) نفس المرجع ، ص ٥٣٧ .

هظفنا في نهاية القربان الثامن عشر، ويشير إلى حدوث انقلاب الخط في عالم  
النهضة لدى الغربيين، لقد أصبح للاغتراب حوايا جديدة، بين الحب والموثوق  
نسخة الرطل المشهورة (١٠٣٠م) ١٨٧١ سنة من سنة (٦٣٨١ - ١٧٧١)

(۱۶ - ۳۸۱) - تیشینا

ويرى فوكوه أنه ليس من قبيل المصادفة أن تظهر «السادية» - وهي الظاهرة التي يحمل اسمها - من القرنين الثامن عشر والعاشر الميلاديين وليس من قبيل المصادفة كذلك أن تمثلت كتابات «سادة» بصور العزل واصطلاحاته وأن تكون هذه الصور وتلك الاصطلاحات هي الأرض المشتركة والمادة المشتركة لكثير من الأدباء المعاصرين لسادة (١٨٤٠). لا أترجم أضفقت

قلاع العزل إلى دورها الاجتماعي وظيفية ثقافية متعارضة تماماً : ففي اللحظة التي استطاعت فيها هذه القلاع أن تفرق بين العقل واللاعقل على سطح المجتمع ، فإنها احتفظت في الأعماق بصور تختلط بعضها بعضاً ، فأصبحت بمثابة ذاكرة صامتة. وبعبارة أخرى يقول أن القوة التي استبدعها النظام السائد

ربح العسل والسكر من هذه الحرفة فاختارها بغير تردد في سنة ١٢٧٠ هـ في شعبة علمه وتولاهم مرور

والله اعلم بالصواب فانقلب بغير الله اذن القرعة الجنيح من نجرته الى الفجرين والاسم عشرين اذنا.

[illegible]

ولقد رأينا ساجداً في أبي قحلا سفا لحدود في الحلة بالحق في ساجداً فيه  
لاحظ فوكوه أن «الاعتراب» هو الصفة الرئيسية للفكر المعاصر. وإذا  
كانت نفسانية كما نلاحظ في كثير من الأحيان، فإنها لا تعني بالحق في ساجداً فيه  
كان «الجنون الباثولوجي» يسر «محاذاً للطبيعة وفقاً للمسار العادي للتاريخ»  
(٧٠١) لم يكن الفلاسفة الذين كتبوا في هذا الموضوع أن يلاحظوا أن هذه الصفة  
ويرتبط دائماً بالحضارة ومثلها (١٠٥)، فإن الاعتراب إنما يتمثل في الخبرة  
موسمها كما هي في دبا، تدعى كما هي في دبا، تدعى كما هي في دبا، تدعى كما هي في دبا

(١٠٣) نفس المرجع ، ص ٣٨١ .

(١٠٤) نفس الموضع .

(١٠٥) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٣٨٥ . - سفيلا (٧٠١)

التي ترتد إلى جلدور صيقة في الزمان ، أى تسير في اتجاه معاكس لاتجاه الزمان ، وتظهر بوضوح عند امثال هولدرلن Hölderlin الشاعر الألماني (١٧٧٠ - ١٨٤٣) ، ودى نيرفال Nerval (١٨٠٨ - ١٨٥٥) ، والفيلسوف نيتشة (١٨٤٤ - ١٩٠٠) .

وإذا كان الجنون في العصر الكلاسيكى قد فهم على أنه «لا وجود» ، فإنه في العصر الحديث لا يزال يحتفظ بطبيعة تجعله في غير متناول النظرة الموضوعية . إذ عندما نواصل البحث عن ماهيته الدفينة ، فإننا لا نضع أيدينا إلا على لغة العقل وقد طبقت على منطق الهذيان *logique du délire* . وهذه اللغة التي تهدف إلى كشف طبيعته إنما تتجاوزه إلى شئ آخر هو الطبيعة الإنسانية ذاتها . فالإنسان وهو في كامل عقله يمكنه أن يرى - من خلال الجنون - حقيقته الملموسة والموضوعية . وهذه الحقيقة تتناقض مباشرة مع الحقيقة الأخلاقية والاجتماعية (١٠٦) .

ويلاحظ فوكوه أن تناقض علم النفس الوضعى في القرن التاسع عشر إنما يرجع إلى أنه يبدأ - منهجياً - من لحظة نفى *un moment de négativité* . فعلم نفس الشخصية بدأ من تحليل ازدواج الشخصية ، وعلم نفس الذاكرة يبدأ من أمراض فقدان الذاكرة ، وعلم نفس اللغة يبدأ بأمراض النطق ، وعلم نفس الذكاء يبدأ بالضعف العقلى . وكأن حقيقة الإنسان لا تتكشف إلا لحظة اختفائها ، أو كأنها لا تظهر إلا بعد أن تصبح شيئاً آخر مخالفاً لداها (١٠٧) .

وحيث أن علم النفس لا يمكنه أن يتكلم إلا لغة الاغتراب ، فإنه لا يصلح

---

(١٠٦) نفس المرجع ، ص ٥٤٥ .

(١٠٧) نفس الموضع .

إلا لنقد الإنسان أو لنقد ذاته ، وهو دائماً بطبيعته في مفترق الطرق : فهو يعمق سلبية الإنسان إلى أقصى حد ، فيلتقي الحب بالموت والنهار بالليل مما يدفعنا إلى التفلسف . وهو بهذا ، وينفيه للوجود en niant l'être إنما يكون جزءاً من جدل الإنسان الحديث الذي يبحث عن حقيقته . وهذا يعني أنه لن يرقى إلى مستوى المعارف الحقيقية (١٠٨).

ويتضح مما تقدم أنه إذا كان المشروع الديكارتي le projet de Descartes يتلخص في تحمل الشك مؤقتاً حتى ظهور الحقيقة في الفكرة المتميزة ، فإنه لم يعد من الضروري في الفكر المعاصر أن نعبر مواطن الظن من هذيان وحلم ووهم حتى نصل إلى الحقيقة . كما أنه لم يعد من الضروري أن نتغلب على مخاطر الجنون . فقد ظهرت إمكانية فهم العالم في هذيان مجمع une illusion équivalent à un délire qui totalise وفي وهم يتساوى مع الحقيقة la vérité (١٠٩) .

وهنا يتضح للهذيان معنى جديد بعد أن كان يعرف في إطار الخطأ . كما تظل القرابة بينه وبين الحلم قائمة . وهما لا يسبحان الآن في ليل بهيم ، بل يسبحان في هذا الوضوح clarté الذي يتجلى في المواجهة المباشرة بين الوجود l'être وبين ما يكمن تحت سراب الظواهر من ترتيب ونظام . ولقد كانت هذه المواجهة المساوية هي الملامح التي بشرت بمجيء فرويد ونيتشه (١١٠) .

---

(١٠٨) فوكو : «تاريخ الجنون» ، ص ٥٤٩ .

(١٠٩) نفس المرجع ، ص ٣٦٩ .

(١١٠) نفس الموضع .

وإذا كان من الممكن أن نتعرف على الاغتراب في « تلك اللحظة التي تتجاوز كل تعبير ، وهي اللحظة التي يخرج فيها الفرد عن ذاته كي يتصل بالأعماق الدفينة في العالم ، فإن هذا يعني أن حقيقة العالم إنما تلتبس داخل فراغ مطلق un vide absolu يتقابل الانسان فيه مع حقيقته » (١١١).

ولم يكن خروج الفرد عن ذاته وتقابلها مع حقيقته إلا «هرباً للأنا من الأغيار» (١١٢). " Expulsion de l' autre hors de la raison " . وهذا الهرب هو التجربة الحقيقية للمعرفة ، وهو أيضاً تعبير عن التجربة الحقيقية للجنون . « فالجنون ليس مجرد موضوع » معرفة فحسب ، بل هو « أداة » أو « وسيلة » معرفة كذلك » (١١٣) .

وفي ختام هذه الدراسة عن الجنون يؤكد فوكوه صراحة على أن حقيقة الإنسان لا تتكشف إلا مع خطر الجنون (١١٤). La vérité de l' homme . nc s' ouvre que dans le désastre de la folie . فمن ظلام الجنون ينبثق ضياء الحقيقة . ألم يصبح نبش قاتلا : « أنا الحقيقة » عندما أصابه الجنون سنة ١٨٨٧ ؟ ( ١١٥ ) .

« إن الانسان المعاصر لا أمل له في الكشف عن حقيقته إلا من خلال « لغز » المحنون الذي هو ذاته وغير ذاته في نفس الوقت . وإذا كان بيارستان يبينيل قد

---

(١١١) فوكوه : « تاريخ الجنون » ، ص ٣٧٠ .

(١١٢) F. WAHL : "Le structuralisme en philosophie" Op cit., P. 367.

(١١٣) زكريا ابراهيم : « مشكلة البلية » ، ص ١٣٠ .

(١١٤) فوكوه : « تاريخ الجنون » ، ص ٥٤٨ .

(١١٥) نفس المرجع ، ص ٥٨١ .

حرر المجنون من أغلاله اللاإنسانية فهو إنما يقيد معه الإنسان وحقيقته» (١١٦).  
 وإذا تساءلنا عن أهم النتائج التي تمخضت عنها هذه الدراسة ومدى  
 نجاحها في مسيرة المنهج الذي وضعه فوكوه فإننا نلاحظ ما يلي :-

أولاً : أثبت فوكوه أن التعرف على الجنون ظاهرة ثقافية تتغير  
 حسب متغيرات العصر أو على الأحرى حسب ما يرتضيه لها الاستعداد المعرفي  
 السائد «الابستميه». وإذا كان الطب النفسي في القرن التاسع عشر - وربما  
 حتى وقتنا هذا - يعتقد أنه يتخذ إجراءاته بالنسبة للإنسان العادي l'homme  
 normal ، فإن «الإنسان العادي» هو مجرد اختراع . وإذا كان لابد من تحديد  
 مكانه ، فإن ذلك لا يكون بالنسبة للمجال الطبيعي l'espace naturel بل  
 بالنسبة للمجال الاجتماعي . وبناء على ذلك ، فإن المجنون لا يعترف بمجنونه  
 لأنه انحراف نحو حافة «العادية» normalité بسبب مرض أصابه ، بل لأن  
 ثقافتنا وضعته في نقطة الالتقاء بين القرار الاجتماعي بالعزل وبين المعرفة  
 القانونية التي تحدد القدرات . وهنا نلاحظ أن هذا التأليف synthèse بين  
 الجانب الاجتماعي وبين المعرفة القانونية للقدرة هما بمثابة القبلي الملموس  
 l'a priori concret لعلم الطب النفسي (١١٧).

ثانياً : إن ما جعل هذا العلم ممكناً في زمانه هو نسق من العلاقات بين  
 مفاهيم عديدة : منها ما يتصل باستقبال المرضى أو عزلهم ، ومنها ما يتصل  
 بقوانين الاستبعاد exclusion وقواعد التشريع ، ومنها ما يتصل بمعايير

(١١٦) نفس المرجع ، ص ٥٤٨ .

(١١٧) نفس المرجع ، ص ١٤٧ .

العمل في المجتمع الصناعي والأخلاق البورجوازية . وباختصار نقول أن ما جعل هذا العلم ممكناً هو كل ما تميز به تكوين المنطوقات داخل هذه الممارسة المقالية .

ثالثاً : بين فوكوه أن هذه الممارسة المقالية لا يقتصر ظهورها فقط على هذا العلم ، بل اننا نجدتها كذلك في نصوص قانونية وتعبيرات أدبية وقرارات سياسية وتصريحات يومية وآراء خاصة ، وحتى في التفكير الفلسفي ذاته .

رابعاً : قدم فوكوه وصفاً لتاريخ « الجنون » نفسه – لا تاريخ « الطب النفسي » . وقد كانت هذه المحاولة هي الأولى من نوعها لأنها تبحث فيما يلتف حول فكرة الجنون من عناصر متغايرة يتكون منها البناء الثقافي في الحقب المنطوقية المختلفة . وأثبت فوكوه أن تاريخ الجنون بصفة عامة لا يمكنه بأي حال أن يكون تبريراً أو علماً مساعداً لباثولوجيا الأمراض العقلية . فهذا الأخير هو بمثابة ظاهرة ثقافية تخص العالم الغربي ابتداء من القرن التاسع عشر . ولم يكن امتداداً لأي علم آخر سبقه يمكن أن يقارن به .

خامساً : لم يقم فوكوه بعمل هذا التاريخ على مستوى تتابع الاكتشافات أو على مستوى تاريخ الأفكار بل بتتبع البناءات الأساسية للخبرة les structures de l'expérience .

سادساً : إذا كان علم النفس الباثولوجي قد اكتشف « الشعور بالذنب مختلطاً مع المرض العقلي ، فقد أثبت فوكوه أن هذا الشعور قد أدخل بواسطة العمل التحضيرى الذى قام به العصر الكلاسيكى . وهذا يشير إلى أن الأركيولوجيا تبحث فيما وراء المعطيات الفينومينولوجية عن « أساسات سفلية »

.. تكون على مستوى غير المتعقل l'impensé



ويظهر لنا من هذه النتائج أن ميشيل فوكوه كان موقفاً في تطبيق أساسيات منهجه على دراسة الجنون . ولم يكن المهم في هذا الصدد هو « كل تلك الوقائع العديدة » التي استطاع فوكوه أن يكشف النقاب عنها (خلال قرون ثلاثة ، امتدت من العصر الوسيط حتى القرن الثامن عشر ) ، بل المهم هو المنهج البنيوي (البنائي) الدقيق الذي اصطنعه فوكوه في دراسته لتلك الكثرة الهائلة من الوقائع (١١٨).

وسنرى في الفصل القادم تطبيقاً للمنهج البنائي الأركيولوجي على قطاع آخر من الظواهر البشرية يتصل بالمرض وطرائق العلاج الإكلينيكي .

---

(١١٨) زكريا ابراهيم : «مشكلة البلية» ، ص ١٣١ .



# الفصل الخامس

مولد العيادة ونشأة علم الطب

- ١ - الطب والفلسفة .
- ٢ - طب الأجناس . espèces .
- ٣ - الطب والسياسة .
- ٤ - تعثر ظهور العيادة .
- ٥ - تغير نمط الإدراك .
- ٦ - معنى النظرة الطبية .
- ٧ - البناء اللغوي للعلامات .
- ٨ - إدراك الحالات .
- ٩ - نشأة الطب الحديث .
- ١٠ - الحياة الباثولوجية وفلسفة المذهب الحيوي .
- ١١ - الطب الحديث بعد «بيشا» Bichat .



## مولد العيادة ونشأة علم الطب

الطب والفلسفة :

إن كتاب ميشيل فوكوه الموسوم باسم «مولد العيادة» *Naissance de la clinique* ليس إلا محاولة لتطبيق المنهج الأركيولوجي في مجال سبق أن طرقه علم تاريخ الأفكار هو مجال الطب «الكلينيكي». وتنصب الدراسة في هذا المؤلف على فحص مناهج الملاحظة الطبية خلال فترة زمنية لا تزيد عن نصف قرن (أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر). وهذه الفترة يقول عنها فوكوه أنها عتبة زمنية لا تمحى *UN ineffacable seuil chronologique*: إذ لأول مرة منذ آلاف السنين يتخلص الأطباء من النظريات ومن الخزعبلات ، ويواجهون موضوع بحثهم اعتماداً على النظرة الخاصة. فما كان غير مرئي *invisible* ينفتح فجأة أمام الرؤية الواضحة وذلك بسبب تغير مستوى الرؤية وبفضل الحدود الجديدة بين المرئي وغير المرئي (١).

غير أن هذا لا يعنى أن المعرفة الطبية لم تتكون على سرير المريض إلا في نهاية القرن الثامن عشر، إذ أن هذه المعرفة العيادية كانت دائماً بمثابة المنبع الأول والمحك الثابت على ممر العصور. أما الذى اتصف بالتغير فهو على الأحرى تلك الشبكة *la grille* التى تمر من خلالها المعرفة الطبية، وألتي تقدم المعرفة في شكل عناصر مقالية قابلة للتحليل. وهذا التغير لم يكن يشمل فقط أسماء الأمراض وتصنيف الأعراض ، بل كان يضم كذلك قواعد الإدراك الأساسية التى كانت تطبق في ملاحظة المرضى وأيضاً المجال أو الموضع الذى تنصب عليه الملاحظة ، وعلى الجملة فقد كان يضم كل ما يمكن أن نسميه نسق النظرة الطبية *Système du regard médical*.

---

(1) M. FOUCAULT: "Naissance de la clinique", (P. U.F. 1963), (١) P. 199.

ففى فجر البشرية كان الطب يكمن فى العلاقة المباشرة بين آلام المريض وبين ما يخفف هذه الآلام . وهذه العلاقة يحددها الإحساس وتحتها الغريزة قبل أى تجربة ، كما يقيمها الفرد بنفسه ولنفسه قبل أن تتخذ بعداً اجتماعياً . فإحساس المريض يعلمه أن يتحرك فى الوضع الذى يخفف آلامه . وهنا تنتقل الخبرة الإكلينيكية من إنسان لآخر ومن الآباء للأبناء قبل أن تتحول إلى معرفة . ويرى فوكوه أن هذا الوقت كان هو العصر الذهبي للمعرفة الطبية . أما الإضمحلال ، فقد بدأ مع الكتابة l'écriture والأسرار les secrets : أى مع انتقال المعرفة الطبية إلى «المتخصصين» . كما جاء هذا الإضمحلال بسبب الفصل بين النظرة regard والقول parole ، أو بين الرؤية والمعرفة le voir et le savoir (٢) .

وباختصار ، يمكن القول بأن تاريخ هذا الإضمحلال إنما يبدأ مع أبقراط Hippocrate أكبر أطباء الإثريق فى العصور القديمة (٤٦٠ ق. م - ٣٧٧ ق. م) .

وعلى الرغم من أن الطب الاغريقى فى القرن الخامس لم يكن سوى تقنين codification للخبرة الاكلينيكية العامة والمباشرة ، وهو بالتالى يتصف ببساطتها ونقاؤها ، إلا أنه بسبب هذا التقنين ذاته شهدت الخبرة الطبية بعداً جديداً يتلخص فى وجود معرفة عمياء لأنها ابتعدت عن النظرة . un savoir aveugle, puisqu'il est sans regard .

ويلاحظ فوكوه أن هذه المعرفة العمياء ربما سمحت بتسلسل الميتافيزيقا إلى الطب . وهو يستشهد بعبارة للباحث «مسكاتى» MOSCATI يقول فيها إن الفلسفة قد تسالت فعلا إلى الطب كما انعدمت الملاحظة بعد أن تحول

---

(٢) فوكوه ، «مولد العادة» ، ص ٥٤ .

الطب إلى نسق على يد أبقرات (٣) .

ولقد كان هذا كله بداية لتعدد الفرق المتعارضة والمتناقضة ، كما سمح بظهور تاريخ طويل للأنساق. ويرى فوكوه أنه ، «تاريخ يلغى ذاته لأنه لا يحتفظ للزمان إلا بآثاره المدمرة» ، (٤). ويمكن تحت هذا التاريخ المدمر تاريخ آخر أكثر وفاء للزمان لأنه أكثر قرباً من حقيقته الأزلية ، وتنضوى تحته حياة بلا ضجيج يعيشها الفن العلاجي *la clinique* (٥)

إن الفن العلاجي يظل قريباً من الأشياء . وهو يعطى للطب حركته التاريخية الحقيقية . كما يعمل — بما يضيفه من خبرة على نحو الأنساق وعلى تأكيد حقيقته . وهكذا يظهر استمرار خصب بضمن للباثولوجيا طبيعة متصلة *Uniformité ininterrompue* في مختلف العصور (٦) .

طب الأجناس :

لما كان العصر الكلاسيكي هو «عصر الأنساق» أو «الحقبة» التي فصلت الكلمات عن الأشياء ، لذا فقد استهدفه فوكوه لكي يكشف عما اشتهر به من طب يفصل بين المرض وبين مكان الألم في الجسم وهو ما سمي بالطب التصنيفي *la médecine classificatrice* أو طب الأجناس *la médecine des espèces*.

ويرى فوكوه أن هذا الطب كان ينظر الى الأمراض في تصنيف هرمي

---

(3) P. MOSCATI, : "De l'emploi des systèmes dans la médecine pratique" (trad. fr., Strasbourg, an VII), PP. 4—5.

ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٥٥ .

(٤) فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٥٥ .

(٥) نفس الموضوع .

(٦) " ، ، ،

يشتمل على أنواع وأجناس قبل أن ينظر إليها في الجسد . وهو يستشهد بالقول المشهور الذى كان يردده حكماء ذلك العصر : «لا تعالجوا أى مرض دون أن تتأكدوا من جنسه» (٧) . والطب التصنيفى لا يتعرض لأسباب أو لعلل . لأنه يتناول مجالا متجانسا *espace homogène* يخلو من أى تسلسل : فالالتهاب الموضعى ليس سوى المجموع المتجاور لعناصره وهى الاحمرار والورم والحرارة والالم ، دون أن يؤخذ فى الاعتبار ما بين هذه العناصر من علاقات حتمية متبادلة .

يقول أحد أطباء القرن الثامن عشر وهو Th. Sydenham :  
«ينبغى على من يكتب تاريخ الأمراض أن يلاحظ بانتباه الظواهر الواضحة والطبيعية للأمراض بقدر ما يبدو لها من أهمية . وهو فى هذا ينبغى أن يقلد الرسامين الذين عندما يقومون بعمل صورة لشخص أو لشيء ، فانهم يكونون على حرص زائد فى بيان مختلف الرموز وأيضا أدق الأشياء الطبيعية التى يجدونها على وجه الشخص أو الشيء الذى يرسمونه» (٨) .

ويقوم الطب التصنيفى أيضا على اعتبار أن نظام المرض ليس سوى انعكاس لنظام العالم بما يحتويه من موجودات .

(7) GILBERT, "L'anarchie médicale", (Neuchâtel, 1772), t.I, P. 198.

ذكره فوكود : «مولد الميادة» ، ص ٢ .

(8) Th. Sydenham : "Médecine pratique", (trad. JAULT, Paris, 1784), P. 88.

ذكره فوكود : «مولد الميادة» ، ص ٤ .



يقول سيد نهام : «إن من يلاحظ باهتمام بداية ظهور الحمى ، وما يصاحبها من أعراض . سيكون لديه من الأسباب ما يؤكد أن هذا المرض هو جنسى *espèce* ، يقال عنه ما يقال عن جنس النبات ، لأن جنس النبات ينمو و يفتح ثم يذبل دائماً على نفس الوتيرة » (٩) .

ويظهر مما تقدم أن المرض ليس تصوراً ضد الطبيعة *Contre-nature* . إن من يتدف ضد الطبيعة بحث إنما هو المريض نفسه وذلك لأنه يشوه طبيعة المرض . فالمريض يضيف إلى «ماهية المرض» سنه وظروف معيشته ومجموعة من الأحداث هي كالأعراض بالنسبة للماهية . والطبيب عليه أن يقوم إذن بعملية تجريد إذا أراد أن يعرف حقيقة المرض ، أى يقوم «باستبعاد الأعراض المصاحبة التي تنتج عن ظروف المريض أو سنه أو حالته المزاجية» (١٠) . غير أن الطبيب هو الآخر إنما يتدف ضد الطبيعة إذا كان يجهل طبيعة المرض أو إذا انحطت الترقيت الملائم للعلاج ، فيأقى المرض على غير عادته ويتعذر علاجه . أما في حالة انتشار المرض فإن على الطبيب أن يترث ذلك لأن «بدايات المرض إنما تهدف إلى إظهار مرتبته *sa classe* وجنسه *son genre* ونوعه *Son espèce* » . وأما إذا انتشرت الأعراض وقويت ، فيمكن أن نقلل من شدتها وشدة آلامها (١١) .

لابد إذن من حياد (أو محايدة) المريض والطبيب حتى يتضح المرض في

---

(9) Ibid., P. 124—125.

ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٥ .

(١٠) نفس الموضع - ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٦ .

(١١) «مولد العيادة» ، ص ٧ .

صورته الملموسة داخل لوحة ثابتة *un tableau immobile* وأنيق *simultané* وخالية من الأسرار . وهذا هو ما يبرر . المعرفة الطبية العقلانية ، كما يبرر الاتجاه نحو التقليل من دور ساسة . (١٢) .

وثأنى غرابة هذه النظرة الطبية من أنها تدور في حلزون لا نهاية له *une spirale infinie* ، «فهي تتعرف (على طبيعة المرض أولاً) لكي تعرف» (١٣) . *Il doit reconnaître pour connaître* . وهي تتقنقر إذا تقدمت ، وذلك لأنها لا تتوصل الى حقيقة المرض الا إذا تركته يطغى ، كما أنها تهرب أمامه حتى ينسئ لمظاهره أن تكتمل وحتى تستقر طبيعته (١٤) .

كما تأنى غرابة هذه النظرة الطبية أيضا من أنها تعتبر أعضاء الجسم بمثابة الدعامة القوية للمرض وإن لم تكن الشرط الضروري لوجوده . فقد جاء في «دائرة معارف القرن الثامن عشر» أن الاسمابة بالشلنج يمكن أن تنتقل إلى أسفل البطن وعندئذ قد يتسبب عنها سوء الهضم ، كما يمكنها أن تنتقل إلى الصدر ويتسبب عنها اختناق . أما اذا انتقلت إلى الرأس ، فقد تسبب التردى في غيبوبة تامة (١٥) . وهذا يعنى انتفاء وجود أمراض تصيب أعضاء محددة لأن المرض له ما هية مفارقة للأعضاء .

والعصر الكلاسيكى يتصور المرض على أن له طبيعة فطرية *nature «sauvage»* هي طبيعته الحقيقية وهي التى تحدد مساره الحر بعيدا عن تدخل الطب .

(١٢) نفس المرجع ، ص ٨ .

(١٣) نفس الموضع .

(١٤) نفس الموضع .

(١٥) «مولد المياعة» ، ص ص ٨-٩ .

غير أنه : كلما تعتد المجال الاجتماعي الذي ينشأ فيه المرض ، كلما تجرد هذا الأخير عن طبيعته . فالشعوب لم يكن لديها من الأمراض إلا ما كان بسيطاً و ضرورياً وذلك قبل أن تعرف المدنية . فلم يكن لديها مثلاً هذا العديد من الأمراض العصبية المتنوعة والمعقدة (١٦) . وكلما تعددت أسباب الحضارة والمدنية ، وتعقدت الحياة الاجتماعية ، كلما تدهقر معدل الصحة (١٧) .

وكان العصر الكلاسيكي يرى في المستشفى مكاناً مستحدثاً ومصطنعاً ، ففيه يفقد المرض صورته الأساسية ، ويواجه بمضاعفات يسميها الأطباء حمى السجون أو المستشفيات *fièvre des prisons ou des hôpitaux* ومن أعراضها ضعف العضلات وجفاف الحلق (١٨) . وبوجه عام فإن اختلاط المرضى داخل المستشفى كان من شأنه أن يغير من طبيعة المرض ويجعل التعرف عليه صعباً . يقول ديبون Dupont : « لا وجود لمرض خالص داخل المستشفى » (١٩) . *Aucune maladie d'hôpital n'est pure* .

أي أن المستشفى ، بالإضافة إلى تغييره لطبيعة المرض ومساره ، فإنه قد يضيف إلى المريض أمراضاً جديدة تستلزم وجود الطبيب الخلد الذي يتجنب

---

(١٦) Tissot, "Traité des nerfs et de leurs maladies", (Paris, 1778-1780), t. II. pp. 432-444.

(ذكره فوكوه : «مراد المبادئ» ، ص ١٥).

(١٧) Tissot "Essai sur la santé des gens du monde". (Lausanne, 1770). PP. 8—12.

(ذكره فوكوه : نفس الموضع) .

(١٨) Tenon, "Mémoires sur les hôpitaux " (Paris, 178١), P. 451.

(ذكره فوكوه ، نفس المرجع ، ص ١٦) .

(١٩) Dupont De NEMOURS, "Idées sur les secours à donner" (Paris 17 86), PP. 24—25.

(ذكره فوكوه ، نفس الموضع) .

الانسياق وراء تلك الأمراض الزائفة .

إن المكان الطبيعي للمرض هو المكان الطبيعي للحياة، أى داخل الأسرة، فالرعاية التلقائية والرغبة المشتركة فى الشفاء لا تتوفران الا داخل الأسرة . وبدخلها تتضمن جميع الظروف لمساعدة الطبيعة التى تكافح ضد المرض ومساعدة المرض ليتخذ مساره على طبيعته .

وإذا كان طبيب المستشفى لا يرى سوى أمراض زائفة ومتغيرة ، فإن المعالج بالمنزل إنما يكتسب فى فترة وجيزة خبرة حقيقية. تتركز على المظاهر الطبيعية لجميع أجناس الأمراض (٢٠) .

ويتضح مما تقدم أن طب الأجناس يفترض مجالا حرا libre spatialisation خاليا من الضغوط الاستشفائية des contraintes hospitalières وبالتالى يسمح للمرض بأن يظهر ماهيته الحقيقية ، وأن يتصل إلى نهاية مساره الطبيعى : فلما الموت الذى لا مفر منه ولما الشفاء الذى يمكن تحقيقه اذا لم نتدخل فى المسار الطبيعى للمرض (٢١) .

ويلاحظ فوكوه أن تحليلات الاقتصاديين فى القرن الثامن عشر إنما تلتقى مع أفكار الطب التصنيفى فى الخطوط العريضة . فهذه التحليلات الاقتصادية لم تكن تحبذ إنشاء دور الاستشفاء وترى أنه من الخطأ (اقتصاديا) أن تتركز الرعاية الاجتماعية على رأس مال ثابت تنشأ به مستشفيات أو بيوت للعزل (على نحو ما بينا فى الفصل السابق) ، لأن فى هذا تشجيعا للفقراء على الكف عن السعى ويعود بالتالى على الأمة بالفقر . لذا ، فإن فى العمل على

(٢٠) فوكوه : «مولد العماد» ، ص ١٦ .

(٢١) نفس المرجع ، ص ١٧ .

تشغيل الفقراء نجدة لهم ورعاية دون أن يؤثر ذلك على اقتصاد الدولة .

ان المريض لا يقدر على العمل . غير أنه إذا وضع في المستشفى فإنه يشكل عبثاً مضاعفاً على المجتمع لأن الرعاية التي يلغاها تفيدته هو فقط ، بينما الأسرة التي كان يرعاها تتعرض بدورها للبؤس والمرض . أما اذا ترك المرض في المجال الذي ظهر فيه ، فإنه لا يمكن أن يتضاعف ، وسيخبو كما ظهر من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن العون المادى الذى يخصص له داخل المنزل سيعوض الفقر الذى يحدثه . يقول ديون :

«إن اللحم الذى أستخدم فى صنع حساء المريض سيأكله أطفاله ، كما أن الوقود المستخدم فى تدفئة شرايه سيدفئ أطفاله فى نفس الوقت» (٢٢) .

وقد لوحظ أن الطب الذى يعتمد على النظرة الفردية ، والمساعدة العائلية ، والرعاية فى المنزل ، كان عليه أن يركز على تأييد وإشراف المجتمع بأسره . وهنا ندخل فى صورة جديدة ربما لم تكن معروفة طوال القرن الثامن عشر .  
وهى المجال المقنن إجتماعيا للمرض Spatialisation institutionnelle de la maladie . وبفضل هذه الصورة الجديدة سيختفى طب الأجناس .

الطب والسياسة :

فى أواخر القرن الثامن عشر تكفلت الدولة بتعيين أطباء فى الأقاليم المختلفة وبدأت تتدخل فى المسائل المتصلة بصحة الجمهور . كما تدخل رجال

---

(22) Dupont de NEMOURS, op. cit., pp. 14 — 30.

ذكره فوكوه : «مولد العياده» ، ص ١٨ .

الشرطة لمنع انتقال المواد الغذائية الملوثة من مكان إلى آخر . وكان الأمر يتطلب أحيانا طبع بيانات وإرشادات للوقاية من الأمراض كانت تقرأ على الناس في صلواتهم في الكنائس وفي المناسبات المختلفة . ومن هنا ظهرت الحاجة الى تكوين وعي طبي على مستوى الدولة مكلف بمداومة الإعسلام والمتابعة والضغط .

لقد بدأ العمل الأول للطبيب وكأنه عمل سياسي بالدرجة الأولى . فكفاحه الأمراض ينبغي أن تبدأ بإعلان الحرب على الحكومات الفاسدة ، والإنسان لا يشفى نهائيا من أمراضه إلا إذا تحرر أولا . ويتساءل لانتينا LANTHENAS في كتابه المرسوم باسم «تأثير الحرية على الصحة» (٢٣):

«من الذى يكشف المستبين ويعرهم أمام الملاء أكثر  
من الأطباء الذين يتخذون من الانسان موضوعاً أوحداً  
لدراساتهم ؟ ومن غير الأطباء يمر يوميا على الفقير  
والغنى والحاكم والمحكوم ، فيتأمل بؤس البشرية ،  
ويدرك أن المصدر الأول لهذا البؤس هو الاستبداد  
والعبودية ؟»

إن الاعتقاد السائد في أعقاب الثورة الفرنسية بوجه عام كان يركز على أن المجتمع الحر تنقلص فيه الفوارق بين الطبقات كما يسود فيه الوفاق . ويصبح عمل الطبيب قاصرا على إعطاء المواطن والمشرع بعض النصائح التي تفيد توازن الصحة والجسد . وهنا تنعدم الحاجة الى المستشفيات ، وتنمحي

---

(23) LANTHENAS, "De l'influence de la liberté sur la santé.  
(paris, 1792), p. 8.

ذكره فوكوه : نفس المرجع ، ص ٣٢ .

من الأذهان صورة الطبيب ، ويبقى في الذاكرة ذلك العهد البائد الذي ساد فيه الملوك وأصحاب الثروة ، وعاشوا على حساب العبيد والفقراء والمرضى (٢٤) .

وقد ظهرت ثمرة هذه المعتقدات في التشريع ذاته . ففي سنة ١٧٩٣ أى بعد عام واحد من ظهور كتاب «لانتينا» سالف الذكر ، وافقت الهيئات التشريعية في فرنسا على إلغاء المستشفيات وإلغاء الملاجئ (٢٥) . فالمرض هو حادث فردى ينبغى أن تتولاه الأسرة أما الفقر فهو ظاهرة إقتصادية ينبغى أن تتصدى لها الرعاية الاجتماعية l'assistance .

وفي المناقشات البرلمانية التي دارت في فرنسا في تلك الفترة ، نجد أحد الخطباء هو بارير Barère يصدر صيحته المشهورة «لا صدقات ولا مستشفيات» «plus d'aumônes, plus d'hospitaux» (٢٦) .

وعلى الرغم من كل ذلك ، فإن فكرة إلغاء المستشفيات التي أيدها التشريع والتي كانت مرتبطة باتجاه أيديولوجي يرمى إلى الخنأ على كرامة الإنسان وتخليصه من شقاء المرض والفقر ، نقول إن هذه الفكرة لم يكتب لها أن تتحقق لأن ظروف العصر لم تكن تسمح بإلغاء المستشفيات أو الملاجئ . وسيأتى إيفساح ذلك فيما بعد .

تعبّر ظهور «العيادة»

إذا كانت العيادة هي مؤسسة علاجية وتعليمية يتطابق فيها المرئى والمنطوق

(٢٤) فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٣٤ .

(٢٥) نفس المرجع ، ص ٤٣ .

(٢٦) نفس الموضوع .

أو الرؤية والكلام ، وإذا كانت هذه العيادة لا تتحدث عن مرض إلا إذا كان مريثا ومنطوقا في نفس الوقت ، فإن عيادة القرن الثامن عشر قد تعثر ظهورها أو تعذر بسبب غياب أنموذج متناسق وموحد لتكوين الموضوعات objets والمدرجات perceptions والتصورات الطبية concepts médicaux (٢٧) .

وإذا كان ظهور العيادة فيما بعد قد ارتبط في أذهان كثيرين بظهور «الليبرالية» العلمية والسياسية والاقتصادية ، فإن ميشيل فوكوه يبين على العكس أن هذه الأيديولوجيا هي التي ظلت لسنوات عديدة عقبة كؤود أمام تنظيم الطب الاكلينيكي وتقدمه (٢٨) .

ففي أعقاب الثورة الفرنسية كان بوكيه Bouquier عضو لجنة التعليم العام بفرنسا يفرق بين «المعارف الضرورية للمواطن» والتي بدونها لا يمكن أن يصبح مواطنا حرا ، وبين «المعارف الضرورية للمجتمع» . ورأى بوكيه أن الدولة عليها أن تيسر لكل مواطن الحصول على النوع الأول من المعارف تماما كما توفر له الحرية . أما النوع الثاني من المعارف ، وهو العلوم العملية ، فإن الدولة لا يمكنها أن تنظمها أو أن تتدخل في الاشراف عليها (٢٩) .

وفي سنة ١٧٩٠ كتب جالو J.-P. GALIOT في مقال عن «تطوير الفن العلاجي» إن دراسة الطب ينبغي أن تستمر سبع سنوات ، وأن تتضمن دراسة الرياضيات والهندسة والفيزياء والكيمياء وكل ما له علاقة أساسية

---

(٢٧) فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٥١ .

(٢٨) نفس المرجع ، ص ٥٢ .

(٢٩) نفس المرجع ، ص ٥٠ .



بالعلم الطبي . ولم يشر المقال إلى أى اهتمام بالجانب التطبيقى أو البحث الاكلينيكى (٣٠).

وفى نفس السنة قدم كاتن Cantin مشروعا إلى الجمعية الوطنية الفرنسية يطالب فيه بالفصل التام بين العلم النظرى و «الاكلينيكى» على أن يبعث بالأطباء — بعد الانتهاء من العلم النظرى — إلى المستشفيات فى الأقاليم الى جانب الأطباء الممارسين ، فيتم تدريبهم على علاج الكثير من الأمراض . (٣١)

ويرى فوكوه أن هذا الفكر الاصلاحى الذى أعقب الثورة الفرنسية كان غريبا . فقد امتد إشراف الدولة إلى التعليم النظرى فقط . أما الجانب العملى الذى يخضع لفكرة المنفعة الاجتماعية فإنه ظل تماما تحت تصرف المبادأة الخاصة . وفى حين أن التعليم النظرى كان مفتوحا للشعب فى الجامعة ، فإن التعليم داخل المستشفيات كان خاصا Privé وخاضعا لظروف المنافسة ومدفوع الأجر . وهنا لا نجد تطابقا بين اكتساب المعرفة النظرية وبين قواعد تكوين الادراك . فقد ظهر مجال مغلق للمعرفة الملقنة ومجال مغلق على الحقائق التى تكتشف . كما ظهر مكان للحقائق التى تحكم نظرة الطبيب ومكان آخر للخبرات الحرة التى يحتكرها الأستاذ فى المستشفى (٣٢) .

ويظهر مما تقدم عدم وجود بناء يوحد بين صور الخبرة التى تدعمها الملاحظة الفردية والممارسة اليومية للأمراض وبين صور التدريس التى تقوم على تلقين المعلومات النظرية .

(٣٠) نفس المرجع ، ص ٤٦ .

(٣١) نفس المرجع ، ص ٤٧ .

(٣٢) نفس المرجع ، ص ٤٨ .

وهكذا نجد أن النظرة الحرة — في مجتمع أراد أن يتحرر من المرض — كانت معول هدم تعذر بسببه ظهور العيادة (٣٣) .

وإذا أردنا أن نلخص أسباب تأخر الفن العلاجي في القرن الثامن عشر ، فإننا نجعلها فيما يلي : (٣٤)

أولاً : كان البحث الطبي ينحصر في تكوين مجال متناسق لتصنيف الأمراض قبل أن يكون مقرا للتقابل بين طبيب ومريض .

ثانياً : كانت الأمراض المختلفة كالنص للغوى المتناسق ، والمريض هو ما يقرأ من خلاله النص .

ثالثاً : كان دور «الباحث الطبيب» في العيادة هو أن يعمل ما من شأنه أن يكشف عن اسم المرض . وذلك لأن التسمية هي الخطوة الأولى التي تمكن من استنتاج الأسباب والتكهنات . وبمعنى آخر ، فإن النظرة regard التي تفحص جسماً يتألم لا تصل إلى الحقيقة إلا بالمرور على «اللحظة الدوجماتيكية» للإسم ، وهو الذي ينضوي تحته حقيقة مزدوجة هي المرض أولاً ثم استنتاج أسبابه وسبل الخلاص منه ثانياً . ونلاحظ أن النظرة هنا ليس لديها القدرة على التحليل والتأليف ، بل هي معرفة استنباطية .

رابعاً : كان الفن العلاجي يتخذ اتجاهها أوحده ، هو الذي يهبط من أعلى إلى أسفل ، أي من صورة جاهزة للمعرفة إلى حالات مرضية جزئية . ولهذا كانت المؤسسات العلاجية عاجزة عن أحداث أي تغيير في

---

(٣٣) فوكيه : «مولد العيادة» ، ص ٥١ .

(٣٤) نفس المرجع ، ص ٥٨ - ٦٢ .

المعرفة الطبية كما أنها لم تخترع أى جديد فى المقال أو فى الممارسات .  
غير أن السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر قد شهدت بناء جديدا  
للعيادة لا يعتمد فقط على المعرفة المقولة le savoir dit بل ينسحب  
اهتمامه الى الخبرة الطبية برمتها .

تغير نمط الإدراك :

إن التغير الذى أدى إلى ظهور «الابستميه الحديث » 1' Epistémè moderne  
فى القرن التاسع عشر قد حدث عندما حدث تغير فى نمط الإدراك أو  
«عندما بدأ المقال يمر بأعين مفتوحة ».

يقول فوكوه :

«إن العين ، لعلاقتها بالضوء ، إنما تتواصل مع الحاضر  
فقط . وهى تسمح للإنسان بأن يعود إلى طفولته  
(أى يكثر من الاعتماد على معطيات الحس ) ، وأن  
يكشف الميلاد الأبدى للحقيقة. وهذه هى السذاجة الواضحة  
للنظرة، ومنها أشتقت هاتان الخبرتان الأسطورتان عن  
« متفرج غريب فى بلد مجهول » ، و «أعمى منذ  
الميلاد تكشف عيناه للضوء» . ومن هاتين الخبرتين  
تأسست دعامة الفلسفة فى القرن الثامن عشر » (٣٥).

ويكشف فوكوه فى هذا النص عن الاتجاه العام السائد فى نهاية القرن الثامن  
عشر والذى اتصف بميل نحو البعد عن الانساق وتركيز على أهمية النظرة

(٣٥) فوكوه : «مولد العياده» ، ص ٦٤ .

ولعله يقصد هنا انفلتات الحسية وفلسفة كوندريك على وجه الخصوص .

الفاحصة . غير أن لحظة «القطع» لا تتأثر فقط بالأحداث «المقالية» ، بل إن للأحداث غير المقالية دوراً لا يمكن الاستهانة به .

ففى سنة ١٧٩٣ ذهب كثير من الأطباء مع الجيوش الفرنسية المدافعة عن الجمهورية ، وحدث بالتالى عجز كبير فى عدد الأطباء الممارسين . وبذلك اتسع المجال للممارسين غير المعتمدين والمشعوذين الذين شكلوا خطراً كبيراً على المرضى . ولم يكن أمام الهيئات الخاصة وحكام الأقاليم إلا أن يقوموا باستدعاء أطباء العهد الملكى لكى يمارسوا العلاج بالمستشفيات . وبدأ بذلك أول تنظيم لمجال طبي يسميه فوكوه مجالا مختلطاً mixte لأن المستشفى فى ممارستها اليومية إنما تتواصل مع صورة تربوية عامة (هى العيادة) (٣٦). فقد كان عليها أن تستقبل من الشباب من لديهم الاستعداد لأن يتعلموا الطب بالممارسة .

ونلاحظ هنا أن الأمر يتصل باتجاه جديد للأشياء والمعرفة : وهو اتجاه تنكشف فيه المعرفة بذاتها — وعلى وتيرة واحدة — أمام النظرة الفاحصة المحرّبة ، وأيضاً أمام النظرة الساذجة لطالب العلم الطبي . فبالنسبة لصاحب النظرة الأولى والثانية لا يوجد سوى لغة واحدة هى «المستشفى» ، حيث يكون فيها المرضى الممثلون للعلاج بمثابة «وسائل تعليمية ناجحة» . وبذلك يكتمل الاتصال المباشر بين التعليم وبين المجال الملموس للخبرة ، ويتنحى «المقال الدوجماتيقي» الذى نظر اليه كخطوة أساسية فى انتقال الحقيقة كى يترك مكانه لنمط جديد للادراك (٣٧) .

غير أننا ينبغى ألا ننسى أن عدم تدريس الطب بالجامعة هو الذى عجل بظهور مقال يتصف بالجدد ، وذلك من خلال ممارسة تكاد تكون

(٣٦) نفس المرجع ، ص ٦٨ .

(٣٧) نفس الموضع .

عمياء وخاضعة لتحكم الظروف . وهى ممارسة لم تكن تكتفى بأحكام تقريرية constatations ، بل تقوم باكتشافات جديدة (٣٨).

وهذا السعى الحثيث هو الذى سمح بظهور عيادة القرن التاسع عشر . وقبل أن تنتقل إلى الكشف عن نمط الادراك الجديد وقواعده ، نناقش تساؤلين يتصلان بهذا النمط ذاته . والتساؤل الأول يختص بمفهوم الحرية فى الطب ، أما التساؤل الثانى فهو عن السند الأخلاقى الذى يسمح باعتبار المرضى «وسائل تعليمية ناجحة» . ونبدأ بالتساؤل الأول .

يقرر فوكوه أنه ابتداء من سنة ١٧٩٥ أصبحت الفكرة العامة المسيطرة فى الطب هى التفاهة حول العيادة باعتبارها مؤسسة علاجية بتطابق فيها للرئى والمنطوق . فهل كان فى هذا تقهقر إلى الوراء وعودة إلى الرجعية بعد أن كانت الفكرة المسيطرة هى «الطب الخاضع لمفهوم الحرية» ؟ .

ويجب فوكوه عن هذا التساؤل بقوله :

«إن ظهور العيادة كان يعنى بالأحرى إعادة بناء لمبدأ  
«الحرية فى الطب» طبقاً لسياق تاريخى محدد يجعل  
الحقيقة التى تفرض على النظرة هى التى تعرف بناء  
النظم العلمية التى تنتمى إليها» (٣٩).

وهذا يعنى أيضاً أن المقال يمر بأعين مفتوحة — كما سبق أن ذكرنا — دون أن يكون فى ذلك أى إساءة لمبدأ الحرية .

---

(٣٨) نفس الموضع .

(٣٩) نفس الموضع .

وكتب كاباني Cabanis عن تقرير للجنة الخمسة سنة ١٧٩٩ بخصوص  
تشديد الرقابة على ممارسة مهنة الطب :

«إن كل فرد يمارس مهنة الطب دون المرور أمام لجنة  
من الممتحنين ودون النجاح في الامتحانات الخاصة ،  
يعاقب بدفع غرامة أو بالسجن إذا تكرر منه ذلك» (٤٠).  
وهذا يعنى أن الطب قد أصبح مهنة مغلقة une profession fermée ،  
ولا يعد ذلك إساءة لحرية الفرد .

أما المسألة الأخلاقية الهامة التي أثارها فكرة «العيادة» فهي تتلخص فيما  
فيما يلي :

بأى حق يمكن أن يتحول مريض دفعه الفقر إلى التقدم للمستشفى طالباً  
العون ضد المرض والألم ، نقول . بأى حق يتحول هذا المريض إلى موضوع  
ملاحظة إكلينيكية ؟ «لقد التمس المساعدة ، وها نحن نستفيد بما نكتشفه فيه،  
فنكتسب خبرة جديدة تنفعنا في علاج الآخرين » .

ربما كانت فكرة إلغاء المستشفيات قد استهدفت تخليص الفقراء من  
هذه «المهانة» ، إلا أن ظروف العصر لم تكن تسمح بهذا الإلغاء — كما سبق  
أن قدمنا — لأن تعداد البؤساء في مدينة باريس وحدها كان يزيد عن ستين  
ألفاً سنة ١٧٩٥ (٤١) .

وقد كان لابد للإبقاء على المستشفيات من صيغة جديدة لا تتعارض  
مع مبادئ الليبرالية أو ضرورة وقاية المجتمع : فبين الفقراء والأغنياء يوجد

(٤٠) أنظر : «مولد العيادة» ، ص ٧٩ .

(٤١) نفس المرجع ، ص ٨٣ .

نسق معين للالتزام لا يمر بقوانين الدولة بل بعقد عرفى . ويتلخص هذا الالتزام فى ضرورة تحمل الأغنياء لنفقات علاجهم ، بالإضافة إلى ما يخصه بعضهم من هبات للمستشفيات . أما بالنسبة للفقراء ، فالتسليم بأن مرضهم لا يشفى إلا بمساعدة الآخرين وذوى الخبرة يحتم عليهم أن يقدموا أنفسهم طوعية ، وأن يقبلوا بأن تتحول آلامهم إلى علم ومعرفة لصالح المجتمع بأسره (٤٢) .

تلك هى الحدود التى يتبلور فيها هذا العقد العرفى بين الفقراء والأغنياء فى تنظيم الخبرة الإكلينيكية . وننتقل الآن إلى القواعد الجديدة للإدراك .

معنى النظرة الطبية :

إنها ليست نظرة الملاحظ العادى بل هى نظرة طبيب يستمد قدرته ومشروعية عمله من مؤسسة اجتماعية خاصة ، كما أن لديه سلطة اتخاذ القرار .

وتتميز هذه النظرة بأنها لا ترتبط بالشبكة الضيقة للبناء *la grille étroite de la structure* (صورة محددة ، ظروف خاصة : عدد معين ، أو حجم خاص ) ، بل عليها أن تهتم بجميع التغيرات مهما كانت طفيفة (٤٣) .

كما تتميز هذه النظرة أيضاً بأنها لا تكتفى بتقرير مآثره ، إذ عليها أن تحسب احتمالات النجاح أو الفشل . إنها نظرة حاسبة *Il est calculateur* . ويرى فوكوه أن المعرفة الطبية إذا حققت نجاحاً فى نهاية القرن الثامن عشر ، فإن مرد ذلك إلى الإنسان العارف الذى يتغير ويعمل على نمط جديد . فلم يتغير مفهوم المرض أولاً ثم تبع ذلك تغير النظرة إليه ، بل إن هذا التغير قد شمل

(٤٢) نفس المرجع ، ص ٨٥ .

(٤٣) نلاحظ أن هذه النظرة تتعارض تماماً مع نظرة طب الأجناس .

علاقة المرض بالنظرة التي يستسلم لها والتي يكونها في نفس الوقت . وعلى هذا المستوى ، نلاحظ أنه لا تميز بين نظر وعمل ، أوبين منهج ونتيجة ، بل ينبغي أن نقرأ البناءات العميقة التي تربط الحال والنظرة بما يسميه فوكوه قواعد المعرفة les codes du savoir (٤٤). ويدرس فوكوه هذه التواعد في قسمين كبيرين هما : البناء اللغوي للعلامات وإدراك الحالات .

### البناء اللغوي للعلامات : La structure linguistique des signes

إن الأعراض symptômes هي الصورة التي يظهر عليها المرض، وهي صورة ثابتة لا تتغير une figure invariable مرئية وغير مرئية في نفس الوقت visible et invisible ، حاضرة ومختصة ، كما تتميز بأنها ظواهر شفافة (٤٥). يقول بروسونيه Broussonnet في كتابه «الصورة الأولية لنظرية الرموز» :

«إن أى تغير ملموس في الجسم السليم أو المريض يسمى ظاهرة ، ومن هنا كان لدينا ظواهر صحية وظواهر مرضية . والظواهر المرضية هي الأعراض ، والعرض ليس ظاهرة طبيعية تتصف بالسلبية لأنه دال signifiant على المرض» (٤٦).

(٤٤) فوكوه : «مولد العياده» ، ص ٨٩ .

(٤٥) نفس المرجع ، ص ٩٠ .

ونلاحظ أن العرض هنا يخلع عليه فوكوه معظم صفات المنطوق ( انظر الفصل الأول ).

(46) J. - L. - V. Broussonnet, «Tableau élémentaire de la sémiotique», (Montpellier, an VI), p. 60 .

ذكره فوكوه : «مولد العياده» ، ص ٩١ .



والعرض ليس دالا فقط ، بل هو مدلول أيضاً *signifié* . وهو كمدلول لا يأخذ معناه إلا بفعل حدث أقدم *plus ancien* يحوله إلى علامة *signe* (٤٧) . وإذا كان العرض يقترب جداً من المرض ، فإن العلامة تبتعد عنه بمسافة معينة لأنها تظهر بطريقة غير مباشر . والعلامة ليست معرفة وإن كانت تنبئ بمعرفة مختبئة . فالنبض مثلاً يكشف عن القوة الغير مرئية للدورة الدموية (أى يكشف عن حالة حاضرة) . ولون الأظافر الأزرق يعنى الموت (أى يشير إلى حدث مضى) . أما اضطرابات اليوم الرابع في حالة الحمى المعوية ، فإنها تعد بالشفاء (وهنا علامة على المستقبل) . ومن ثم يتضح علاقة «العلامة» *signe* بالزمان (٤٨) .

غير أن «العلامات» لا توجد بدون «أعراض» *pas de signe sans symptômes* . وهنا نقلنا فوكوه إلى الفيلسوف كوندillac (٤٩) ، ويرى أن العرض في الفكر الإكلينيكي يلعب دور « لغة العمل » أو اللغة الإجرائية *langage d' action* التي يعتبرها كوندillac أصل الكلام *origine de la parole* (٥٠) . فاللغة الإجرائية ظهرت من تلقاء ذاتها بالطبيعة أو « بالغريزة » ، وكانت بمثابة الصورة الأولى للغة *la forme initiale de langage* (٥١) . وكذلك كان العرض ،

(٤٧) فوكوه : «مولد المياده» ، ص ٩١ .

(٤٨) نفس المرجع ، ص ٩٠ .

(٤٩) هو فيلسوف فرنسي ولد في جرنوبل (١٧١٥ - ١٧٨٠) . وهو زعيم مدرسة حسية .

عرض مذهب الحس في كتابه «محاولة في أصل المعارف الإنسانية»

*Essai sur l'origine des connaissances humaines*

« *Traité des sensations* » وأيضا كتابه : «في الاحساسات» .

(٥٠) Condillac, «Essai sur l'origine des connaissances humaines», t. I, p. 262 .

(٥١) Ibid.

فهو الطبيعة الوحيدة للمرض والصورة الأولى التي يظهر عليها .

واللغة التلقائية لا يكون لها معنى بالنسبة للنظرة regard إلا إذا تدخل حدث acte أخفى كوندياك طبيعته المفردة وأدخله ضمن عمليات الاتصال الغريزية (٥٢). وكذلك أيضاً كان العرض . فهو كمدلول لا يأخذ معناه إلا بفعل حدث يعزله ويحوّله إلى «علامة» كما قدمنا آنفاً . وكأن الفكر الإكلينيكي ينقل إلى مجال التجريب مصطلحات تصورياً سبق أن أخذ به كوندياك .

كيف يتحول العرض إلى عنصر دال élément signifiant ؟

أولاً : يتم ذلك بعملية تجميع totalisation ، وذلك بمقارنة الأعضاء بعضها ببعض وأيضاً بمقارنة الأفراد بعضهم بعضاً ، (فالحرارة والنبض والاحمرار ... الخ لا نعرف إن كانت دالة على مرض أو عادية إلا بمقارنتها لدى أفراد كثيرين) .

ثانياً : يتم ذلك أيضاً بعملية تذكر للوظائف العادية ، (فالزفير البارد لدى المريض علامة على انعدام الحرارة التي تميز الكائن الحيواني ، وربما كان هذا دليلاً على قرب توقف الحياة) .

ثالثاً : يتم هذا التحول أيضاً بواسطة عملية تسجيل التتابع أو التزامن . فبالملحظة استطعنا أن نعرف أن تقلص اللسان وارتعاش الشفة السفلى يتبعه الشعور بالحاجة إلى القيء . والظاهرتان المتقدمتان أصبحتا علامات ثابتة signes على حدوث الظاهرة الأخيرة .

ونلاحظ مما تقدم أن «العرض» يصبح «علامة» بفضل نظرة تشعر بالتمايز différence أو التزامن simultanéité أو التتابع succession (٥٣) .

(52) Ibid., pp. 262-263 .

(٥٢)

ذكره فوكوه : «مولد المياده» ، ص ٩٢ .

(٥٣) فوكوه : «مولد المياده» ، ص ٩٣ .

ويرى فوكوه أن هذه النظرة ليست سوى تحليل كوندياك وقد طبق على التجربة في الإدراك الطبي . ألم يقل كوندياك أنه :

«علينا أن نحلل أفكارنا وأن نعقد بينها مقارنات مختلفة حتى نكتشف ما بينها من علاقات وأيضاً ما يمكن أن يتولد عنها من أفكار جديدة» (٥٤).

إن التحليل والنظرة الإكلينيكية يتفقان في هذه السمة العامة وهي أننا لا نحلل أو نركب إلا لكي . نقوم بوضع نظام Ordonnance هو النظام الطبيعي نفسه . يقول كوندياك :

«إن هذا التحليل هو السر الحقيقي للإكتشافات لأنه يرتد بنا إلى أصل الأشياء» (٥٥).

أما بالنسبة للعبادة، فإن هذا الأصل origine هو النظام الطبيعي للأعراض وهو صورة تتابعها والتأثير المتبادل بينها . وهذا الأصل — في النهاية — ليس شيئاً آخر سوى العلامات ذاتها لأن «العلامة signe هي العرض نفسه في حقيقته الأصلية» .

يقول ديمورسي ديلتر DEMORCY-DELETTRE في كتابه «محاولة في التحليل التطبيقي لتحسين علم الطب» ، (صدر في باريس سنة ١٨١٠) (٥٦) :

---

(54) Condillac: «Essai sur l'origine des connaissances humaines, p. 109.

ذكره فوكوه : «مولد العبادة» ، ص ٩٤ .

(55) Condillac: Ibid.

(٥٦) ذكره فوكوه : «مولد العبادة» ، ص ٩٤ .

«إن جميع الأعراض يمكن أن تتحول إلى علامات signes لدى الطبيب الذى يتمتع بثقافة مكتملة ورفيعة» .

وإذا كانت المعرفة العلمية التى يتحدث عنها كوندريك هى بمثابة «لغة منظمة حسنة الأداء» *langue bien faite* ، فإن هذا هو نفس المستوى الذى تنطلق منه العيادة . فقد كتب بينيل Pinel يقول :

«ينبغي أن ينظر إلى المرض على أنه كل غير منقسم (منذ بدايته حتى نهايته) ، وهو ينتظم فى أعراض معبرة تتتابع على فترات » . (٥٧) .

ونلاحظ هنا أن بينيل إنما يقرأ كينونة المرض على مستوى الكلمات . فتواجد المرض متمثلاً فى أعراض إنما يسهل الالتقاء مع قواعد التركيب للغة وصفية: وهذا يعنى أن هناك تشابهاً أساسياً بين بناء المرض وبين الصورة اللغوية التى تحدده خصوصاً وأن عملية الوصف هى فى حد ذاتها إمساك بالكينونة . وبعبارة أخرى ، فإن الكينونة لا تظهر فى صورة أعراض دون أن تتقدم نحو لغة ليست سوى كلام الأشياء ذاته *la parole même des choses* (٥٨) .

وإذا كانت طبيعة المرض فى الطب التصنيفى تنفصل عن وصفه بواسطة قوائم الأجناس والأنواع ، فإننا نجد فى العيادة تطابقاً بين الرؤية والكلام والحقيقة الظاهرة للمرض . إذ لا وجود لمرض إلا لما هو مرئى *visible* وبالتالى منطوق *énonçable* أو أن المرئى والمنطوق هما كينونة المرض .

---

(57) Ph. Pinel: «La Médecine clinique», (3me éd., Paris, 1815), intro. P. VII .

ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٩٤ .

(٥٨) «مولد العيادة» ، ص ٩٥ .

إن العيادة هي تجسيد للعلاقة الأساسية عند كوندياك بين فعل الإدراك وبين اللغة . يقول كوندياك :

«إن التحليل Analyse ليس سوى ملاحظة صفات الموضوع وفقاً لنظام التتابع dans un ordre successif وهو النظام الذى تسير عليه الطبيعة عندما تقدم موضوعاتها» (٥٩).

وهنا يتضح أن نظام الحقيقة هو نظام اللغة ، فكلاهما يستند إلى الزمان . كما يتضح أن البعد الزمنى إنما يحتل فى بناء هذه المعرفة الجديدة نفس الدور الذى كان يحتله المكان المنبسط الذى اقترن بقوائم الأمراض فى الطب التصنيفى (٦٠).

لقد اختفى التقابل بين الطبيعة والزمان ، كما اختفت التفرقة بين ماهية المرض وأعراضه وعلاماته ، ولم يعد هناك أنواع صامتة تنغل على المعرفة الطبية ، بل انفتح المجال على لغة تتضامن فى وجودها ومعناها مع النظرة التى تحمل رموزها .

إن الخبرة الإكلينيكية إنما تتشابه إذن مع الإيديولوجيا . وهى تقدم للإيديولوجيا مجالا مباشراً للتطبيق . وليس معنى هذا أن الطب قد انساق وراء أفكار كوندياك وعاد إلى احترام الشيء المدرك ، بل هو يعنى بالأحرى أن دعامة الواقع قد رسمت وفق أنموذج اللغة سواء أكان ذلك فى العيادة أم فى التحليل .

(٥٩) Condillac, cité par Ph. Pinel, «Nosographie philosophique», (Paris, an VI), intro. P. XI.

ذكره فوكوه «مولد العياده» ، نفس الموضوع .  
(٦٠) راجع أهمية البعد الزمنى فى «الإبستيمولوجيا»

يقول فوكوه :

«إن نظرة الإكلينيكي وتفكير الفيلسوف يتفقان في امتلاك رؤية إستمولوجية واحدة ، وذلك لأنها يفترضان مقدما وجود نفس البناء المتطابق للموضوعة... .  
فالإدراك الاستدلالي للطبيب والتفكير الاستدلالي للفيلسوف عن الإدراك إنما يلتقيان في تطابق تام» (٦١).

إدراك الحالات : La perception des cas

كان الاتجاه السائد في أواخر القرن الثامن عشر هو أن الطب معرفة غير يقينية لأنه لا يرى الحقيقة من خلال التفرد المحسوس l'individualité sensible بل يدرك إلى مالا نهاية أحداث مجال مفتوح (٦٢).

وفي بداية القرن التاسع عشر هجر كاباني Cabanis المفهوم القديم لعدم اليقين لصالح مفهوم آخر هو « ليبراليه » الطبيعة وعدم دقتها l'imprécise profusion de la nature.

يقول كاباني :

«لقد أرادت الطبيعة أن تحتفظ لنفسها بدرجة معينة من الحرية الملتزمة ، أى التى لا تسمح أبداً بالخروج على النظام رغم سماحها بتنوع مقبول ... وهذه الحرية إنما تتطابق تماماً مع القدر الذى يلتزم به الفن في التطبيق» (٦٣).

(٦١) فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٩٦ .

(٦٢) «مولد العيادة» ، ص ٩٧ .

(63) Cabanis: «Du degré de certitude de lamedecine», (3eéd., Paris, 1819) , P. 125 .

ذكره فوكوه ، نفس المرجع ، ص ٩٨ .

وقد حاول كاباني أن يرر أدوات المعرفة الإكلينيكية بواسطة هذا المفهوم الجديد . فعدم الدقة الذي نلاحظه في حركات الطبيعة ليس سوى فراغ تملأه الوسائل التقنية المختلفة لإدراك الحالات . وهذه الوسائل هي :

#### ١ - حساب درجات اليقين : Le calcul des degrés de certitude

يرى جاك برنوي Jacques Bernoulli أن كل يقين يمكن أن ينظر إليه باعتباره كلاً ينقسم إلى أي عدد نريده من درجات الاحتمال (٦٤).

وهذا المنهج صالح في التشخيص وأيضاً في العلاج . فحساب يقين الحمل عند المرأة يكون على ثمان درجات : (١) اختفاء الدورة الشهرية (٢) القرف والقيء في الشهر الأول (٣) زيادة حجم الرحم (٤) زيادة أكبر في حجم الرحم في الشهر الثالث. (٥) ظهور الرحم فوق العظم العاني (٦) بروز ظاهر في البطن (٧) الحركة التلقائية للجنين (٨) انتقال من مكان إلى آخر داخل البطن تشعر به الأم في أول الشهر الأخير . ونلاحظ أن كل واحدة من هذه المراحل تمثل (٨) من اليقين ، كما أن تتابع المراحل الأربعة الأولى يمثل نصف اليقين .... الخ ..

#### ٢ - الاستفادة من تكرار الحدوث : La perception des fréquences

يقول «دوبل» F. - J. Double :

يمكننا أن نعثر على أسس القوانين العامة للطبيعة وذلك بدراسة الظواهر المتكررة ، وبأمل نظام

---

(64) J. Bernoulli: «Essai sur l'art de conjecturer en médecine», (Paris, an X) , PP. 35-37 .

ذكره فوكوه : «مولد العياده» ، ص ١٠٣ .

علاقاتها وتتابعها المنتظم» (٦٥).

وكان طب الأجناس يمتلك الماهية أولاً ، ثم يحذف بواسطتها المضمون الغنى للتجربة . أما الطب الاكلينيكي فإنه لا يعتمد على ملاحظ واحد ، بل العديد من الملاحظين الذين يرون نفس الظاهرة بطرق متعددة . وهنا تتعدد المفاهيم ، ويظهر حساب الخطأ (أو الاحتمال) والمتوسطات ، وكلها تشير إلى أن الرؤية في المجال الطبي تتخذ بناءً إحصائياً ، كما تشير إلى أن مجال الإدراك لم يعد هو حديقة الأجناس بل مجال أحداث un domaine d'événements (٦٦).

٣ — تطبيق مبدأ التمثيل : Le principe de l' analogie

إن دراسة تركيب العناصر إنما تظهر صوراً متماثلة آتية أو متتابعة تسمح بمقارنة أعراض أو أمراض متحدة في الهوية .

٤ — الاستفادة من الحركة الجمعية للطبيعة : Le mouvement qui associe

إن تعتقد أى حالة فردية يمكن أن يخضع للتحليل وفق مبادئ التركيب ذاتها . أى عندما نعرف مجموع العناصر التي تكونها ونمط هذا التكوين . وبهذا فإن المعرفة ستكون بمثابة استعادة الحركة الجمعية للطبيعة . وهذا يعني أن معرفة الحياة والحياة ذاتها تخضعان لنفس قوانين الأصل . يقول كاباني :  
«لقد أرادت الطبيعة أن يكون مصدر معارفنا هو نفس

(65) F. - J. Double: «Sémiologie générale», (Paris, 1811) t.I,P. 33.

ذكره فركوه : «مولد المياده» ، ص ١٠٢ .

(٦٦) «مولد المياده» ، ص ١٠٢ .



مصدر الحياة فلا بد من مؤثرات خارجية للنعيش،

ولابد من مؤثرات خارجية للتعرف» (٦٧).

وهكذا نرى أن منطق كوندياك قد استخدم كأنموذج إبستمولوجي للعيادة . فالتحليل عند كوندياك «يرد الأفكار المركبة إلى الأفكار البسيطة التي تتكون منها كما يتبع مراحل هذا التكوين» (٦٨) . والتحليل أيضاً «يبحث عن الحقيقة باستخدام نوع من الحساب يقوم على تركيب وإعادة تقسيم الأفكار حتى يتيسر مقارنتها بالاكشافات الموجودة» (٦٩).

ويرى فوكوه أن هذا هو العصر الذهبي الذي كان فيه التقاء واضح ذو شفافية مباشرة بين الرؤية voir والقول dire . فقد اتفق جميع الكليينيكين في ذلك العصر على وجود توازن بين صور تركيب المرئي وبين قواعد تركيب المنطوق .

غير أن هذه الصورة المعجمة للشفافية لا تترك للغة سوى مكان قائم . بمعنى أنها لم تهتم باللغة باعتبارها نسقاً مكوناً من عناصر مؤسسة هي أحرف الهجاء والكلمات . وهذا القصور ، وهو في حقيقته قصور في منطق كوندياك نفسه ، قدفتح المجال أمام عدد من «الأساطير الإبستمولوجية» التي استهدفت علاجه. وهذه «الأساطير» قد وجهت العيادة نحو آفاق جديدة اضطربت

---

(67) CABANIS, «Du degré de Certitude de la Médecine», op. cit., PP. 76-77.

ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٩٩ .

(68) CONDILLAC, «Essai sur l'origine des connaissances humaines», P. 162 .

ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ١١٧ .

(٦٩) . Ibid., P. 110 (ذكره فوكوه ، نفس الموضع السابق) .

فيها الرؤية لأنها اصطدمت بكتل قائمة هي الجسد ، كما عجلت بنهاية طب  
الأعراض (٧٠).

وقد كانت أولى هذه الأساطير هي الخاصة بالتركيب الهجائي للمرض .  
ففي نهاية القرن الثامن عشر كانت أحرف الهجاء تظهر للنحويين على أنها  
النظام المثالي للتحليل ، وهي بهذا تمثل بداية الطريق لمن أراد تعلم لغة جديدة .  
وهذه الصورة الهجائية قد تحولت دون تغيير يذكر إلى النظرة الطبية ،  
فأصغر وحدة ملاحظة هي التأثير الأول الذي يأتينا من مريض أو هي أول  
الأعراض . وهي بدايتها لا تعني شيئاً إلا إذا دخلت في تركيب منسق مع  
عناصر أخرى تماماً مثل أحرف الهجاء . وهذا التصور «الهجائي» للمرض  
يستلزم أن يكون عدد «العناصر المرضية» محدوداً مثل أحرف الهجاء . وكما  
أن هذه الأخيرة يمكنها أن تكون مالا حصر له من صور المقال ، كذلك كان  
لحال بالنسبة لظواهر المرضية. يقول كاباني في كتاب «درجة اليقين في الطب» :

«في كل حالة جديدة قد يظن أننا بصدد ظواهر جديدة ،

بينما في الحقيقة ، نحن بصدد تركيبات جديدة أحدثت

اختلافات طفيفة . ففي الحالة الباثولوجية لا يوجد سوى

عدد ضئيل من العناصر الأساسية ، أما الكثرة ، فهي

تنشأ عن اختلاطها واختلاف شدتها » (٧١).

وثاني هذه الأساطير هي أن النظرة الطبية تخضع على كينونة المرض صفة  
إسمية nominaliste . فالسؤال عن حقيقة «مرض» هو تماماً كالسؤال عن

(٧٠) فوكوه : «مولد العياده» ، ص ١١٨ .

(71) CABANIS, op. cit., P. 86 .

ذكره فوكوه : «مولد العياده» ، ص ٩٩ ، ص ١١٩ .

حقيقة كلمة « والكينونة هي عبارة عن عملية تجريد . ومن ثم ، فإن المرض كالاسم le nom لا كينونة له .

• والأسطورة الثالثة تتلخص في النظر إلى الظواهر المرضية تماماً كما يفعل الكيميائي بالنسبة للظواهر الكيميائية .

فإذا كانت نظرة عالم الأمراض nosographe حتى نهاية القرن الثامن عشر هي كنظرة البستاني الذي يتعرف على ماهية محددة وسط تعدد الظواهر ، فإنه ابتداء من القرن التاسع عشر نجد أنموذجاً جديداً يفرض ذاته ، ألا وهو أنموذج العملية الكيميائية التي بعزلها للعناصر المكونة تسمح بتعريف الكل . فهي تحدد النقاط المشتركة والمتشابهة والمختلفة بين المجموعات (أى الأمراض) ، وتقيم تصنيفاً لا يؤسس على نماذج نوعية بل على صور العلاقات .

يقول ديمورسى — ديلتر DELETTRE :

«إن عالم تصنيف الأمراض ، بدلا من أن يحذو حذو عالم النبات ، عليه بالأحرى أن يقتدى بأنموذج الكيميائيين ، أى يهتم بتصنيف عناصر الأمراض وتركيباتها المتكررة» (٧٢) .

وهنا نرى أن التحليل الإكلينيكي يقترب الآن نحو الأنموذج الكيميائي بعد أن سائر طابع اللغة ثم التجريد الرياضى .

ويلاحظ فوكوه أن نظرية الإكلينيكي قد أصبحت مساوية وظيفياً لشرارة الاحتراق الكيميائي ، فهي العامل المساعد لفصل الحقائق ، لأنها تعزل الظواهر

---

(72) DEMORCY-DELETTRE, «Essai sur l'analyse appliquée au perfectionnement de la médecine», (Paris, 1810 ) P. 135.

ذكره فوكوه : «مولد العياده» ، ص ١٢٠ .

الأساسية وتحفظ لها نقاءها . ويلاحظ فوكوه أيضاً أن الإكلينيكي لم تعد مهمته قاصرة على مجرد قراءة المرئي لأنه يكتشف أسراراً (٧٣).

أما الأسطورة الرابعة فهي التي تجعل الخبرة الإكلينيكية قائمة على ممارسة الحواس غير. أن هذه النظرة التي تدرك الملموس سرعان ما تحولت لدى الطبيب إلى نفاذ البصيرة le coup d'oeil du médecin .

يقول كورفيزار CORVISART :

«إن نفاذ البصيرة لدى الطبيب ليس سوى نتيجة لتكرار ممارسة الحواس ممارسة منهجية. وهي بلا شك تفوق أى تعليم وأى سعة اطلاع» (٧٤).

ويقول كابانى : «إن اليقين إنما يمكن في إحساسات الفنان لا في مبادئ الفن» (٧٥).

ونلاحظ في الفرق بين النظرة وبين نفاذ البصيرة ، أن النظرة تتضمن مجالا مفتوحاً ونشاطاً متتابعاً (لأنها قراءة) ، كما أنها تسجل ماتراه ، وعالمها هو عالم اللغة ، وهى لهذا تتأخى تلقائياً مع السماع audition والكلام Parole . أما نفاذ البصيرة ، فإنه ينتقل بالباحث إلى ما وراء الظواهر كما أنه يتوغل تحت السطح . وهو اتصال صامت كالإصبع الذى يشير .

(٧٣) فوكوه : «مولد العياده» ، ص ١٢١ .

(74) CORVISART, Préface à la traduction d'AUENBRUGGER, Nouvelle méthode pour reconnaître les maladies internes de la poitrine, (Paris, 1808) , P. X.

.. ذكره فوكوه : «مولد العياده» ، ص ١٢٢ .

(75) CABANIS, op. cit., P. 126 .

ذكره فوكوه ، نفس الموضع .

وهنا تنهياً الخبرة الإكلينيكية لكي تغزو مجالا جديداً هو المجال الملموس للجسد، وهو الكتلة المعتمدة التي تختبئ فيها الأسرار. وهنا أيضاً يتوارى طب الأعراض ويتبدد أمام طب الأعضاء . إنه عصر بيشا BI CHAT .

نشأة الطب الحديث :

إن ظهور الطب الحديث إنما يرتبط باكتشاف علم التشريح المرضى على يد بيشا Xavier BICHAT (١٧٧١-١٨٠٢). فقد أجمع الباحثون على أن كتابه «علم التشريح العام» ، و «دراسة في الأنسجة» كانا بمثابة اكتشاف عظيم ومبدأ هام لحل طلاسم الجسد (٧٦).

لقد أصبح التشريح هو مبدأ تصنيف الأمراض. فصار الخجل وفقدان النطق من أمراض الرأس ، كما صار التقارب بين الأمراض يقوم على تجاوزها داخل أعضاء الجسم . إن علم التشريح المرضى هو الذى أرسى المبادئ الأولى لوضعيه المعرفة الطبية . ولقد تعطل ظهور هذا العلم بسبب وقوف الديانة والأخلاق والأحكام السابقة حائلا دون فتح الجثث . ثم حان موعد ظهوره عندما أصبح الموت موضوعاً للمعرفة الفلسفة (٧٧).

يقول أليبير Alibert في كتابه «تصنيف الأمراض» ، ظهر سنة ١٨١٧ :

- 
- (٧٦) ميشيل فوكو : «مولد العياده» ، ص ١٢٨ . والكتابان هما :
- 1) BICHAT (X) ., «Anatomie générale appliquée à la physiologie et à la médecine», (Paris, 1801) .
  - 2) «Traité des membranes», ( Paris, 1807 )
- (٧٧) نفس المرجع ، ص ١٢٦ .

«عندما امتد ضياء الفلسفة إلى آفاق الشعوب  
المتحضرة ، أصبح من الممكن للنظرة الفاحصة  
أن تتقل بين رفات جسم بلا حياة، كانت فريسة للدود  
فأصبحت منبعاً لا ينضب للعديد من الحقائق  
النافعة (٧٨)» .

لقد أراد «بيشا» أن يرد الأحجام العضوية les volumes organiques  
إلى سطوح للأنسجة المتجانسة . فبعد أن كان السطح هو دعامة النظرة ، أصبح  
صورة وشكلا للمنظور إليه ، وفي هذا بادرة ظهور الوضعية الطبية  
positivisme médical . وهنا نلاحظ أن التشريح الباثولوجي قد أعطى منطق  
التحليل l'Analyse قيمة جديدة وحاسمة، عندما بين أن المرض ليس موضوعا  
سلبياً objet passif ينبغي أن يطبق عليه التحليل بقدر ما هو موضوع  
إيجابي يمارس التحليل بلا هوادة على الجسد . بل إن التحليل الإيديولوجي  
ليس سوى تكرار لما يحدث في جسد المريض (٧٩).

وإذا كانت الملاحظة الإكلينيكية في صورتها الأولى قد تضمنت وجود  
ذات Sujet ، تقوم بتحليل الرموز وتصنيف الأعراض ، فإن علم التشريح  
الإكلينيكي يفترض أن الداء يتضح من تلقاء ذاته كما تنكشف أسرارهِ أمام  
الرؤية كلما توغلت في أعماق الجسد . فالمرض لم يعد مجموعة من الأعراض  
تنتشر على سطح الجسد وترتبط فيما بينها بعلاقات تلازم أو تتابع يمكن أن

---

(78) J.-L. ALIBERT, Nosologie naturelle» (Paris, 1817), Préliminaire,  
I, P. LVI.

ذكره فوكوه : «مولد العياده» ، ص ١٢٦ .

(٧٩) فوكوه : «مولد العياده» ، ص ١٣١ .

يطبق عليها المنهج الإحصائي ، إنه على الأحرى مجموع من الصور والأشكال والأحداث التي ترابط مكونة سطحاً جغرافياً يمكن أن يتفحصه الطبيب خطوة بخطوة (٨٠) .

وقد يظن لأول وهلة . أن التغير الذي طرأ على المعرفة الطبية وأدى الى ظهور علم التشريح يرجع الى اختصار المسافة بين الذات والموضوع ، خصوصاً وأن نهاية القرن الثامن عشر قد شهدت طبيياً يقترب جداً من المريض ، ويستعمل أصابعه في فحصه كما يعتمد على أذنه في سماع شكواه وأيضاً في سماع نبضات قلبه ، أى طبيب يحاول أن يتوغل تحت السطح المرئي .

وفي الحقيقة لقد كان هذا التغير جزءاً من تغير أشمل يتلخص في الاهتمام بالملاحظة والتجربة بوجه عام ، والثقة التامة فيما يمكن أن تكشف عنه المعطيات الحسية ، والتخلي عن النظريات والأنساق لصالح اتجاه علمي «أمبريقي» . وعلى ذلك ، فإن دخول النظرة الطبية الى داخل الجسد ليس استمراراً لحركة الاقتراب التدريجي من المريض — وهي الحركة التي بدأت منذ النظرة التي ألقاها أول طبيب على جسد أول مريض — كلا ! إنه على الأحرى «نتيجة انصهار جديد على مستوى المعرفة ذاتها ، وليس على مستوى معرفة متكلسة أو متممة أو منضبطة» (٨١) .

والدليل على أننا بصدد طب مختلف تماماً هو أن فكرة «الموضع» *Siège* (مكان المرض في الجسم) قد حلت تماماً محل فكرة الفئة (فئة المرض أى مكانه في التصنيف) (٨٢) .

(٨٠) نفس المرجع ، ص ١٣٨ .

(٨١) نفس المرجع ، ص ١٣٩ .

(٨٢) نفس المرجع ، ص ١٤٢ .

يتساءل بيشا Bichat : أى قيمة للملاحظة إذا كنا نجعل مكان  
الداء ؟ (٨٣). ويقول بويو BOUILLAUD فى كتابه «الفلسفة الطبية» :

«لو كان فى الطب بدسيات لكنت أولاها هذه القضية :  
لا وجود لمرض دون تحديد دقيق لموضعه فى الجسد .  
وإذا قبلنا عكس هذه القضية كان علينا أن نقبل أيضا أن  
الوظائف توجد بلا أعضاء ، وهو قول واضح بطلانه .  
إن تحديد مكان الأمراض أو موطن تواجدها فى الجسم  
هو من أهم منجزات الطب الحديث » . (٨٤)

ولقد كان من أهم الإضافات الجديدة التى أتى بها علم التشريح  
الباثولوجى هو التساؤل عن الموت . فالموت فى الخبرة الإكلينيكية كان  
ينظر اليه على أنه نهاية للمرض والحياة فى نفس الوقت . أما علم التشريح ،  
فإنه يرى فى الموت وجودا متعددًا وموزعا على مراحل زمنية تماما مثل  
المرض . ففى بعض الحالات الباثولوجية ، لوحظ أن أولى الأنسجة التى  
تظهر عليها أعراض الموت هى تلك التى تتمتع بنصيب أوفر من التغذية .  
وهى تبدأ بالأغشية المخاطية Les muqueuses ( مثل الموجودة فى أجهزة  
المضم أو أجهزة التنفس ) ، ويلها النسيج الحشوى Le parenchyme للأعضاء

---

(83) X. BICCHAT : "Anatomie générale", (Paris, 1801), t. I., P. XCIX

ذكره فوكو : «مولد العياده» ، ص ١٤٢ .

(84) BOUILLAUD, "Philosophie médicale" (Paris, 1831), P.259.  
ذكره فوكو ، نفس الموضع .



des organes ، ثم أوتار العضلات les tendons ... الخ (٨٥) .

وهذا يعنى أن الموت ليس واحدا !

يقول بيشا Bichat :

«إنه فى حالة الوفاة الطبيعية . فإن الحياة الحيوانية هى  
التي تنطفىء أولا : وتبدأ بنحمود فى الحس ، وكسل فى  
وظائف المخ ، وضعف القدرة على الحركة . وتصلب  
العضلات ، وشلل الأمعاء، وأخيرا توقف القلب» (٨٦) .

وهنا نلاحظ تتابع مراحل الوفاة تتابعا زمنيا .

إن عمليات الموت . رغم أنها لا تتماثل تماما مع عمليات الحياة أو المرض .  
فإنها تلقى أضواء جديدة على الظواهر العضوية واضطراباتهما . كما أصبح من  
الممكن للموت أن يساعدنا فى فهم الحالة الباثولوجية بما لها من مراحل .  
وعلى سبيل المثال فقد كان بايل G.-L. Bayle لا ينظر الى الموت باعتباره  
ستارا يحجب عنه المرض ، بل كان يرى فيه موقفا تجريبيا يفتح تلقائيا على  
حقيقة المرض ومراحله المختلفة . وبفضل هذه النظرة تمكن بايل من معرفة  
حقيقة مرض السل الرئوى La Phtisie وما يمر به من مراحل (٨٧) .

(85) X. Bichat : "Anatomie pathologique", P. 7.

ذكره فوكوه : «مولد العمياده» ، ص ١٤٤ .

(86) X. Bichat, "Recherches physiologiques", P. 242.

ذكره فوكوه : «مولد العمياده» ، ص ١٤٥ .

(87) G. - L. BAYLE, "Recherches sur la phtisie pulmonaire",  
PP. 21—24.

ذكره فوكوه : «مولد العمياده» ، ص ١٤٦

ويتضح مما تقدم أننا قد أصبحنا الآن أمام ثالث «تقنى» من المفاهيم *trinité technique* ، عناصره هي الحياة والمرض والموت . وإذا كانت الإستمرارية القديمة قد ولت ، تلك التى كانت تتصور فى الحياة خطر المرض كما ترى فى المرض نذيرا بقدوم الموت ، فإن هذه الاستمرارية أو هذا الخط المستقيم ، قد ترك مكانه لصورة جديدة على شكل مثلث متساوى الساقين ، يربيع الموت على قته ويشرف من عليائه على الظواهر العضوية والباثولوجية ويساعد على فهمها (٨٨) . فالموت هو المحلل الأول ، وبفضله تتكشف أعجوبة الأصل لما يتصف به من صرامة التحليل (٨٩) Elle fait éclater les merveilles de la genèse dans la rigueur de la décomposition. إن التحليل *l'Analyse* وهو فلسفة العناصر وقانونها ، قد وجد فى الموت أنموذجا يصعب تجاوزه ، بعد أن عجزت الرياضيات والكيمياء واللغة ذاتها عن أن تمدد بهذا الأنموذج . يقول فوكوه :

«إن النظرة الطبية لم تعد نظرة عين متنبهة بل هي نظرة

عين رأت الموت» (٩٠). *le regard d'un oeil qui a vu la mort.*

الحياة الباثولوجية وفلسفة المذهب الحيوى :

إن المرض ليس حدثا *événement* ، أو طبيعة تأتى من الخارج . إنه الحياة وقد تعرضت لمنحرف داخلى : *la maladie est une déviation intérieure de la vie.*

يقول بيشا :

..

(٨٨) يرى فوكوه أننا نشهد هنا أكبر قطع *La plus grande coupure* فى تاريخ الطب الغربى وهو يبدأ فى اللحظة التى تقول فيها الخبرة الإكلينيكية إلى نظرة تشرحية إكلينيكية . (مولد العيادة ، ص ١٤٩) .  
(٨٩) فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ١٤٧ .  
(٩٠) نفس الموضع .

«ان أى ظاهرة فسيولوجية إنما ترد فى نهاية المطاف إلى  
خصائص الأجسام الحية فى حالتها الطبيعية ، كما أن  
أى ظاهرة باثولوجية إنما ترد إلى ما يطرأ على هذه  
الخصائص من تحول بالزيادة أو النقصان» (٩١) .

وزيادة على ذلك ، فان كل مجموعة مرضية *chaque ensemble morbide*  
إنما تكون أنموذجا متفردا للحياة . فهناك حياة لأمراض السل  
وللأورام الخبيثة وللإلتهابات المختلفة .

لذا ينبغى أن نستبدل بمفهوم المرض الذى يهاجم الحياة مفهوما آخر  
أكثر تماسكا هو الحياة الباثولوجية *la vie pathologique* ، كما  
ينبغى أن نفهم الظواهر المرضية ابتداء من نسق الحياة ذاته لا باعتبارها  
ماهيات خارجة عنها . فالمرض هو الصورة الباثولوجية للحياة .

وهنا نتساءل : هل يمكن لهذه الأفكار أن تضيف جديدا لفلسفة المذهب  
الحيوى ؟ *la philosophie vitaliste* .

يصرح المذهب الحيوى بأن ظواهر الحياة لها خصائص أساسية لا مثيل  
لها فى الظواهر الكيميائية والفيزيائية . وهو بهذا يكون معارضا للمذاهب المادية.  
كما أنه أيضا يعارض المذاهب الروحية التى تفترض وجود روح وراء  
ظواهر الحياة (٩٢) .

وأقدم ما عرف عن المذهب الحيوى هو مدرسة «مونيلييه» فى فرنسا

---

(91) X. BICHAT, "Anatomie générale", t. I, avant-propos, P. VII.

(٩٢) يوسف كرم ومراد وهب : «المعجم الفلسفى» ، دار الثقافة الجديدة ، سنة ١٩٧١ .

Montpellier في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ويمثلها بوردي Bordeu وبارتيه Bariez ، والأخير هو صاحب كتاب «مبادئ جديدة في علم الانسان» (ظهر سنة ١٧٧٥) . ويصرح «بارتيه» بوجود مبدأ حيوى Principe vital لدى كل فرد ، يتميز عن النفس المفكرة كما يتميز عن الخصائص الفيزيوكيميائية للجسم ، وهو الذى يحكم ظواهر الحياة . (٩٣) .

ولقد كانت المذاهب الحيوية مدينة في ظهورها لأسبقية الحياة في الخبرة المرضية ، ولذا فإنها تتضاءل أمام اكتشافات علم التشريح الباثولوجى . فالحياة عند «بيشا» ليست مجرد مجموع من الصفات التى تتميز بها الكائنات الحية عن الجمادات بل إنها هى الأساس الذى يسمح بإدراك التقابل بين هاتين الفئتين . كما أن الحياة ليست صورة الكائن الحى ، بل إن الكائن الحى هو الصورة المحسوسة للحياة في مقاومتها لكل ما يتعارض معها ولكل الجمادات . وإذا نظر إلى الحياة على أنها مبدأ تفسر الظواهر الفسيولوجية والباثولوجية على السواء ، فإن المذهب الحيوى ينقوض من أساسه . لأن هذا يعنى أن الكائنات الحية تنخلق على حياة وحياة مضادة . حياة تبني وحياة تهدم (٩٤) .

وهنا يتضح لنا أن المستوى الاستمولوجى الذى ارتقت إليه الحياة على يد «بيشا» من شأنه أن يجعلها ترتبط بالموت باعتباره قوة إيجابية تهدد وتدمر ، ولأنه يسمح بالانفتاح على حقيقة الحياة ذاتها .

---

(93) LALANDE : "Vocabulaire technique et critique de la philosophie" (P. U.F., 1962)

(٩٤) ميشيل فوكو : «مولد البيادة» ، ص ١٥٧ .

وهنا أيضا ينبغي أن نعرف بالفضل «ليشا» في أنه أرسى دعائم المذهب الحيوي على قاعدة الموت «mortalisme» (٩٥). Le vitalisme apparaît sur fond de cc «mortalisme» . فبالموت وحده أمكننا أن نعطي للحياة حقيقة وضعية . ولم يعد بوسعنا أن نقرر مع «كاباني» بأننا نعرف الحياة بالحياة أو أن مصدر معارفنا هو نفسه مصدر الحياة خصوصا بعد أن اتضح لنا أن الحياة لا تكشف عن حقيقتها الا للموت . وقد صرح ما قاله لاينيك R. LAENNEC من أن :

«الطبيعة تنصاع لقواعد ثابتة ، إن في تكوين الكائنات

وإن في هدمها» (٩٦) . La nature est astreinte à des règles . constantes dans la construction comme dans la destruction des êtres. وقد ثبت فعلا — بعد يشا — أن الموت الجزئي أو المتدرج لدى المسن إنما يسير على عكس نمو الحياة عند الطفل .

ويظهر على ضوء هذه النتائج أن ما يطمس الحقيقة إنما هو الحياة ذاتها ، أما الموت فانه «يفتح حقيبة الجسد السوداء أمام ضوء النهار» . وهكذا تنعكس أقدم القيم التصورية في العالم الغربي أمام «ظلام الحياة وصفاء الموت» Obscure vie, mort limpide بفضل علم التشريح الباثولوجي . وهو ما يعتبره فوكوه ظاهرة حضارية مثلها كمثل التحول من ثقافة تحرق الجثث إلى ثقافة أخرى تحث على دفنها (٩٧) .

(٩٥) نفس المرجع ، ص ١٤٨ .

(96) R. LAENNEC, Introduction et premier chapitre du Traité inédit d'anatomie pathologique, (P. 52).

ذكره فوكوه : «مولد المياده» ، ص ١٦٠ .

(٩٧) ميشيل فوكوه : «مولد المياده» ، ص ١٧٠ .

## الطب الحديث بعد «بيشا» BICHAT :

إذا كان ظهور الطب الحديث قد ارتبط باكتشاف علم التشريح الباثولوجي على يد «بيشا» ، فإن التصور الجديد للظاهرة الباثولوجية لم يتضح إلا عند «بروسيه» (١٧٧٢ - ١٨٣٨) بعد ظهور مؤلفه «فحص العقيدة الطبية» سنة ١٨١٦ م (٩٨) .

ويرى فوكوه أن الظاهرة الباثولوجية تعرف - ابتداء من هذا التاريخ - على أنها رد فعل عضوي réaction organique أحدثه عامل مثير un agent irritant. وهنا تختفي لأول مرة «كينونة المرض» . فالمرض ليس سوى حركة للأنسجة تتصف بالتعقيد وتسبب كرد فعل على حركة أخرى هي بمثابة العلة أو المثير. وهكذا يختفي طب الأمراض ، فلم نعد بحاجة للحديث عن أمراض رئيسية أو عن «ماهيات» للأمراض ، بل عن طب جديد هو طب التفاعلات الباثولوجية la médecine des réactions pathologiques.

وهكذا أيضا تحددت النظرة الطبية الحديثة ، واكتمل «القبلي التاريخي الملموس» L' a priori historique et concret لتلك النظرة ، وأصبح الطبيب يتعامل مباشرة مع «تركيب عضوي مريض» un organisme malade (٩٩).

ويرى فوكوه أن هذه كانت هي «النظرة» السائدة في القرن التاسع عشر - وإلى حد ما - في القرن العشرين أيضا .

---

(98) F. BROUSSAIS : "Examen de la doctrine médicale."  
(Paris, 1816).

(٩٩) فوكوه ، «مرلد المياده» ، ص ١٩٧ .  
( راجع أيضا معنى «القبلي التاريخي» ص ٦٤ - ٦٦ ) .

ولقد كان تحديد «القبلي التاريخي الملموس» للنظرة الطبية الحديثة هو الهدف الأول من تلك الدراسة التي قام بها فوكوه وأصدر عنها كتاب «مولد العيادة». يقول في مقدمة هذا الكتاب :

«إنه لم يكتب (أى «مولد العيادة») لمناصرة اتجاه معين في الطب ضد الاتجاهات الأخرى . كما أنه لا يهدف إلى مناصرة الاتجاهات التي تطالب بإلغاء الطب . فهنا (أى في هذا الكتاب) ، كما هو الحال في مواضع أخرى ، كان الهدف هو أن نستخلص من كثافة المقال

شروط تاريخه » (١٠٠) . les conditions de son historie

وقد بين فوكوه أن أى تغير يطرأ على المقال الإكلينيكي لا يفهم فقط بالاستناد الى ما تتضمنه الأفكار الجديدة أو الأنماط المنطقية ، وإنما بفحص منطقة *une région* تختلط فيها الكلمات والأشياء وتنتمى إلى لغة واحدة هي لغة الرؤية *la vision* والكلام *la parole* . ولهذا فهو يقرر بأن أركيولوجيا النظرة الطبية وأركيولوجيا المنطوقات إنما يتحدثان في تطبيق الفن العلاجي بدليل أن الإدراك لا ينصب إلا على ما ترتضيه وتوافق عليه الممارسة المقالة . ولهذا أيضا فهو يوصى بالبحث عن القوانين التي تحكم النصل بين المرئى وغير المرئى .

إن الأطباء في بداية القرن التاسع عشر قد تسنى لهم وصف ما ظل لعدة قرون خارج نطاق المرئى *visible* والمنطوق *énonçable* . ولم يكن ذلك لأنهم عكفوا على الإدراك بعد أن أمضوا سنوات طويلة في التأمل ، أو

---

(١٠٠) فوكوه ، «مولد العيادة» ، ص ١٥ من المقدمة .

لأنهم بدأوا يسمعون نداء العقل بدلا من خضوعهم لمعطيات الخيال ، بل حدث ذلك لأن العلاقة بين المرئى وغير المرئى — وهى العلاقة الضرورية لكل معرفة حسية — قد تغير بناؤها . وعندئذ ظهر ما يستتر خلف مجال الحس أو اللغة وهو الموت .

وعندما أصبح الموت جزءا لا يتجزأ من التجربة الطبية ، لم يعد ينظر إلى المرض على أنه ضد الطبيعة ، بل أصبح جزءا من الجسم الحى للأفراد . ومن ثم ، فإن أول مقال علمى ينصب على الفرد كان عليه أن يمر بالموت (١٠١) . وكان لابد لهذا المقال أن يفتح على مجال جديد هو التلازم بين المرئى والمنطوق .

غير أننا نلاحظ أن المرئى هنا لا يعتمد كلية على وجود الضوء ، فقد ثبت أن كثافة الأشياء التى تنغلق على ذاتها إنما تنغلق أيضا على الحقيقة ، وهذه الأخيرة لا تنكشف بفضل الضوء بل بفضل النظرة المتأنية التى تفحصها والى تحيط بها من كل جانب حتى تنفذ إليها تدريجيا (١٠٢) .

يقول فوكوه :

«إن الحقيقة إنما تكمن فى هذه النواة القائمة داخل الأشياء،  
وهى ترتبط بتلك القوة العظيمة للنظرة الأمبيريقية  
التي تحول ليلها إلى نهار ... أما المقال العقلى le discours  
rationnel فإنه يستند الى كثافة الموضوع  
l'épaisseur de l'objet أكثر من استناده إلى هندسة

(١٠١) ميشيل فوكوه . «مولد البياض» ، ص ٢٠٠ .

(١٠٢) نفس المرجع ، ص ٩ ، ١٠ من المقدمة .



الضوء la géométrie de la lumière . إن في  
الوجود الغامض (للموضوع) ، والسابق على كل  
معرفة ، يكمن مجال الخبرة ومنبعها وحدودها . أما  
النظرة le regard ، فإنها ترتبط بهذه السلبية الأولى  
cette passivité première التي تدفعها إلى عمل  
دائب للسعى وراءها ( أى وراء السلبية ) والتحكم  
فيها (١٠٣) .

ويستطرد فوكوه فيقول :

«إن هذه اللغة الجديدة للأشياء هي التي تسمح بمعرفة  
للفرد غير مجرد المعرفة التاريخية أو الحسية ... كما أن  
تطبيق النظرة إنما يوقظ الصفات الفريدة في الإنسان  
ويكشف عن قيمتها على أساس موضوعي» (١٠٤) .  
ومن هنا يمكننا أن نفهم أهمية الطب في تكوين العلوم الانسانية .

غير أنه إذا صح أن المقال العلمي لابد وأن يمر بالموت ، فإن هذا يعني  
أن الانسان الغربي «لم يصبح — في نظر نفسه — إنسان علم (أى موضوع علم) ،  
الليهم الا بعد انفتاحه تماما على واقعة فنائه الخاص (أو إبحائه التام) ... وهكذا  
نشأت عن خبرة الجنون كإحدى النظريات السيكلوجية ، إن لم نقل إمكانية علم  
النفس ، كما تولدت عن تفسير الموت في الفكر الطبي دراسة الطب بوصفه  
علما للفرد» (١٠٥) .

(١٠٣) نفس الموضع .

(١٠٤) نفس الموضع .

(١٠٥) ميشيل فوكوه ، «مولد العيادة» ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

وترجمة النص لـ دكتور زكريا ابراهيم ، «مشكلة النية» ، ص ١٣٥ .

ولهذا كله كانت الأهمية الكبرى لأعمال «بيشا» و«فرويد» في الثقافة الأوروبية . لأن الفكر الطبّي أصبح هو الذى يحدد المكانة الفلسفية للإنسان في هذه الثقافة . فالنظرة الطبية والمقال الطبّي واللمسات الطبية قد اتخذت جميعها منذ ذلك الوقت أبعادا فلسفية يمكن مقارنتها بما كان للفكر الرياضى — قديما — من أبعاد (١٠٦) .

وربما تتضح تلك المكانة الفلسفية للإنسان — من وجهة النظر الأركيولوجية — في القسم الثالث والأخير من الكتاب ، عندما يأتى الحديث عن موقف الأركيولوجيا من الإنسان والعلوم الانسانية .

(١٠٦) فوكو ، «مولد العياده» ، ص ٢٠٢ .

## الباب الثالث

« الأركيولوجيا ونسق العلوم »

«إن التسليم بأن العلم هو تكديس للحقائق في استمرارية واحدة واتجاه واحد إنما يعني بكل بساطة : تجاهل الممارسة المقالية بما لها من مستويات وعتبات ، وما تخضع له من قطع متعدد »

فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٤٥



## الفصل السادس

### العلم والمعرفة

١ - فلهور العلوم الحديثة على قاعدة المعرفة :

علم البيولوجيا .

علم الاقتصاد .

علم اللغة .

٢ - اختلاف «العتبات» وتتابعها .

٣ - الأنماط المختلفة لتاريخ العلوم .

٤ - المعرفة والإيديولوجيا .



## العلم والمعرفة

ذكرنا في موضع سابق أن «الأركيولوجيا» لا تهتم بالعلم بقدر اهتمامها بالمعرفة في علاقاتها بالعلوم (١). فالبحث الأركيولوجي ، وهو عبارة عن تشخيص للحالات المقال *Il est diagnostic* يبدأ بالتكوينات المقالية *les formations* *discursives* ، والوضعيات *positivités* ، ثم المعرفة وما يمكن أن ينبثق عنها من علوم (٢). وقد تعرضنا في الفصلين السابقين للشروط التي بررت ظهور «الطب النفسى» ثم «الطب الاكلينيكي» على «القاعدة المعرفية الحديثة» *épistémè moderne* ١. وسنرى الآن—باختصار — كيف انبثقت علوم أخرى هي البيولوجيا والاقتصاد وعلم اللغة ابتداء من نفس القاعدة المعرفية. ثم نعود بالتحليل إلى «عتبة المعرفة» *le seuil d' épistémologisation* ، ونحدد مكانها بالنسبة لعتبة العلم والعتبات الأخرى المتتابة ، ونتبع ذلك بنظرة فوكوه لأنماط تاريخ العلوم ، وأخيراً نختم الفصل بعلاقة المعرفة بالإيديو لوجيا .

إن التسليم بأن العلم هو تكديس للحقائق في استمرارية واحدة واتجاه واحد إنما يعنى تجاهل الممارسة المقالية بما لها من مستويات *niveaux* وعتبات *senils* وقطع متعدد *ruptures diverses* (٣). ولذا ينبه فوكوه في مواضع كثيرة إلى أن الممارسات المقالية التي سادت في العصر الكلاسيكي لا ينبغي أن ينظر إليها على أنها إرهاب أو تسبيق للعلوم التي ظهرت في العصر الحديث بحيث تصبح هذه الأخيرة امتداداً لأبحاث سابقة عليها .

ومثلاً لاحظ فوكوه أن علم التاريخ الطبيعى لم يقدم على مدى قرنين من

( ١ ) ص ٤١ .

( ٢ ) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٦٨ .

( ٣ ) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٤٥ .

الزمان ( القرن السابع عشر والثامن عشر ) ما يمكن أن نعتبره مقدمة لعلم الأحياء أو البيولوجيا . والسبب في ذلك أن الاستعداد المعرفي للعصر الكلاسيكي كان ينظر للتتابع الزمني على أنه خاصية أو مظهر لنظام الكائنات بينما كان «الابستميه الحديث» يرى التتابع معبراً عن نمط الوجود التاريخي والعميق للأشياء والبشر (٤) . وهذه الرؤية الأخيرة للتتابع هي التي يتبعها القول بالتطور ، والتساؤل عن الوراثة ، وتفسير النمو لدى الحيوان والنبات ، وكلها أساسيات ضرورية لظهور علم البيولوجيا .

وقد ظهر الانسان كموضوع للمعرفة في «الابستميه الحديث» ، ومهد لهذا الظهور عناصر معرفية كثيرة اقتصادية واجتماعية وسياسية تعرضنا لها بالدراسة والتحليل في الفصول السابقة (٥) . وكانت هذه العناصر المعرفية بمثابة الأرضية الأركيولوجية *territoire archéologique* التي انبثقت عليها العلوم التي تدرس الانسان .

وإذا كان وجود الانسان تتحكم فيه عوامل تتصل بالحياة ذاتها وباللغة وبالعامل فإننا لا يمكن أن نسبر أغواره إلا عن طريق تركيبيه اللغوي أو كلماته أو الأشياء التي يصنعها (٦) .

إن ريكاردو Ricardo في علم الإقتصاد وكوفيه Cuvier في البيولوجيا كانت تجمعها نظرة شاملة في مواجهة أفكار العصر الكلاسيكي (٧) . إذ

(٤) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٢٨٩ .

(٥) الفصل الرابع والخامس على وجه الخصوص .

(٦) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٢٤ .

(٧) ريكاردو David Ricardo اقتصادي إنجليزي ، ولد في لندن ( ١٧٧٢-١٨٢٣ ) .

كوفيه ، هو البارون جورج كوفيه ، فرنسي الجنسية ، عالم حيوان ومؤسس علم الحفريات ( ١٧٦٩ - ١٨٣٢ ) .



اعترف لأول مرة - على يديهما - بدور التابع والتاريخ في التفسير الاقتصادي والبيولوجي ، وذلك لاستنادهما إلى نفس القاعدة المعرفية الجديدة .

وقد رأينا في تحليلنا لـ «ابستميه» العصر الكلاسيكي أن آدم سميث يحلل العمل على اعتبار أن له القدرة على إقامة مقياس ثابت يبين قيم الأشياء . ولا حظنا وجود مطابقة *identité* عنده بين العمل كنشاط إنتاجي والعمل كسلعة يمكن أن تباع وتشتري (٨). أما الاقتصادي ريكاردو ، فإنه يرى أن العمل كسلعة لا يمكن أن يكون مقياساً ثابتاً لأنه يخضع لما تخضع له السلعة من تغيرات .

ولقد كان الاختلاف بين سميث وريكاردو يتلخص فيما يلي :

العمل بالنسبة للأول يمكن أن يستخدم كوحدة مشتركة لكل السلع لأنه يمكن أن يرد إلى عدد من ساعات العمل يستهلك العامل خلالها كم معين من المواد الغذائية: أما عند ريكاردو فإن كمية العمل تسمح بتحديد قيمة أى شيء ، ليس فقط لأن هذا الشيء تمثله وحدات عمل ، بل أولاً وأساساً لأن العمل كنشاط إنتاجي هو الأصل في أى قيمة . إن هذه القيمة لم تعد رمزاً كما كان الحال في العصر الكلاسيكي ، بل أصبحت إنتاجاً ، وبعبارة أخرى ، إذا كانت الأشياء تساوى نفس القدر من العمل والجهد الذى بذل من أجل إنتاجها ، أو على الأقل ، إذا كانت قيمتها تتناسب مع هذا العمل ، فليس معنى هذا أن ينسب للعمل قيمة محددة وثابتة يمكن مقايضتها في كل زمان ومكان ، بل إنه يعنى بالأحرى أن كل قيمة أيا كانت إنما ترد في النهاية إلى أصل واحد هو العمل (٩). وإذا كان تحليل الثروة في العصر الكلاسيكي

( ٨ ) ص ١٠٥ .

( ٩ ) فوكوه : «الكليات والأشياء» ، ص ٢٦٦ .

يعتمد على التبادل ، فإن ريكاردو يقيم التبادل ذاته على العمل . ولنا فإن نظرية الإنتاج ينبغي أن تسبق نظرية انتشار وتداول السلع . كما أن صور الانتاج *les formes de production* (تقسيم العمل و كمية الآلات المستخدمة ونوعيتها ، وحجم رأس مال صاحب المصنع ... الخ) هي التي تحدد القيمة (١٠) .

ولقد تمخضت أفكار ريكاردو عن نتائج هامة تكشف جميعها عن خصائص الحقبة المعرفية الحديثة (١١) . وهذه النتائج هي :

أولاً : نحدد القيمة طبقاً لظروف انتاج السلعة ، ولم يعد التفسير الاقتصادي مرتبطاً بمفهوم المجال المكاني للتغير والتطابق *espace de différences et d'identités* بل بمفهوم الانتاج المتتابع خلال الزمن *productions successives* .

ثانياً : النتيجة الثانية تتصل بمفهوم الندرة *la rareté* . وكان التحليل الكلاسيكي للندرة يقوم على أساس علاقتها بالحاجة *besoin* . فالإنسان هو المتمثل لحاجاته ولوسائل إشباعها . ورأى اقتصاديو القرن الثامن عشر أن فلاحه الأرض يمكن أن تصل بالانتاج الزراعي إلى القدر الذي يشبع جميع الحاجات وبالتالي يقضى على الندرة (١٢) .

ويقلب ريكاردو هذا التحليل رأساً على عقب ، ويرى أن الكرم الظاهر للأرض لا يرجع في حقيقته إلا إلى شح متصاعد . فالعمل أو النشاط الاقتصادي بوجه عام لم يظهر في تاريخ العالم إلا منذ أن شعر الإنسان بأن الثمار التي تجود بها الأرض تلقائياً لم تعد تكفيه ، فمات عدد من سكان الأرض وكاد آخرون

(١٠) نفس المرجع ، ص ٢٦٧ .

(١١) يمكن مراجعة خصائص الحقبة المعرفية الحديثة بالفصل الثالث .

(١٢) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٢٦٨ .

أن يموتوا لولا أنهم تنبهوا فعملوا . ومن ثم كان الدافع إلى العمل دائماً هو التهديد بالموت ، كما كانت الندرة هي الأساس الذى يقوم عليه أى نشاط إقتصادي .

ونلاحظ أن هذا النشاط الاقتصادي لم يعد من الممكن تصوره بعيداً عن خصائص بيولوجية معينة تتعلق باطراد النمو البشرى سبق أن حذر من خطورتها مالتوس Malthus في نفس زمن ريكاردو .

ويظهر مما تقدم أن انسان «الابستمي» الحديث لم يعد هو المتمثل لحاجاته ولوسائل اشباعها ، بل هو الذى يكبد في أن يدفع عن نفسه خطر الموت . كما يظهر أيضاً أقول «الاتجاه المعرفى» الذى يؤسس كل معرفة على اثملاث .

ثالثاً : النتيجة الثالثة والأخيرة التى تمخضت عنها أفكار ريكاردو وتختص بتطور الاقتصاد . فقد تنبأ ريكاردو وزيادة الانتاج لمواجهة الندرة واستنزاف امكانيات البيئة ، ثم محاولة توسيع الرقعة الزراعية على حساب الغابات واستصلاح الأراضي الصحيرية مما يؤدي إلى زيادة تكاليف الإنتاج . ورأى أن هذه الحالة ستستمر إلى أن يأتى اليوم الذى يرتفع فيه أجر .نعامل عن قيمة العائد من انتاجه اليومى ، أو يعجز سعيه اليومى عن توفير ما يلزمه من قوت . وعندئذ يتوقف التاريخ *L' Histoire deviendra étale* . ويتكشف تنهى البشر *La finitude de l' homme sera définie* . والعجيب أن الجانب التاريخى الذى أدخله ريكاردو في الفكر الاقتصادي هو الذى أدى إلى هذا التصور المتوقف للتاريخ *immobilisation de l' histoire* « ١٣ » .

ويعرض فوكوه للحل الماركسي لهذه الأزمة ، ويرى أن فيه قلباً للتاريخ يترتب عليه بداية لزمان ليس له نفس الصورة الأولى ولا نفس القوانين ولا يتدفق على نفس الوتيرة . وإذا أردنا أن نبحث عن نقط الالتقاء بين ريكاردو

(١٣) نفس المرجع ، ص ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

وماركس فأننا نجد أن السلعة — عند كليهما — إنما ترد إلى النشاط البشرى الذى أنتجها باعتباره هو الأصل فى وجودها — أى ترد إلى العمل le travail . وعند كليهما أيضاً نجد أنه فى داخل هذا العمق الأنثروبولوجى للاقتصاد (العمل) توجد جذور البعد التاريخى له .

غير أنه لا يخفى علينا أن الحوار يدور عند ريكاردو حول مفاهيم الندرة والانتاج ، بينما نجد الحوار عند ماركس يدور حول مفاهيم التكديس — accu mulation والاغتراب aliénation . ومع ذلك فإن التقابل بين الموقفين هنا إنما يأخذ معنى خاصاً من كونه ينبثق عن نفس « الاستميه » أو نفس « الاستعداد المعرفى » السائد . إنه تقابل بين أطراف « مشتقة أركيولوجيا » ، تنتمى إلى نفس التكوين المقاتلى (١٤) . فالعمل ، والبعد التاريخى ، وأقول البشر ، كلها دالات (أى رموز) لم تفقد مدلولاتها داخل نفس « الاستميه » عند ريكاردو وماركس .

ويرى فوكوه ، بناء على ماتقدم ، أننا إذا نظرنا فى أعماق الفكر الغربى ، لوجدنا حقاً أن الماركسية لم تقدم طفرة بمعنى الكلمة ، أو بداية جديدة لتيار فكرى جديد ، أو قطعاً coupure يفصل بين اتجاهين فى المعرفة مختلفين فى الطبيعة . لقد وجدت الماركسية لنفسها مكاناً بلا أدنى صعوبة ، وذلك ضمن اتجاه معرفى تفضل بالموافقة عليها لأنه هو الذى أفسح لها المجال . ولم يكن ضمن مخططها إثارة أى اضطراب ، أو فى قدرتها لإحداث أى تغيير اللهم إلا قيد أنملة فقط ، وذلك لأنها تنبثق كلية عن هذا الاتجاه المعرفى الحديث . إن الماركسية داخل فكر القرن التاسع عشر هى تماماً كالسمكة

---

(١٤) راجع الفصل الثانى .

في الماء ، بمعنى أنها تصاب بوقف في التنفس خارج هذا النطاق (١٥) .

ومهما كان من شيء ، فإن بداية القرن التاسع عشر قد تميزت بظهور اتجاه معرفي يتصف بإدخال عنصر التاريخ في الدراسات الاقتصادية وذلك عن طريق الاهتمام بصور الإنتاج ، كما يشير إلى أفول الوجود البشري ، وذلك بالكشف عن علاقة هذا الوجود بالندرة والعمل ، وأخيراً فإن هذا الاتجاه يشير إلى نهاية مسار التاريخ في صورة تباطؤ بلا حدود (ريكاردو) أو تغيير يستهدف الأصول (ماركس) .

يقول فوكوه :

«إن الزمان المكس للسان والانتاج مع استمرار  
حدوث الندرة ، هما اللذان تسببا — ابتداء من القرن  
التاسع عشر — في ظهور فكرة إفقار التاريخ  
Appauvrissement de l' histoire ، وتحول مساره إلى

جمود ونحجر» (١٦)

وقد استثمرت فعلاً هذه الفكرة في أواخر القرن التاسع عشر. فقد أخذ نيتشة «أفول الزمان» وجعل منه «موت الإله» و «حيرة الانسان» ، كما أخذ «تناهي البشر» ليخرج منه «السوبرمان» أو «الانسان الأعلى» (١٧). أما الإنسان الراهن ، فهو في نظر نيتشة «جبل مشدود بين الحيوان الأعجم والإنسان الأعلى ، جبل مشدود فوق الهاوية» (١٨) وهنا يتضح لنا أن

(١٥) ميشيل فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٢٧٤ .

(١٦) نفس المرجع ، ص ٢٧١ .

(١٧) نفس المرجع ، ص ٢٧٥ .

(١٨) يوسف كرم : «تاريخ الفلسفة الحديثة» ، (دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٩) ، ص ٣٩٠

علم الاقتضاد الذى انبثق على قاعدة معرفية لما خصائص معينة ، يمكن لتأنيجه أن توحى بأفكار فلسفية تنسجم مع سائر العناصر الثقافية داخل «الابستميه» .

وإذا انتقلنا إلى علم اللغة فى القرن التاسع عشر ، عند أمثال جريم Grimms وراسك Rask ، وبوب Bopp ، فاننا نلاحظ أنهم قاموا لأول مرة بدراسة اللغة على أنها مجموع من العناصر الصوتية لا علاقة لها بنوع الحروف الهجائية التى كتبت بها . إذ بينما كانت الثوابت الهجائية les constantes alphabétiques والثوابت المعنوية les constantes significatives فى العصر الكلاسيكى هى المحك الضرورى لمعرفة الأصول البعيدة للغة ، نجد أن القرن التاسع عشر يستخدم وسائل لغوية بحثة للكشف عن العناصر الداخلية للغة دون ما حاجة للبحث عن الأصل . فأصبح علم المقاطع اللغوية l'étymologie هو المنهج المتبع لتحليل أى لفظ بغية الوصول إلى أصله ، كما أصبحت أى لغة تعرف بكيفية ربطها للعناصر اللفظية المكونة لها وهى الأسماء والأفعال والكلمات والأصوات . وهذا يعنى أن القرن التاسع عشر يهتم بآتماط التنظيم اللغوى types d'organisation linguistique . كما يهتم بالتغيرات الداخلية لهذا التنظيم .

وقد ترتب على ظهور علم اللغة على هذا النحو ، أن انفصلت اللغة عن التمثل . كما ظهرت كينونة اللغة l'être du langage .

يقول فوكوه :

«لقد ظهر المنطق الرمزى على يد جورج بول Boole (١٨١٥ - ١٨٦٤) فى الوقت الذى أصبحت فيه اللغة موضوعاً للفلسفة . وقد كان هدف مفكرى هذه الحقبة

هو تمثل صور وتسلسل الفكر بعيداً عن أى لغة» (١٩)

وقد كان المظهر المعبر عن كينونة اللغة واستقلالها في القرن التاسع عشر هو «الأدب» ، وآية ذلك أن هذا القرن «قد قام بفصل المعرفة Savoir عن لغةخالصة language pure ، غامضة الكينونة والوظيفة ، نسميها منذ ذلك الوقت أدبا» (٢٠) . وهذا الأخير يفترق عما اعتدنا أن نسميه كذلك منذ دانتى وهومير وس لأنه ينفلق على ذاته ويتخلص من القيم (وهي قيم تتصل بالمتعة والتذوق والبحث عن الحقيقة وتأمل الطبيعة ) ، رغم أنها هي التي يسرت تداوله في العصر الكلاسيكي ، ويصبح مجرد تعبير عن لغة ليس لها من قانون سوى تأكيد وجودها (٢١) . أليس في كل هذا تعبير عن قلق الإنسان في الحقبة المنطوقية الحديثة ؟ .

ولاحظ فرانسوا فال F. WAHL أن معظم ما كتبه ميشيل فوكوه عن كينونة اللغة في القرن السادس عشر يتطابق مع ما كتبه عن لغة القرن التاسع عشر خصوصاً بعد أن استقلت اللغة (الأدب) على يد مالا رمية ، وبعد أن أصبحت كلاماً يحمل بين طياته مبدأ فهمه أى يتطلب وجود لغة ثانية هي لغة التأويل interprétation (٢٢) . غير أن فوكوه يصرح بأن «التأويل في القرن السادس عشر يبدأ بالعالم (أى الأشياء والنصوص مجتمعة) ، ويستهدف الكلام المقدس la Parole divine أما التأويل عندنا ، أى منذ أن تحدد في القرن التاسع عشر ، فإنه يبدأ من الانسان أو الله أو المعرفة أو الخرافة ثم

(١٩) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣١٠ .

(٢٠) نفس المرجع ، ص ١٠٣ .

(٢١) نفس المرجع ، ص ٣١٣ .

(22) F. WAHL : Qu'est-ce que le Structuralisme ? ",Op. cit., PP. 312—313.

يتقل إلى الكلمات التي تهبها الوجود . وهو تأويل لا يكتشف قدسيه مقال أول بقدر ما يكشف عن أننا خاضعون ومستسلمون لتسلط اللغة «(٢٣)».

ومهما كان من شيء ، فإن «المعرفة» في الحقبة الحديثة قد تميزت بظهور مناهج التأويل les méthodes d'interprétation وفنون الاستنباط الصوري les techniques de formalisation، وهما صنوان من الممارسة ، نشأتا على أرض مشتركة هي كينونة اللغة ، وتحاول كل واحدة منهما أن تحتوى الأخرى . فالتأويل يرتد بنا إلى الوجود العادي للغة ، أى إلى صور بحتة خالية من أى معنى . كما أن ممارسة الاستنباط الصوري تحتم تطبيق حد أدنى من التفسير (أو التأويل) وبالتالي تفسير كل الصور الصامتة كما لو كانت تعنى شيئاً .

يقول فوكوه :

«إن السمو النقدي باللغة إنما يتضمن اقترابها من حدث المعرفة الخالص acte de connaître pure الذى لانجده فى أى مقال نعرفه . وهذا الحدث إما أن ينكشف لنا فى صور المعرفة المختلفة ، وإما أن يلمس ضمن محتويات اللاشعور . وهنا تتضح لنا المسيرة المزدوجة للقرن التاسع عشر نحو تصورية الفكرة le formalisme de la pensée ونحو اكتشاف اللاشعور— أى نحو برتراند راسل وسيجموند فرويد— كما يتضح لنا أيضاً محاولة الاحتواء المتبادل بين الاتجاهين :

---

(٢٣) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣١١ .



محاولة تقديم صور خالية من أى مضمون تفرض على  
 اللاشعور ، ومحاولة إظهار معنى الكينونة ، والأفق  
 المعاش l' horizon vécu لجميع معارفنا . لقد كانت  
 هذه هى الأرض المشتركة التى أثبتت البنائية وفلسفة  
 الظواهر «فينومينولوجيا» (٢٤).

رأينا فى هذا الفصل كيف اثبتت علوم البيولوجيا والاقتصاد واللغة  
 على صفحة الاستعداد المعرفى الحديث : وكيف أن هذا الاستعداد المعرفى  
 ليس فى نهاية المطاف سوى مجموعة من الخصائص تضم جميع عناصر البناء  
 الثقافى السائد أو ما يسميه فوكوه «ابستميه» .

ولعلنا الآن بحاجة إلى وضع تحديد منهجى لمعنى المعرفة ، وأيضاً لذلك  
 النوع من المعارف الذى يسمى علماً من وجهة النظر «الأركيولوجية» .  
 اختلاف العتبات وتتابعها :

كتب فوكوه فى كتابة المنهجى الموسوم باسم «أركيولوجيا المعرفة» ،  
 وتحت عنوان «اختلاف العتبات وتتابعها» ، أن «عتبة المعرفة» ليست أولى  
 العتبات . إذ يسبقها «العتبة الوضعية» ويلها «عتبة العلم» ثم «العتبة الصورية» (٢٥).  
 أما العتبة الوضعية le seuil de positivité فهى اللحظة التى تتحدد ابتداء  
 منها أى ممارسة مقالية أو اللحظة التى يظهر فيها نسق أو حد لتكوين المنطوقات ،  
 وهى أيضاً لحظة التحول الذى يطرأ على هذا النسق .

(٢٤) نفس المرجع ، ص ٣١٣ .

(٢٥) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ص ٢٤٣ - ٢٤٧ .

إن الوضعيات positivities ليست شروطاً قبلية وضرورية يظهرها التاريخ conditions a priori et nécessaires ، كما أنها لا ينبغي أن تفهم على أنها مجموع. ملزم يفرض على الفكر البشرى من خارجه أو يوجد مسبقاً في داخله . إن هذه الوضعيات إنما تكون بالأحرى مجموع الظروف التي تسير الممارسة المقالية وفقاً لها والتي يمكن أن تتحكم في مسار هذه الممارسة بما ييسر انتاج منظوقات جديدة (٢٦) . غير أن إضافة منظوق جديد إلى مجموعة من المنظوقات سبقتها في الوجود إنما يتضمن (ليس فقط موقف situation أو سياق contexte أو حافز motif) ، بل شروط conditions وقواعد règles تختلف عن القواعد المنطقية واللغوية . وهذا يعني أن التغير على مستوى المقال لا يفترض ظهور «أفكار جديدة» أو ظهور «عقلية مختلفة» ، كما أنه لا يفترض حدوث أى اختراع أو ابتكار ، إنه استحالة في الممارسة transformations dans la pratique (٢٧).

يقول فوكوه :

«لا وجود في الواقع لأي مبادأة فردية ، بل يوجد مجال ليست المبادأة الفردية مركزاً له . وربما كانت هناك قواعد معينة تضعها هذه المبادأة موضع التنفيذ دون أن تكون قد اخترعتها أو صاغتها ، وقد يكون هناك علاقات تعضد (المبادأة) دون أن تكون (هذه المبادأة) نتيجتها الأخيرة ودون أن تكون هي نقطة تجمع هذه العلاقات» (٢٨)

---

(٢٦) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٧٢ .

(٢٧) نفس الموضع .

(٢٨) نفس الموضع .

إن تحليل الوضعيات إنما يعنى الكشف بوجه خاص عن القواعد التي تمكن الممارسة المقالية من تكوين الموضوعات *objets* والمنطوقات *énoncés* والتصورات *concepts*. وهذه العناصر المتكونة لا تعتبر علماً، وذلك لأن نسق العلاقات القائم بينها لا يتصف بالصرامة المطلوبة، كما أنها ليست معلومات *connaissances* تتكسد إلى جوار بعضها البعض وتتكون عن طريق الخبرة حول ذات تملك ناصيتها. إن هذه العناصر هي التي ينبثق عنها قضايا متناسقة أو غير متناسقة. ويتكون ابتداء منها أنماط للتحقق *vérification* وأضرب عديدة للوصف *description*، كما يصدر عنها العديد من النظريات.

ويقول فوكوه عن هذه العناصر أنها تسبق *le préalable* لما سيتكشف كعرفة أو وهم، كحقيقة مقبولة أو خطأ مرفوض. (٢٩).

ويظهر مما تقدم أن هذا التسبيق ليس يعطى من المعطيات *un donné*، وأخبرة معاشة تختلط بالمدرك أو المتخيل يمكن لأي فرد أن يجتازها إن أراد أن يكشف عما تجبئه من معان (٣٠).

إن هذه العناصر لابد وأن تكون قد تكونت بفعل الممارسة المقالية ذاتها، ليتكون ابتداء منها بعد ذلك مقالاً علمياً يتحدد هو الآخر لا بصرامته *sa rigueur* بل بالموضوعات التي يتناولها ونمط المنطوقات التي يستخدمها والتصورات التي يلجأ إليها (٣١).

وهكذا فإن العلم لا يرد إلى المعاش *le vécu*، بل إنه يرد إلى ما ينبغى أن

(٢٩) فوكوه: «أركيولوجيا المعرفة»، ص ٢٣٧.

(٣٠) نفس الموضع.

(٣١) نفس الموضع.

يكون مقولا ce qui a dû être dit وذلك إن أردنا أن يكون هناك مقال يستجيب  
لحك علمي تجريبي أو صوري (٣٢).

إن ما يسميه فوكوه معرفة Savoir ليس شيئاً آخر سوى تلك العناصر  
المتكونة في مجموعها (الموضوعات والمنطوقات والتصورات) ، والتي تنشأ  
عن الممارسة المقالية في حقبة منطقية معينة . وهذه العناصر ، وإن كانت  
ضرورية في تكوين العلم ، إلا أنه قد لا ينبثق عنها بالضرورة .

ويحدد فوكوه ما يقصده بعتبة المعرفة le seuil d'épistémologisation  
فيقول :

«عندما ينبثق داخل التكوين المقالى عدد من المنطوقات

des normes de vérification يستهدف إقامة معايير للتحقق

والتناسق et de cohérence وتكون بمثابة النموذج السائد ،

عندئذ نقول أن التكوين المقالى ينتقل إلى عتبة المعرفة » (٣٣).

ونلاحظ مما تقدم أن الأركيولوجيا في طريقها إلى العلم إنما تبدأ بالممارسة  
المقالية وتتمر بالمعرفة

l'archéologie parcourt l'axe pratique discursive - Savoir - Science  
وذلك بدلا من الطريق التقليدى الذى يبدأ بالشعور ويمر بالمعلومات ثم يصل  
إلى العلم — l'axe conscience-connaissance science (٣٤) . وإذا  
كان علم تاريخ الأفكار يعتمد في تحليله على عنصر «المعلومات» وهو بالتالى  
يضطر إلى الخوض في تساؤلات متجاوزة (ترانسندنتالية) كما يتعد عن  
الموضوعية ، فإن الركيزة التى تستند إليها الأركيولوجيا في تحليلها هي المعرفة

(٣٢) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٣٨ .

(٣٣) نفس المرجع ، ص ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٣٤) نفس المرجع ، ص ٢٣٩ .

savoir أى المجال الذى يصعب فيه على الذات أن تظهر كمنشأ متجاوز أو شعور منخرط فى التجربة .

وبعد العتبة الوضعية وعتبة المعرفة تأتى عتبة العلم *seuil de scientificité* ويعبر عنها ميشيل فوكو بقوله :

«إذا كان النمط المعرفى *la figure épistémologique* يستجيب لأكثر من محك صورى ، وإذا كانت منطوقاته تخضع ، بالإضافة إلى قواعد التكوين الأركيولوجى ، لعدد من قوانين تركيب القضايا ، عندئذ نقول أن هذا النمط المعرفى ينتقل إلى عتبة العلم» (٣٥).

ويميز فوكو بين مجال العلم وبين «الأرضية الأركيولوجية» . فإذا كانت قضايا العلم تخضع لقوانين معينة داخل نسق علمى محدد ، فإن الأرضية الأركيولوجية لا تتصف بهذا التحديد وتلك الصرامة .

وعلى سبيل المثال ، فإن ماتكهن به دالامبير *D' Alembert* (٣٦) بخصوص تطور الأنواع ربما كان ترجمة لعدد من التصورات أو الفروض العلمية التى سادت فى عصره ، وربما كان إرهاباً أو تسييقاً لحقائق مستقبلية ، ولكنه مع ذلك لا ينتمى لمجال علم التاريخ الطبيعى بل ينتمى بالأحرى للأرضية الأركيولوجية لهذا العلم خصوصاً وأنه من الممكن أن نكتشف على تلك الأرضية نفس قواعد تكوين المنطوقات لدى علماء التاريخ الطبيعى فى ذلك العصر من أمثال لينيه *Linné* وبيفون *Buffon* ودوبنتون *Daubenton* . ولاحظ

(٣٥) نفس المرجع ، ص ٢٤٤ .

(٣٦) دالامبير هو كاتب وفيلسوف ورياضى فرنسى ، ولد فى باريس (١٧١٧ - ١٧٨٣) ، وهو من مؤسسى دائرة معارف القرن الثامن عشر .

فوكوه أيضاً أن ما كتبه شارل بونيه Bonnet في القرن الثامن عشر عن تناسخ الأرواح Palingénésie يمكن أن يدخل كذلك في نطاق الأرضية الأركيولوجية لعلم التاريخ الطبيعي رغم أنه أبعد ما يكون عن المعايير العلمية السائدة في عصره (٣٧). ويتضح مما تقدم أن «الأرضية الأركيولوجية» إنما تتسع للكتابات الأدبية والنصوص الفلسفية إلى جانب النصوص العلمية . وهي بما تفتقر إليه من تحديد وصرامة تقترب كثيراً من مفهوم «المعرفة» . أما العتبة الرابعة والأخيرة فهي العتبة الصورية le seuil de la formalisation ويقول عنها ميشيل فوكوه :

«عندما يتمكن المقال العلمي من تعريف بدسياته الضرورية وقضاياها المشروعة والعناصر التي يستخدمها ويكون بذلك قد أقام صرحاً صورياً خاصاً به ، عندئذ نقول أنه ينتقل إلى العتبة الصورية» . (٣٨)

ويلاحظ فوكوه أن تتابع هذه العتبات ليس منتظماً وليس متجانساً. ففي الوقت الذي انتقل فيه العديد من الوضعيات إلى العتبة الصورية نجد أن عدداً منها لم ينتقل بعد عتبة المعرفة أو العلم . ويلاحظ أيضاً أن التكوينات المقالية لا تمر تباعاً successivement بهذه العتبات كما هو الحال بالنسبة لمراحل النمو البيولوجي ، وذلك لأن كل تكوين مقال إنما يتصف باستقلاله وتفرد (٣٩).

---

(٣٧) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٢٩ .

شارل بونيه هو فيلسوف وعالم طبيعي ، سويسري الجنسية ، ولد في جيليف (١٧٢٠ -

١٧٩٣) .

(٣٨) نفس المرجع ، ص ٢٤٤ .

(٣٩) نفس الموضوع .

وعلى سبيل المثال فإن الإنتقال إلى عتبة العلم قد تطلب في بعض الحالات الانتقال إلى وضعية جديدة . فالانتقال من «التاريخ الطبيعى» إلى علم البيولوجيا (باعتباره لا يقوم على تصنيف الكائنات بل على ترابط نوعى لمختلف الأعضاء) ، نقول إن هذا الانتقال لم يحدث فى عصر كوفيه Cuvier إلا بانتقال مماثل من وضعية لأخرى. وعلى العكس تماماً نجد أن ظهور علم الطب التجريبي عند كلود برنارد ثم «الميكروبيولوجيا» la microbiologie عند باستير لم يستلزم إطلاقاً حدوث أى تغيير للتكوين المقاتل السائد ، رغم أن كلا العلمين قد غير تماماً ما تعارفت عليه «الفسولوجيا الباثولوجية» وعلم التشريح (٤٠).

أما بالنسبة لعلم الاقتصاد فقد تعدد القطع ، إذ ظهرت عتبة الوضعية في القرن السابع عشر مع ظهور النظريات الاقتصادية التي تعطي أهمية كبيرة للذهب باعتباره الدعامة الأساسية لاقتصاد الدولة ، وهى النظريات التي تجتمع تحت اسم le mercantilisme . ثم ظهرت عتبة المعرفة في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن التالى عند كانتيون Cantillon ولوك Locke (٤١) . وفي القرن التاسع عشر ظهر نمط جديد للوضعية مع ريكاردو كما ظهرت صورة جديدة للمعرفة عند كورنو Cournot وجيفونز Jevons وكارل ماركس (٤٢) . ويرى فوكوه أن «الرياضيات» قد عبرت دفعة واحدة عتبة الوضعية والمعرفة والعلم وأيضاً العتبة الصورية . ومن ثم فإن الإنتاج الذى تفتق عنه ذهن الرياضيين الأوائل ظل مثالا ينتشر على ممر العصور ، ولم تكن إعادة النظر فيه إلا

(٤٠) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٤٥ .

(٤١) ريشارد كانتيون هو اقتصادى إيرلندى ( ١٦٨٠ - ١٧٣٤ ) ، وجون لوك هو

الفيلسوف الانجليزى الذى عرف بمذهبه الحسى ( ١٦٣٢ - ١٧٠٤ ) .

(٤٢) كورنو هو فيلسوف وعالم رياضات واقتصاد ، فرنسى الجنسية ، ( ١٨٠١ - ١٨٧٧ ) .

أما جيفونز Jevons فهو عالم اقتصادى انجليزى الجنسية ، أول من أدخل المنهج الرياضى

فى التحليل الاقتصادى ( ١٨٣٥ - ١٨٨٢ ) .

لتطهيره أو تكراره. كما يرى فوكوه أيضاً أن الرياضيات وهى أنموذج الصرامة والبرهان بالنسبة للعديد من العلوم ، ليست سوى مثل سىء لا ينبغي تعميمه بالنسبة للمؤرخ الذى يبحث عن صيرورة حقيقية للعلوم (٤٣) . فقد ظهر لنا أن اختلاف العتبات وانتشارها فى الزمان وتتابعها أو احتمال تواجدها معاً ، وتضمنها لبعضها البعض ، وشروط ظهورها ، نقول ، ظهر أن كل هذا يشكل مجالا هائلا للبحث الأركيولوجى .

### الأنماط المختلفة لتاريخ العلوم :

إن العتبات المتعددة إنما تقضى بوجود صور متميزة للتحليل التاريخى يوضحها فوكوه كما يلى : (٤٤)

أولاً : تحليل تاريخى على المستوى الصورى ، وهو تاريخ الرياضيات الذى يعتمد على تحليل الإنابة *une analyse récurrentielle* وفيه يتحدد كل مفهوم رياضى بالرجوع إلى مفاهيم أخرى سابقة عليه . أى أنه يتم من داخل العلم الذى وصل إلى المرحلة الصورية .

ثانياً : تحليل تاريخى على المستوى العلمى ، وفيه يظهر تكوين العلم ابتداءً من أشكال معرفية مختلفة . وهنا يجيب المؤرخ بوجه خاص عن تساؤلات مثل : كيف تظهر تصور ما من تضمناته الخيالية ليصبح تصوراً علمياً ؟ وكيف يتحول مجال من الخبرة والممارسة المباشرة إلى مجال علمى ؟ وبصورة عامة كيف تظهر معرفة علمية فى مقابل مرحلة سابقة على العلم هى التى تمهد له وتعارضه فى نفس الوقت ؟

(٤٣) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٤٤) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٤٧ - ٢٤٩ .



وقد اهتم باشلار Bachelard وكانجلهم Canguilhem بهذا النوع من التحليل التاريخي ، وهو يسمى «التاريخ الاستمولوجي للعلم» . وفيه يظهر التقابل بين الصواب والخطأ ، والعقلاني وغير العقلاني ، والعلمي وغير العلمي .

ثالثاً : التحليل التاريخي الذي يستهدف عتبة المعرفة ، أى نقطة الفصم point de clivage بين التكوينات المقالية وبين أشكال معرفية ليست علوماً ولن تصل أبداً إلى مرتبة العلم .

رابعاً : تحليل «الإبستميه» l'analyse de l'épistémè ، وهو يشمل تحليل التكوينات المقالية والوضعيات والمعرفة من حيث علاقاتهم بالأشكال الاستمولوجية والعلوم . أى أنه نمط للتحليل التاريخي يختلف تماماً عن الأنماط المتقدمة .

وقد يظن أن كلمة Epistémè تشير إلى حقبة تاريخية تضم جميع ألوان الثقافة السائدة وتفرض على كل لون منها نفس المعايير ونفس المسلمات . كما قد يظن أنها تشير إلى بناء معين للفكر يتصف به البشر في حقبة معينة . غير أن فوكوه يؤكد أن «الإبستميه» ليست صورة للمعرفة أو نمطاً للمعقولة يشمل مختلف العلوم ويعبر عن وحدة الذات أو النفس أو العصر . «إنها مجموع العلاقات التي يمكن أن نكتشفها بين علوم مختلفة في عصر معين وذلك عندما نحللها على مستوى الإطار المقالى» (٤٥) .

### المعرفة والإيديولوجيا :

رأينا فيما سبق أن العلاقة بين العلم والمعرفة تختلف باختلاف التكوينات

---

(٤٥) نفس المرجع ، ص ٢٥٠ .

المقالية ، كما رأينا أن التحليل الأركيولوجي لا يسجل ما قد يكون بينهما من علاقة استبعاد exclusion بل إنه يكتفى بأن يبين كيفية انبثاق العلم عن عنصر المعرفة . وهنا تظهر علاقة الإيديولوجيا بالمعرفة والعلوم .

إن أثر « الإيديولوجيا » على العلوم ، أو ما قد تنصف به العلوم من تأثير إيديولوجي ، لا يرد إلى ما قد يكون لها من تركيب مثالي كما لا يرجع إلى استخدامها تقنياً في المجتمع أو إلى تدخل ذوات الأفراد الذين يمارسون هذا الاستخدام ، بل إنه ينبثق تلقائياً ابتداء من ظهور العلم على قاعدة المعرفة . وهذا يعنى أن مسألة الجانب الإيديولوجي للعلم هي مسألة وجود العلم ذاته باعتباره ممارسة مقالية ، وباعتبار ما يربطه من علاقات بممارسات أخرى (٤٦).

وإذا كان من الممكن القول بأن الاقتصاد السياسى قد لعب دوراً في المجتمع الرأسمالى لأنه يخدم مصالح الطبقة البرجوازية التى أوجدته ، إلا أن أى تحليل دقيق للعلاقة بين البناء المعرفى لهذا العلم وبين وظيفته الإيديولوجية ينبغى أن يمر أولاً بتحليل التكوين المقالى الذى أوجده ، وأيضاً بتحليل الموضوعات والتصورات والاتجاهات العامة التى تدخل ضمن نسقه .

وبناء على ماتقدم يلاحظ فوكوه ما يلى : (٤٧)

١ — إن الإيديولوجيا ليست نقيماً للعلم . ومن ثم فإن العلوم التى يظهر بها جانب إيديولوجى مثل المقال الإكلينيكي أو الاقتصاد السياسى لا ينبغى أن ينظر لمنطوقاتها — لهذا السبب — على أنها خارجة على الموضوعية وبالتالى متناقضة أو خاطئة .

(٤٦) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٤٢ .

(٤٧) نفس المرجع ، ص ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

٢ - إن أى تناقض أو نقص *lacune* أو عيب نظري *défaul théorique* يمكن أن يشير إلى وجود دور إيديولوجي لأى علم (٤٨). كما أن تحليل هذا الدور ينبغي أن يكون على مستوى «الموضوعية» وأيضاً على مستوى العلاقات بين قواعد التكوين وبين البناء العلمى .

٣ - إن المقال بوجه عام لا ينقسم تماماً عن الإيديولوجيا نتيجة لتصحيح هذه الأخطاء . فالإيديولوجيا لها دور مستمر لا يتأثر باختفاء الزيف واطراد الصرامة .

٤ - إن التصدى للدور الإيديولوجي لعلم بهدف تغييره ، لا يعنى الكشف عما يمكن أن يتضمنه من افتراضات فلسفية ، بل إنه يعنى بالأحرى ، إعادة النظر فيه كتكوين مقالى . وهذا لا يفترض التصدى إلى التناقضات الضرورية لقضاياها ، بل إلى نسق تكوين موضوعاته ، ونمط منطقته وتصورات واختياراته النظرية *ses choix théoriques* . وسنرى في الفصل القادم كيف ظهرت العلوم الانسانية على قاعدة المعرفة أو «الابستميه» الحديث .

---

(٤٨) «دور إيديولوجي لأى علم» ترجمة للعبارة :

Fonctionnement idéologique d'une science.



## الفصل السابع

### نظرة أركيولوجيا المعرفة للإنسان

ويشمل :

- الإنسان في الفلسفة المعاصرة .
- أركيولوجيا المعرفة ليست نزعة متشائمة .
- أركيولوجيا المعرفة والنزعات الإنسانية .
- الإنسان والعلوم الإنسانية :

«ثلاثي المعرفة» Le trièdre du Savoir

- ظهور العلوم الإنسانية .
- طبيعة العلوم الإنسانية .
- موت الإنسان .



## نظرة أركيولوجيا المعرفة للإنسان

الإنسان في الفلسفة المعاصرة :

يقول ميكيل ديفرن DUFRENNE

«إن الفلسفة المعاصرة لا تعتد بالإنسان ، كما أنها لا تتخذ منه موضوعاً للتفكير . وليس ذلك بسبب صعوبة خاصة تكتنف هذا الموضوع ، بل لأنها لا تعترف بوجوده أصلاً . صحيح أنها تعترف بوجود كائنات انسانية ، أما فكرة الإنسان فهي خرافة نشأت عن أفكار جوفاء وأحكام سابقة» (١) .

والحقيقة أن الإنسان ليس موضوعاً للتفكير إلا بالقدر الذي يريده هو . وعلى ذلك فقد كان من الممكن تعريف الإنسان بأنه حيوان عاقل ، كما كان من الممكن أن ينسب إليه نفس خالدة ، أو أن نجعله يتبوأ مكاناً على قمة الخلق ، كما فعل اللاهوتيون ، أو — على النقيض تماماً — نجعله «يسير على جبل مشدود فوق الهاوية» كما فعل نيتشة (٢). وهنا يتضح أن ماتؤكده النزعات الإنسانية ، وما تنسبه إلى «الإنسان» من خصائص ، وما تخصه به من فضل لا يعدو أن يكون وهماً .

(1) Mikel DUFRENNE : "La philosophie du néo-positivisme," in (Esprit, Mai 1967), P. 781.

(٢) يوسف كرم : «تاريخ الفلسفة الحديثة» ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٩ ، ص ٣٩٠ .

يقول فوكوه :

«إن الثقة بالدراسات الإنسانية إنما تضر بالفكر لأنها

تصيبه بنوم جديد» (٣).

Faire crédit à l'anthropologie, c'est compromettre la pensée qui s'endort d'un nouveau sommeil.

ولا يخفى فوكوه غبطته لما جاء على لسان نيتشة من ظهور أعراض الانحلال لدى الإنسان الحديث ومن تبشيره بظهور الإنسان الأعلى ويقول :

«لقد أعمتنا الشواهد القريبة الخاصة بوجود الإنسان لدرجة أن ذاكرتنا قد نسيت العهد الذى وجد فيه العالم بما يشمله من نظام وكائنات إنسانية وغاب فيه الإنسان . إننا لنفهم ما يحدثه تفكير نيتشة من دوى هائل وخاصة عندما يقرر أن الإنسان لم يعد شيئاً، وأن تفكيرنا الحالى عن الإنسان وما يسمى بالزعة الإنسانية إنما يرقدان على نفى صارخ لوجوده » (٤).

وترى الباحثة آنجيل مارييتى أن فوكوه قد فهم ما لم يفهمه الكثيرون من معاصرنا عن النتيجة الحتمية التى يمكن أن تستخلص مما قدمه نيتشة وهى : أن الإنسان يفكر دون أن يترتب على ذلك أنه موجود (٥) .

(٣) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٥٢ . ولعله يقصد «النوم الجديد» ما يصيب الفكر من نزعات إيقائية . وهو «جديد» ربما بالقياس الى «النوم الأول» الذى أشار اليه كنت والذى أيقظه منه هيوم .

(٤) نفس المرجع ، ص ٣٢٣ .

Angèle MARIETTI : Op. cit., P. 19.

(٥)



فالمفكر حائر باستمرار بين فكره وذاته . وهو انسان بشيء آخر خارج عنه : هذا الشيء هو الحياة التي يشترك فيها مع سائر الكائنات والثقافة الموجودة حوله . والمفكر لا يستطيع أن يعرف ذاته أو يحسك بحقيقته إلا في ماض ولى وانصرم أو في مستقبل يتأجل باستمرار . فهو يبحث عن ذاته في التاريخ ، ثم لا يلبث أن يطرأ عليه التغير والصيرورة . ولذا فإنه هو «الآخر» دائماً بالنسبة للاغيار وبالنسبة لذاته .

والإنسان إذا لم يكن اللغة التي يتكلمها أو العمل الذي يقوم به أو الحياة الموجودة في أعماقه ، فاذا يكون في النهاية ؟ إنه شيء غير متعقل *impensé* ، ولا يمكن التعبير عنه بالقول *indicible* كما أنه غير مرئي *invisible* . وهذا الشيء هو الذي اكتشفه فوكوه على أنه القاسم المشترك لكل إنسان معاصر . ويقول عنه : «إنه الشاطئ القائم *une plage obscure* الذي يشير إلى منطقة عميقة في طبيعة الإنسان» (٦).

وهنا يبدو الآخر *l'autre* بالنسبة للإنسان على أنه أكثر البناءات عمقاً وتأصلاً . إنه موسيقى حقيقة في داخلنا ترنو إلى الظهور لكي تكون مرئية ومسموعة خصوصاً وأنها غير معرفة *indéfinie* . وغير معبر عنها *inexprimée* وطواها النسيان *immémoriale* . إن «الآخر» الذي نتحدث عنه هنا هو الإنسان ذاته بعيداً عن الانغلاق الذي يسببه المجتمع وبعيداً عن تراكمات الثقافة ، وهو «الآخر» الذي لا تعترف به البناءات الاجتماعية التاريخية . ويرى فوكوه أن ما يهدف إليه الفكر المعاصر بعد الدراسات التي قام

( ٦ ) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٣٧ .

ويرى فرانسوا قال أن «النير متعقل» عند فوكوه يذكرنا بالشيء في ذاته *L'en-soi* عند هيجل ، والافتراق *aliénation* عند ماركس ، والمتضمن *l'implicite* عند هسرك  
F. WAHL : Op. cit. P. 367.

بها نيتشة وفرويد هو «أن يكشف القناع عن اللا شعور وأن يغمس في صمته s'absorber dans son silence ، وأن ينصت إلى همسه الغامض» (٧) . كما يرى أن تبشير نيتشة بظهور الانسان الأعلى إنما يعنى أولا وقبل كل شيء التنبؤ بموت الإنسان الراهن أى ظهور عتبة جديدة يمكن أن يبدأ منها الفكر الفلسفى المعاصر (٨) .

أركيولوجيا المعرفة ليست نزعة متشائمة :

تقول الباحثة آنى جيديه GUEDEZ :

«إن فوكوه قد أراد من خلال «مولد العيادة» ، بعد «تاريخ الجنون» أن يضعنا أمام ذواتنا بعد أن أصبحنا مجرد «فتات» miettes وكأنا هو قد شاء لنا أن نصطحبه إلى أعماق الهاوية (أو الجحيم) نتى نرى — بعيون رءوسنا — كيف أن اتراننا مزعزع دائماً أمام هاوية الجنون من جهة . وهاوية الموت من جهة أخرى... أن اهتمام فوكوه بالطب ، وبالمرض ، وبالمريض ، إنما هو انشغال بالموت ، وبالكائن الفانى ، وبالذات المتلاشية ، وكأن لسان حاله يقول : «أنا الكائن الذى يموت ، أو «أنا الغائب الذى لا موضع له أمام صلابة الموت» ، أو «أنا ذلك الاختراع الحديث الذى تثبت أركيولوجيا الفكر أنه لا يرجع إلا إلى عهد قريب جداً؛

( ٧ ) فوكوه : «الكلمات والأشياء» : ص ٣٣٨ .

( ٨ ) نفس المرجع ، ص ٣٥٣ .

وأنه ربما يعرف نهايته في مستقبل قريب أيضاً» (٩) .

وقد ذكرت الباحثة هذا النص في مطلع الفصل الثاني من كتابها عن فوكوه وعنوانه «أركيولوجيا العلوم الإنسانية». كما كانت قد قدمت للفصل بعبارة للفيلسوف نيتشة تقول :

«في ركن سحيق من الكون الذي تترامى أطرافه بين لمعان  
العديد من الشمس ، ظهر على سطح أحد الكواكب  
حيوانات ذكية اخترعت المعرفة . ولقد كانت لحظة  
الإختراع هذه هي أكبر ما شهدته التاريخ الكوني من زيف  
وتبجح . غير أنها لم تكن سوى لحظة . إذ يكفي أن  
تتهدد الطبيعة لكي يفنى الكوكب وتموت الحيوانات  
الذكية» (١٠).

ويظهر لنا من التقديم الذي اختارته الباحثة للفصل ، ومن مطلعها ، أنها  
تهدف إلى إظهار فوكوه بمظهر الفيلسوف المتشائم الذي يسخر من الإنسان  
الراهن ومن مقدراته ، تماماً كما فعل الفيلسوف نيتشة .

غير أن الدارس المدقق سيدرك مبلغ عدم الدقة في معظم ما ذهبت إليه  
الباحثة . كما سيدرك أن هدفها من الإثارة في مطلع فصل عن «أركيولوجيا  
العلوم الإنسانية» ، هو أنها كانت بصدد الكشف عما أثبتته فوكوه من أن

(9) Annie GUEDEZ : Op. Cit., PP. 35—36.

والترجمة للدكتور زكريا أبراهيم : مشكلة البنية ، ص ١٣٦ .

(10) NIETZSCHE, "Introduction théorétique sur la vérité et le mensonge dans un sens extranormal". In Le livre du philosophe, AUBIER-FLAMMARION.

Voir : Annie GUEDEZ, Op. cit., P. 35.

«العلوم الإنسانية» علوم هامشية تستند إلى الوهم وتتأرجح بين الأمبيريقية والصورية ولا يغيب عنها التفلسف ولا تخلو من مخاطر ، في حين أنها (أي الباحثة) تتخصص في أحد هذه العلوم وتقوم على تدريسه بالجامعة (١١) .

فالزعم بأننا «لو ألقينا نظرة استرجاعية سريعة على كتاب فوكوه المسمى «مولد العيادة» ، لوجدنا أنه ليس مجرد دراسة علمية لتاريخ الطب ، ولا مجرد نقد كائن للتجربة الطبية . بل هو شيء أكثر من تلك الدراسة الأركيولوجية للمعرفة الطبية ... لأن المؤلف قد شاء لنا أن نصطحبه إلى أعماق الهاوية ...» (١٢) ، نقول أن هذا الزعم قد انبثق عن «نظرة سريعة» حقاً ، لأنه يسقط من حسابه تماماً معظم الأهداف التي أوردتها فوكوه نفسه في مقدمة هذا الكتاب وفي خاتمته ، والتي ذكرنا تفاصيلها في الفصل الخاص بنشأة الطب الحديث .

أما عن المؤلف، فتعانة بنصوص نيتشة ووضعها على نفس المستوى إلى جانب نصوص فوكوه . فإنه قد لا يجافى الحقيقة كثيراً إذا كان ذلك بالقدر الذي يرتضيه فوكوه نفسه والذي أوردناه في مواضع عديدة بهذا الكتاب. غير أنه من المؤكد أن فوكوه لم يخطر على باله إطلاقاً أن يستعين بالنص المتقدم ذكره عن «التبجح» الذي ارتكبه الحيوانات الذكية عندما اخترعت المعرفة .

إن فوكوه إنما يقوم بكشف متأن عن علاقة الإنسان بالعالم . فبين كيف أن الإنسان يرتبط بمبدأ اكتشاف الحقيقة، بل كيف يرتبط بالحقيقة ذاتها إلى الدرجة

---

(١١) «آفي جيديه» هي مدرسة علم الاجتماع في معهد التكنولوجيا بمدينة «تور» بفرنسا ، وربما كان الهدف الأساسي للكتاب الذي أصدرته عن فوكوه هو الدفاع عن العلوم الإنسانية التي هاجمها هذا الأخير على نحو ما سيرد في هذا الفصل .

(12) Annie GUEDEZ; Op. cit., P. 35.

والدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٣٥ .

التي يفقد فيها ذاتيته. ومن هنا يتضح لنا أن فوكوه لا يتنكر للإنسان، بل إنه «ينكر فقط حق الذات في السيادة المطلقة» (١٣). وهو يقول في حديث لإحدى المحلات الأدبية «إن بحثنا يريد أن يربط الإنسان بعلمه، وكشفه، وعالمه» (١٤).

ويترتب على ما تقدم أن أركيولوجيا المعرفة ليست ضد الإنسان، بل هي ضد النزعة الإنسانية التي تلغي الفكر وتبقى على السطح وتسلم لسبات عميق بعيداً عن إنجازات العلم.

أركيولوجيا المعرفة والنزعات الإنسانية :

إن «أركيولوجيا المعرفة»، شأنها شأن جميع الاتجاهات البنائية، لا تتحدث عن الإنسان ابتداءً من «الكوجيتو»، بل ابتداءً من واقع علمي لا يتناقض مع مسلماته.

يقول شيوخ البنائيين ليفي ستروس :

«في قرننا هذا، حيث شرع الناس في تدمير العديد من صور الحياة، فإن النزعة الإنسانية الجديدة بهذا الاسم لا تبدأ بالأنا، بل إنها تضع العالم لمجمل الحياة، والحياة قبل الإنسان، واحترام الكائنات الأخرى قبل محبة الذات» (١٥).

ونلاحظ أن هذه النزعة الجديدة تقف بلاشك في مواجهة النزعات الفردية التي دعمتها الفلسفة الوجودية والتي تكشف عما درج عليه الأوروبيون في

(١٣) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة»، ص ٢٧٢.

(١٤) زكريا إبراهيم : «مشكلة البنية»، ص ١٦٨.

(15) LEVI-STRAUSS : "L'Origine des manières de table", (Plon, 1968), P. 422.

حياتهم من أفانية وتفرد . وقد أكتشف ليفي ستروس أن ما انتهى اليه الوجوديون من أن «الجحيم هم الآخر» l'Enfer c'est les autres ، ليس قضية فلسفية ، بل هو شهادة اثولوجرافية عن حضارة منشقة على نظام العالم (١٦). وباختصار ، فإن النزعة الإنسانية التي تضمنتها الأنثروبولوجيا البنائية عند ليفي ستروس ليس فيها مكان للأثنا .

وإذا انتقلنا إلى «أركيولوجيا المعرفة» ، فإننا نجد عبارة عند فوكوه يؤكد فيها تضامنه مع المفاهيم البنائية ويقول :

«حقاً لقد رفضت أن يرد المقال إلى الذاتية ... وقد كان هدفي أن أظهر تعدد المستويات الممكنة للتحليل وسط كثافة الأداء اللغوي : فقد أردت أن أبين أنه إلى جانب انجازات علم اللغة البنائي ، وبالإضافة إلى المناهج التي تقوم على التأويل interprétation ، أمكن إجراء وصف للمنطوقات وبيان لتكوينها وأيضاً وصف الإطراد الخاص بالمقال » .

ويستطرد قائلاً :

«وإذا كنت قد أرجأت الحديث عن الذات ، فإن ذلك لم يكن بهدف الكشف عن أنماط formes تنصاع لها جميع الدوات في عصر معين ، بل لقد بينت على العكس تماماً كيف يمكن للبشر أن تتعارض آراؤهم داخل نفس الحقبة المنطوقية ، كما بينت

(١٦) راجع كتاب «البنوية والأنثروبولوجيا» ، المؤلف ، نشر دار المعارف .

أن الممارسات المقابلة تتميز عن بعضها بعضاً، وبإختصار، لم يكن  
لهذه أن أستبعد إشكال الذات le problème du Sujet  
بقدر ما كنت أهدف إلى تعريف الأوضاع والوظائف  
التي يمكن أن تحتلها الذات في خضم أشكال المقال .

ثم يقول

«وأخيراً فإنني لم أرفض التاريخ بل رفضت المقولة العامة والفارغة  
للتغير كي أفسح المجال لمستويات مختلفة للتحول» .  
ويختتم حديثه في نفس الموضع قائلاً :

«ومن هنا ترون أنني لم أعبأ بالحدود المشروعة التي لا تلتزم  
بها البنائية» (١٧) .

وواضح من أقوال ميشيل فوكو أنه قد استغل لبحثه مكاناً داخل المجال الذي  
تظهر فيه وتشابهك مشكلات الكائن الإنساني والشعور والذات بل ومشكلة  
البناء أيضاً . غير أن القرار الأول الذي استغل فوكو في المجال النظري كان  
قراراً بإنهاء الموضوع الأنثروبولوجي les sujétions anthropologiques، أي  
«الموضوع لذلك الطفل المدلل الذي شغل المسرح الفلسفي مدة طويلة ووقف  
حجر عثرة في وجه كل عمل جدي لأنه يتطلب إنتباهاً زائلاً» .

وشتان ما بين هذا القرار وبين محاولات الوجوديين التي «يتضح منها  
إعجاب المرء بذاته ... وفيها يعزل الإنسان المعاصر نفسه ، ويستشعر نشوة

---

(١٧) فوكو : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

تلقائية ، ويتعدى عن المعرفة العلمية التي يحتقرها وعن الإنسانية الحقة التي  
يجعل عمقها التاريخي ... لكي يظل داخل عالمه الصغير المغلق (١٨) .  
وإذا تعرضنا لأي موضوع فلسفي يتعلق بالإنسان ، وليكن مشكلة القلق  
مثلا ، لتبين لنا أن كيفية معالجة أسباب القلق عند سارتر وفوكوه ، هي  
أكبر دليل على بعد الشقة بين الطرفين .

فعند سارتر ، الإنسان هو مشروع يعيش لذاته ، وماهيته تتحدد بما  
شرعه هو لذاته . والدائية تعني الإختيار الحر . وهذا الإختيار يعني بدوره  
نسبة قيمة معينة لما وقع عليه الإختيار (فنحن نختار الحانث الطيب دائماً) .  
وجدير بالذكر أن مسئوليتنا في الإختيار هي أكبر مما نتصور ، وذلك  
لأنه إختيار للإنسانية جمعاء ، وهذا هو ما يفسر وجود القلق (١٩) .

أما أسباب القلق عند فوكوه ، فلإنها تنبثق عن ذلك المجال الملموس الذي  
يظهر فيه المقال وتتواجد فيه قوى كثيرة متصارعة . فالمقال هو الإبن الشرعي  
للمؤسسات الإجتماعية institutions sociales وأولها اللغة . وهذه الأخيرة  
قد ظهرت مع الحاجة إلى التعامل بين أفراد المجتمع .

وإذا نشأ المقال عن هذه الحاجة الملحة عن مؤسسة إجتماعية هي بمثابة  
القالب أو السياج institution qui encadre ، فإن هذه الثنائية  
هي التي تسبب القلق .

يقول فوكوه :

«إن مبعث القلق هو إحساس بأن النشاط اليومي إنما  
يحتج سمته ضغوطاً ومخاطر يصعب علينا تصورها

---

(18) LEVI-STRAUSS : "L'Homme nu" (Plon1971), P. 572.

(١٩) راجع كتاب «البنية و الأنثروبولوجيا» ، المؤلف ، نشر دار المعارف



ومبعث القلق أيضاً هو أن العديد من الكلمات يمتلىء  
بمعان تشير إلى النضال أو النصر أو الجراح أو السيطرة .  
أو العبودية رغم أن كثرة استخدامها منذ زمن يحيق  
قد قلل من فظاظتها» (٢٠).

ولما كانت المؤسسات الاجتماعية هي السياج الذي يحيط بالمقال : فمن الممكن  
أن نفهم إذن كيف أن وضعية المقال تحاط بسياسات Exclusions .  
«فنحن نعلم أنه ليس من حقنا أن نقول كل شيء ، كما أننا لا يمكننا أن نتحدث  
عن كل شيء مهما اختلفت الظروف ، وأخيراً فإن أى انسان لا يمكنه أن  
يتحدث عن أى شيء أيا كان» (٢١). ومن هنا كان القلق .

ويتضح مما تقدم أن «أركيولوجيا المعرفة» لا تقبل ما تدعيه النزعات  
الانسانية من حق الفرد في الإعجاب بذاته وبقدرته على المبادأة والاختيار  
المسبب للقلق . ومع ذلك فهي لا تقوم على إلغاء الفرد تماماً لأنها تتحدث عن  
«محاولات» tentatives يقوم بها الأفراد بدلاً من «مبادرات» initiatives .  
و«المحاولات» ليست عللاً ، بل معلولات لتغيرات تطرأ على نطاق الوضعيات

---

(20) M. FOUCAULT : "L'Ordre du discours", (Gallimard, 1971), P. 10.

ويحضرنا بهذا الصدد قول بارت Roland BARTHES في الكوليج دي فرانسي  
- وهو من أقطاب البنائيين المعاصرين - :

«ان اللغة هي أداة اغتراب . وهي ليست وسيلة اتصال بقدر ما هي وسيلة اخضاع» .  
Discourir n'est pas communiquer, ..., C'est assujettir.

راجع نص «الدرس الافتتاحي» لبارت بجريدة لموند الفرنسية الاسبوعية ، عدد رقم  
١٤٧٢ في ١٣ يناير ١٩٧٧ .

(21) Ibid., P. II.

الموجودة positivities والتي ترتبط ببعضها البعض في نوع من النظام غني بكثرة علاقاته المعقدة والتي يحاول الأركيولوجي أن يكشف عنها (٢٢).

الأركيولوجيا إذن ليست ضد الذات ، بل بفضلها «أمكن الربط بين تحليل أوضاع الذات وبين نظرية تاريخ العلوم» (٢٣) Lier une analyse des positions du sujet à une théorie de l' histoire des sciences.

### الإنسان والعلوم الإنسانية :

يرى فوكوه أن العلوم الإنسانية لم تتلق من العصر الكلاسيكي أى ميراث ، وذلك لسبب بسيط هو أن الإنسان لم يكن موجوداً في ذلك العصر أو على الأحرى لأن علوم «الحياة» و«اللغة» و«العمل» لم تكن قد عرفت بعد (٢٤) - فالإنسان لا يمكنه أن يفكر في ذاته إلا وهو مقود بفعل الحياة واللغة والعمل ، أى ابتداء مما لديه من معرفة مسبقة عن الكائن الحي le vivant والكلمات la production و les mots والانتاج

ولقد حدث الانتقال من العصر الكلاسيكي إلى العصر الحديث بعد أن فقد التمثل قدرته على تأسيس الروابط التي تربط بين عناصره المختلفة. وبعبارة أخرى ، فقد حدث القطع coupure بسبب عجز التمثل عن أداء وظيفته دون الرجوع إلى الشروط الخارجة عنه. وهذه الشروط هي العمل في علم الاقتصاد ، والتنظيم الداخلي للكائنات في البيولوجيا ، وآليات اللغة في الفيلولوجيا (٢٥). الملك الغائب :

يعترف ميشيل فوكوه بأن مفهوم «الطبيعة الإنسانية» ظل ثابتاً لقرون

---

(22) Angèle KREMER-MARIETTI : Op. cit., P. 158.

(٢٣) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٢٤) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٥٥ .

(25) F. WAHL : Op. : cit., P. 351.

عديدة . غير أن استخدام هذا المفهوم في العصر الكلاسيكي إنما يشير إلى غياب الإنسان « كواقع أول ملموس *réalité épaisse et première* » (مدرّوس) يصعب تناوله ، وكذلك هي شرط كل معرفة ممكنة (٢٦). ومن ثم ، فقد كان إنسان العصر الكلاسيكي جزءاً من الطبيعة ، وكان ينظر إليه من هذه الزاوية فقط .

وتورد الباحثة آني جيدي في تصديق ذلك ما جاء على لسان جروتويسن Groethuysen من أن مبدأ «اعرف نفسك بنفسك» ، ومبدأ «اعرف الطبيعة» كانا متطابقين في العصر الكلاسيكي . فالإنسان كائن طبيعي ، والمهم هو أن نكشف بداخله قوانين الطبيعة . وبهذا نطبق عليه كحالة جزئية ما نعرفه عن «الطبيعة» من قوانين عامة (٢٧).

لقد كان المدخل إلى «الإنسان» في مفهوم فوكوه تفسيراً مطناً ووصفاً دقيقاً للوحة فنية بعنوان «الوصيفات» *les «Ménines»* لرسمها الفنان الأسباني فيلاسكيه Vélazquez (١٥٩٩-١٦٦٠) (٢٨).

وقد ظهر على الجانب الأيسر من اللوحة رسام يمسك بريشته في اليد اليمنى . ويظهر كأنه قد توقف فجأة عن العمل باللوحة الموجودة أمامه والتي تستند إلى «حامل» . كما يظهر وكأنه يتجه بنظرته إلى الأمام ليواجه موقفاً جديداً ترتب على ظهور شخصية هامة ليس لها مكان داخل اللوحة بل

(٢٦) فوكوه : «الكليات والأشياء» ، ص ٣٢١ .

(27) B. Groethuysen, "Anthropologie philosophique", (Gallimard, 1953). Cité par : Annie GUEDEZ, op. cit., P. 50.

(٢٨) خصص فوكوه الفصل الأول من كتاب «الكليات والأشياء» لوصف هذه اللوحة ، والتعليق على ما تضمنته (من ص ١٩ إلى ص ٣١) ، كما اشتمل الكتاب أيضاً على صورة فوتوغرافية للوحة .

(ربما) خارجها في المكان الذي يمكن أن يحتله أى مشاهد أو متأمل . أما بقية المساحة باللوحه فقد ظهر عليها الوصيفات وهن يحطن بالأميرة بعد أن ألبسها أفخر الثياب ، ويتجهن بنظراتهن معها في نفس الاتجاه المؤدى إلى الناظر . ونلمح في العمق الأيمن للوحه انعكاس صغير على مرآة يكشف عن شخصية (الملك) ويبين أن الجميع كان بصدد استقباله . ويظهر الملك هنا على أنه العنصر المحرك لجميع عناصر اللوحه رغم عدم تواجده بداخلها .

وقد تركز تعليق فوكوه على شخصية (الملك) ، وذلك لما له من أهمية كبيرة رغم أنه غير ممثل باللوحه ، تماماً مثل إنسان العصر الكلاسيكى الذى كان يحكم عالماً مليئاً «بالتماثلات» دون أن يكون «ممثلاً» فيه .

لقد كان مجال المعرفة — في العصر الكلاسيكى — متجانساً ، وذلك ابتداء من تحليل التمثل وحتى فكرة الرياضيات العالمية Mathesis Universalis . فكل معرفة أيا كانت تبدأ بإقرار التغيرات كبداً للتصنيف ولإدخال عنصر النظام . وكان هذا يصدق على الرياضيات وأيضاً على علوم الطبيعة و«التكسينوميا» بمعناها العام ، كما يصدق على المعارف غير اليقينية مثل عمليات التبادل échange والتفكير الفلسفى ذاته . وهذا الأخير كان يعتمد على تسلسل الأفكار ويبدأ من البسيط منها ثم يتدرج نحو الأكثر تعقيداً . وواضح لنا أن هذا المجال المعرفى في مجموعه لم يكن يسمح بظهور الانسان (٢٩) .

### ثلاثى المعرفة : Le Trièdre des Savoirs

«والإنسان لم يظهر باعتباره «ذاتاً» و «موضوعاً» لكل معرفة ممكنة ،

(٢٩) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٥٧ .  
راجع أيضاً خصائص العصر الكلاسيكى ، بالفصل الثالث .

يُحجّر أن الممارسة العادية هي التي سمحت لمفكرى القرن التاسع عشر بأن يحدّوا مضمون هذا الوعي الإنعكاسي أو التأمل ، بل لأن ثمة تصدعاً في تنظيم المعرفة هو الذي جاء فيسر لم مهمة «تحقّل» الإنسان (٣٠) فما هو هذا التصدع ؟ ..

إنه يعني أن المجال المعرفي قد لا يتخذ مساراً جديداً ذا أبعاد ثلاثة بدلا من المسار القديم المتجانس ذي البعد الواحد . وسنرى أن المجال المعرفي الجديد رغم أبعاده الثلاثة التي تشمل علوماً إستنباطية وأمبريقية وفلسفية ليس فيه مكان للعلوم الإنسانية ١ .

يمكننا إذن أن نجد على البعد الأول علوماً مثل الرياضيات والفيزياء . وهي علوم مازالت تعترف «بالنظام» باعتباره تسلسلا إستنباطيا (لقضايا واضحة أو محققة évidentes ou vérifiées ) ، يسير في إتجاه واحد linéaire .

أما البعد الثاني ، فيشتمل على علوم مثل علم اللغة والحياة والإنتاج وتوزيع الثروة . ويبدأ هذا البعد بالكشف عن عناصر غير متصلة لأنها متجانسة . وهو يربط بينها بعلاقات عليه ثابتة .

والحق أن هذين البعدين ينشأ عنه «مجال مشترك» un plan commun هو مجال تطبيق الرياضيات على علوم اللغة والبيولوجيا والإقتصاد ، أى العلوم الأمبريقية بوجه عام .

والبعد الثالث هو الخاص بالتفكير الفلسفي ، وينشأ باعتباره حصيلة

---

(30) Annie GUEDEZ : Op. cit., P. 51.

والدكتور زكريا إبراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٥٣ .



« يتبين من هذا الرسم البياني أن العلوم الانسانية لا مكان لها داخل ثلاثي المعرفة هذا *Ce trièdre épistémologique* ، إذ أننا لا نجد لها في أى بعد من أبعادها الثلاثة ، كما أننا أيضاً لا نجد لها ممثلة على سطح أى من المجالات المشتركة. وهى إذ وجدت مع ذلك «فلاّنها تتسلل من خلال الفجوات أو الفتحات التى تتركها المعارف الأخرى المتكونة من ذى قبل » . وهذا يجعلها على صلة مع جميع صور المعرفة سابقة الذكر .

والعلوم الإنسانية تشرع الآن فى استخدام الفكر الصورى الرياضى كما تلجأ إلى نماذج وتصورات تستعيرها من البيولوجيا والاقتصاد وعلوم اللغة. وأخيراً ، فلإنها تخاطب نمط الإنسان الذى أنتجه التفكير الفلسفى على مستوى التناهى (٣٣). وهنا يظهر لنا أن العلوم الإنسانية تشكل خطراً دائماً بالنسبة لأشكال المعرفة المختلفة . فالعلوم الاستنباطية والتجريبية والفلسفية إذا لم تحافظ على أبعادها ومسارها فلإنها تنزلق إلى «مناهاة» العلوم الانسانية . وهى قلما تحافظ على هذه الأبعاد وذلك المسار بسبب صعوبة تكوين المجالات المتوسطة أو المشتركة . لذا ينبغى أن نواظب على فحص علاقات الفكر الصورى ، وأن نحلل جيداً كينونة الحياة والعمل واللغة .

يقول فوكوه : .

«إن الانزلاق إلى « الأنثروبولوجيا » هو أكبر خطر

يهدد المعرفة من داخلها » (٣٤)

*L'«anthropologisation» est le grand danger intérieur du savoir.*

ويقول :

لقد تحرر الإنسان من ذاته بعد أن اكتشف أنه لم يعد

(٣٣) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٥٨ .

(٣٤) نفس المرجع السابق ، ص ٣٥٩ .

مركز الخليفة Centre de la création ، أو وسط الكون  
أو على قمة الحياة . وإذا صح أن الإنسان لم يعد حاكماً  
لمملكة العالم ... فإن العلوم الانسانية هي وسائل خطيرة  
dangereux intermédiaires في مجال المعرفة (٣٥).

إن ما يفسر الصعوبات التي تواجهها العلوم الانسانية (عدم توفر اليقين  
فيها كعلوم ، واستنادها إلى مجالات أخرى للمعرفة ، ومالها من طبيعة ثانوية  
ومشتقة) ، « ليس تعقد موضوعها وكثافتها ، أو انصافها بطابع ميتافيزيقي ،  
أو استنادها إلى موجود زبقي لا يكف عن العلو على نفسه ، بل السبب هو  
تعقد التنظيم الاستمولوجي الذي توجد في اطاره من جهة وطبيعة العلاقة  
التي تربطها بالأبعاد الثلاثة المكونة لصميم مجالها من جهة أخرى » (٣٦).

### ظهور العلوم الإنسانية :

يرى فوكوه أن العلوم الإنسانية لم تظهر تحت ضغط مذهب عقلاني ،  
أو تحت تأثير مشكلة علمية لم تحل ، أو لمصلحة عملية ، بل إنها ظهرت بعد  
أن فرض الإنسان نفسه على الثقافة الغربية باعتباره موضوعاً ينبغي أن يستحوذ  
على التفكير والمعرفة .

ولاشك في أن كل علم من العلوم الإنسانية قد ظهر للتصدي لمشكلة معينة ،  
أو لضرورة ملحة أو لمعضلة نظرية أو عملية . فمثلاً ظهر علم النفس في القرن  
التاسع عشر بعد ظهور المجتمع الصناعي وما تبع ذلك من الحاجة لعمل معايير  
ومقاييس جديدة للأفراد وفقاً لمتطلبات العمل في المجتمع الجديد . كما ظهر

(٣٥) نفس الموضع .

(٣٦) نفس الموضع ، وترجمة النص للدكتور زكريا ابراهيم ، «مشكلة البنية» ، ص ١٥٥ .



التفكير في علم الاجتماع في أعقاب الثورة الفرنسية بسبب الإحساس بخطور  
التغيرات الجديدة على التوازن الاجتماعي . غير أن فوكوه لا يبحث في تلك  
التغيرات «السطحية» التي صاحبت ظهور هذه العلوم، بل هو على الأحرى،  
يبحث في واقعة محددة *un fait précis*، وهي «أنه للمرة الأولى منذ أن ظهرت  
الكائنات البشرية التي تعيش في مجتمعات، أصبح الإنسان موضوعاً للعلم» (٣٧).  
ويرى فوكوه أن هذه «الواقعة» ليست مجرد ظاهرة، بل هي حدث في نمط المعرفة  
*C' est un événement dans l'ordre du savoir* (٣٨). وهذا الحدث كان على  
علاقة «بالاستميه». «فا لكائنات الإنسانية قد تركت مجال التمثل وسكنت في أعماق  
الحياة ونمط الإنتاج والثراء وصيرورة اللغات» (٣٩). ولهذا كان من الضروري في هذه  
الظروف أن تظهر المعرفة العلية للإنسان ظهوراً طفيلياً على نفس الأرض  
التي أنبتت البيولوجيا والاقتصاد والفيلولوجيا .

ولقد ترتب على هذا الحدث أن أصبح الإنسان هو الكائن الذي تتكون  
ابتداءً منه كل معرفة . كما أصبح هو الذي يسمح بالنظر في كل معرفة  
تتعلق بالإنسان، أي أننا وجدنا أنفسنا فجأة أمام موضوع مدروس *objet* هو في نفس  
الوقت موضوع دارس أو «ذات» *Sujet* . كما وجدنا أنفسنا نصطدم لأول  
مرة بألفاظ مثل «المشاهد المنظور» *Spectateur regardé* و«الملك الخاضع»  
*Souverain soumis* (٤٠) . ومن هنا كانت هذه الخصومة المتبادلة *conrestation*  
والتي تكمن خلف الحوار المستمر بين العلوم الإنسانية وبين بقية العلوم . فالأولى

(٣٧) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٥٦ .

(٣٨) نفس الموضوع .

(٣٩) نفس الموضوع .

(٤٠) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٢٣ .

تزعم أنها تؤسس الثانية ، وهذه الأخيرة تحاول دائماً أن تبحث عن أصولها وأن تبرر مناهجها بعيداً عن نظريات علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ . وقد كان من مظاهر هذه الخوصومة أيضاً ذلك التنافس بين الفلسفة والعلوم الانسانية . فالفلسفة تشكك في الأسس الساذجة التي قامت عليها العلوم الإنسانية ، وهذه العلوم تطالب بالبحث في موضوعات كانت قديماً تدخل ضمن مباحث الفلسفة (٤١) ..

### طبيعة العلوم الإنسانية :

إن العلوم الانسانية لم تكن لتهم بالانسان الا بقدر ما هو كائن عاشر ، يتحدث لغة ، ويقوم بنشاط إنتاجي . لذا فقد قامت هذه العلوم على هامش علوم الحياة واللغة والاقتصاد (أو العمل) . ولكن ، أليست هذه الأخيرة علوماً إنسانية ؟ .

يجيب فوكوه عن هذا التساؤل بالنفي (٤١) . فالبيولوجيا تهتم بكائنات حية كثيرة غير الانسان . كما أن عملها يتحدد بدراسة الوظائف البيولوجية . في حين أن موضوع العلوم الإنسانية لا يتحدد الا حين تنطلق التمثلات الصادقة أو الكاذبة ، الواضح منها والغامض ، والتي يمكن ملاحظتها بطريقتين مباشرة أو غير مباشرة . وعلى هذا ، فإن البحث في تشريح مراكز اللغة بالمخ لا يدخل في نطاق العلوم الانسانية . كما أن البحث في العلاقة بين المراكز المختلفة للتكامل اللغوي داخل المخ (وهي المراكز السمعية والبصرية والحركية) لا يدخل كذلك ضمن نطاق العلوم الانسانية .

---

(٤١) فوكوه ، نفس المرجع ، ص ٣٥٧ .

(٤٢) فوكوه ، نفس المرجع ، ص ٣٦٣ .

يقول فوكوه :

«إن الانسان ، بالنسبة للعلوم الانسانية ، ليس ذلك الحى الذى يتميز بمظهر معين وتركيب فسيولوجى خاص ، وتفرد فى المبادأة والاستقلال ، إنه ذلك الحى الذى يكون من خلال حياته التى تكتنفه تمثلات يعيش بفضلها ، كما أنه يمتلك بفضلها أيضا تلك القدرة العجيبة التى تمثل الحياة بكفاءة » (٤٣) .

وعلى الرغم من أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يتكلم ، إلا أن دراسة التحولات الصوتية les mutations phonétiques والقراءة بين اللغات la parenté des langues لا تدخل بأى حال فى نطاق العلوم الانسانية . فهذه العلوم يمكنها أن تتساءل فقط عن طريقة تمثل الكلمات لدى الأفراد أو الجماعات باعتبارها الوسيلة الوحيدة للتعبير عما يجول بخواطرم .

إن موضوع العلوم الإنسانية إذن ليس اللغة ، بل هذا الكائن الذى يتمثل فى أحاديثه معانى الكلمات أو القضايا التى يصيغها ثم ينتهى به المطاف بأن يتمثل اللغة ذاتها (٤٤) .

أما فيما يختص بعلم الاقتصاد ، فإنه ليس علماً إنسانياً رغم أن الانسان هو الكائن الوحيد الذى اشتهر بتبادل منتجاته . ولذا فإن موضوع العلوم الإنسانية ليس ذلك الإنسان الذى عرف العمل منذ فجر البشرية ، بل هو ذلك الكائن

(٤٣) نفس الموضوع .

(٤٤) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٦٤ .

الذى يتمثل حاجاته وحاجات مجتمعه ابتداء من صور الإنتاج التى تعدد نمط وجوده ، ثم ينتهى به المطاف بأنه يتمثل الاقتصاد ذاته (٤٥) .

ويتضح مما تقدم أن «العلوم الإنسانية ليست تحليلاً لطبيعة الإنسان بل هى تحليل يمتد بين الماهية الوضعية للإنسان (كائن حى يتصرف بالعمل والقدرة على الكلام) ، وبين ما يسمح له بمعرفة معنى الحياة وماهية العمل وقوانينه والطريقة التى يتحدث بها» . كما يتضح أن «العلوم الإنسانية تحتل تلك المسافة التى تفصل البيولوجيا والاقتصاد والفيلولوجيا عن شرط إمكانها فى كينونة الإنسان ذاته» (٤٦) .

ولهذا كله يرى فوكوه أنه لمن الخطأ أن نجعل العلوم الإنسانية امتداداً للآليات البيولوجية أو أن ندخل علوم الاقتصاد واللغة ضمن نطاق العلوم الإنسانية خصوصاً وأن الاتجاهات المعاصرة إنما تحاول أن تنشئ علوم لغة واقتصاد مستقلة تماماً وخالصة pures (٤٧) .

وإذا أردنا أن نلخص فى كلمات قليلة ما سبق أن ذكرنا عن طبيعة العلوم الإنسانية ، فأننا نقول أنها ليست علوماً بمعنى الكلمة لأنها تتخذ لنفسها موضوعاً هو نفسه شرط لوجودها . كما أنها فى وضع متضاعف (أو متكرر) dans une position de redoublement : فهى لا تدرس الحياة أو العمل أو اللغة حيث تكون فى قمة وضوحها وشفافيتها ، بل تدرسها فى هذه الطبقة من السلوك cette couche des comportements

(٤٥) نفس الموضع .

(٤٦) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٦٥ .

(٤٧) نفس الموضع .

والانجاهات attitudes والحركات gestes التي سبق أن كتبت  
أو نطقت . أى أنها في وضع يسميه فوكوه «وراء  
المعرفة» «une position «méta - épistémologique» ، أى الوضع  
الذى يؤكد تناهى الانسان sa finitude ويزج به في النسبية relativité .  
ويتردد فوكوه في استخدام المقطع اليوناني «méta» ، ويفضل استبداله  
بمقاطع أخرى مثل «ana» أو «hypo» كى يعبر عما تتصف به العلوم  
الانسانية فعلا من عدم دقة inexactitude وعدم تحديد imprécision (٤٨) .  
موت الإنسان :

«يبد أن فوكوه لا يقف عند هذا الحد ، وانما هو يقرر أيضا أن تلك  
المعرفة الجديدة التي ظهرت بظهور «الانسان» - في القرن التاسع عشر -  
إنما هى بعينها التي سوف تجهز عليه ! وآية ذلك أن «الفرد» الذى كان من  
قبل موزعا بين «علم الفيزياء» و «علم الأحياء» ، لن يلبث أن يفقد ذلك القدر  
الضئيل من «الهوية» الذى بقى له ، بسبب توزعه بين فروع مختلفة من المعرفة :  
ألا وهى علم النفس ، وعلم الاجتماع ، والانتولوجيا ، والتحليل النفسى ،  
وهى تلك المعارف التي تتقاسم فيما بينها رفاقه ، زاعما كل منها لنفسه أن  
الجنة التي بين يديه هى الحقيقة بعينها ! » (٤٩) .

وهنا تقوم الباحثة آنى جيديه بعمل مقارنة بين فوكوه ونيتشه فنقول :

«قد يكون هناك موضع للحديث عن تشابه بين كل من  
نيتشه وفوكوه : لأن الأول منها قد نادى بـ «موت الاله» ،

---

(٤٨) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٦٦ .

(49) Annie GUEDEZ : Op. Cit., P. 58.

والدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٥٨ .

بينما نجد أن الثاني منها قد أصبح ينادى اليوم بـ «موت  
الإنسان» ! ولكن على حين أن نيتشه كان هو «القاتل»  
الحقيقي للألوهية، فقد لا يكون في وسعنا أن نقول عن  
فوكوه أنه هو «القاتل» الحقيقي للإنسان ! وآية ذلك أن  
«الفرد العيني» الذي أسهمت علوم الاقتصاد،  
والأحياء، واللغة، في تنصيبه، حيناً ما من الزمن، عند  
آفاق معرفتنا، قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من  
الموت، إذ دب فيه الانحلال بمجرد ظهوره، تحت تأثير  
تلك الضربات المتلاحقة من «التجريد» ! (٥٠) :

والحقيقة أن فوكوه لم يكن أول من تحدث عن «موت الإنسان». إذ  
يرى بيير بيرجلان Pierre BURGELIN أن هذا الإصطلاح قد ظهر  
عند جان جاك روسو في «مقال له عن عدم المساواة» Discours sur  
l'inegalité عندما كان يناقش القضية الديكارتية الشهيرة «أفكر فأنا  
موجود». ورأى روسو أن «معرفة الإنسان هي أكثر المعارف البشرية نفعا  
وأقلها تقدما» لأننا نتعلم النظر للإنسان بالقدر الذي يرتضيه هو أي عن طريق  
الثقافة. والمعرفة هنا لا تشير إلى وجود existence بل هي تشير  
بالأحرى إلى ظهور apparition. ويمكننا أن نجد اصطلاح «موت  
الإنسان» أيضا عند مين دي بيران De Biran، كما يمكننا أن نجده  
كذلك عند كيرك جارد (وهو يدحض عقلانية هيغل. وفي كل مرة كان  
الاصطلاح يعبر عن قلق حيال اضطراب نمو الثقافة. هذا بالإضافة إلى أن

---

(50) Annie GUEDEZ : op. Cit., P. 59:

والدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٥٩ .

علوم اللغة والاتنوجرافيا تعلمنا أننا خاضعون لقوانين لا نعلم عنها شيئا ، وكذلك علوم التحليل النفسى التى تكشف عن جهلنا بذواتنا . وفى النهاية يجد الانسان نفسه منقادا - بواسطة قوة غفل anonyme - إلى مصير محتوم : نحو حضارة علمية وتقنية تضع شروطا للوجود ، كما تصنع البشر الذين عليهم أن يتأقلموا مع هذا الوجود (٥١) .

وقد اقترب فوكوه من هذا المعنى الأخير «لموت الانسان» وذلك فى أحاديث عن معنى السلطة Pouvoir . فهو يرى أنه فى زمن مضى من تاريخ البشر ، كان الملوك ينفردون بالسلطة ويقتلون المناوئين لهم . أما المجتمع المعاصر فإنه لا يقتل وإنما يحرص على الحياة . فتكثر مؤسساته وبالتالى يمارس سلطة غير مرئية يضطر الإنسان إلى الخضوع لها فى كل تحركاته حتى يكاد يفقد ذاته ويموت (٥٢) . ولقد كانت اللغة هى أقوى المؤسسات فى المجتمع المعاصر . يقول فوكوه :

«إذا كانت اللغة تلح الآن فى الظهور كوحدة تعذر علينا فهم كينونتها كلما لمعت لنا فى الأفق ، أليس فى هذا علامة على تقوض النظام بأكمله وعلى أن الانسان فى طريقه الى الفناء» ؟ (٥٣) .

---

(51) Pierre Burgelin : l'Archéologie du Savoir", in (Esprit, Mai 1967)

(52) Roger-Pol Droit : "Le Pouvoir et le Sexe", in (Le Monde Hebdo., No. 1477, du 17 Février 1977).

(٥٣) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٩٧ .

## تقييم وتعقيب

نناقش في هذا الجزء الأخير من البحث مكانة «الأركيولوجيا» بين الأعمال الفلسفية المعاصرة . وهي مهمة ليست يسيرة خصوصاً وأن المنهج الأركيولوجي لا يتمشى مع ما ألفناه في عاداتنا الاستمولوجية القديمة ، كما أنه يتضمن نفياً للفكر المتجاوز ، وإنكاراً لدور المؤلف ، وإحباطاً لكل محاولة تستهدف الارتداد إلى أصول أولى . ولهذا كله ، فإننا سنبدأ أولاً بفحص دقيق ينصب على تلك «الأركيولوجيا» من داخلها ويتناول ما اشتملته من أهداف وما حققته من نتائج .

لقد كانت «الأركيولوجيا» فلسفة علمية تقدم للعلم ما يستحقه من فلسنة أو تعطي الفلسفة التي لا تسخر من مقدرات العلوم . وهي في هذا تبعد تماماً عن تأثيرات الفلسفة المثالية بكل ما يترتب عليها في مجال المعرفة . ونحت تأثير علوم حديثة ، مثل التحليل النفسي وعلم السلالات ، بدأ العقل يخضع لغزو «اللامعقول» . وبدأ الإنسان — هذا الكائن العاقل الحر — في الاختفاء تدريجياً . فجاك لا كان (المحلل النفسي الشهير) يكتب عن «الهو» «le «cela» الذي يتحدث من خلالنا . وليني ستروس يدرس ظهور الفكر الأسطوري داخل النفس الإنسانية وفي غفلة منها ، وهو يثبت ذلك بأدلة علمية تؤيدها الوقائع الأمبريقية . ولم يشذ المقال الفلسفي (عند فوكوه) عن هذا الاتجاه ، إذ أنه استهدف البحث عن عناصر البناء الثقافي السائد في الحقب المنطوقية المختلفة واقتصرته مهمته فقط على وصف المقول ce qui est dit دون إقحام الذات .

كيف يمكن إذن أن يؤخذ على فوكوه أن «تعاقب» الاستيمات عنده مجرد ظاهرة «لا معقولة» ، يستحيل معها استنباط الاستيمات بعضها من البعض الآخر ، لا بطريقة صورية ولا حتى بطريقة جدلية ؟ وكيف يمكن



القول بأن «العقل عند فوكوه يتغير دون أى سبب أو مسوغ عقلى ، وأن بنياته تظهر وتختفى بفعل تحولات اتفاقية (أو عرضية) بحثية ؟ أو القول بأن «التحليل الأركيولوجى يبدو عاجزا عن تصور القطع وتفسيره» . (١) ويظهر لنا من هذه الاعتراضات أنها تطالب «بالتفسير» و «الاستنباط» ، وهى عمليات لم يتضمنها منهج فوكوه لأنه يقتصر فقط على وصف القول ويرفض تماما ادخال الذات المفسرة شأنه فى ذلك شأن جميع البنائين . صحيح أن البناءات الأنثروبولوجية واللغوية يمكن أن يستنبط بعضها من البعض الآخر لأنها تتصف بالبداية والثبات ، بيد أن هذه الصفات لا تنسب إلى «الابستيمات» لأن هذه الأخيرة تتكون من أحداث ملموسة كما أنها دياكرونية diachronique أى لا تستبعد حركة التاريخ .

أما عن تصور «القطع» وتفسيره ، فإن الأركيولوجى يقتصر عمله على رصد العناصر المتغيرة التى كونت الابستمية . فالإبستمية الحديث مثلا قد صاحبه تحرر الإنسان من الامتثالات التى خلقها فحجبت عنه العالم والأشياء ، كما صاحبه تحرر الانسان من الكوجيتو وما يفرضه من أحلام وأوهام ، ثم حدث التقدم الهائل للمعرفة العلمية بعد أن أصبحت العين هى مبدأ الوضوح وبعد أن استجالت قراءة الواقع إلا بأعين مفتوحة . ونحن نتفق مع جيل ديلوز DELEUZE فى قوله :

«ينبغى أن يذكر المتباكون على التاريخ (يقصد الاتصال

التاريخى) والذين يحتجون لعدم تحديد مفهوم «التحول»

(1) Annie GUEDEZ : Op. cit., P. 68.

والدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٦١ .

Mutation ، حيرة المؤرخ الحقيقي عندما يكون  
بصدد تفسير ظهور النظام الرأسمالي مثلا في مكان  
وزمان ما رغم أن كثيرا من العوامل تجعله ممكنا في  
أزمنة وأمكنة أخرى» (٢) .

ومن هذه العبارة يتضح أن علامات استفهام كثيرة تنتصب أمام الكثير  
من عمليات التحول دون أن يتمكن المؤرخ من تجنبها إلا بتمن استسلامه  
لاجتهادات ذاتية تبعد عن العلم . كما يتضح بالتالى ضحالة الاعتراضات  
السابقة التى وجهت لفوكوه .

وهناك من يقول أن البنائية الثقافية عند فوكوه هى «بنائية بدون  
بناءات» (٣) . ونحن نعرف أن هذه البناءات الثقافية هى «الإبستيمات»  
les épistémés ، وهى كما ذكرنا آنفا لا تتصف بما تتصف به البناءات  
الأنثروبولوجية أو اللغوية من بداهة أو ثبات . يقول فوكوه : «إن الإبستميه  
ليس صورة معرفية تتصف بالثبات . تظهر مرة واحدة ثم تنقش فجأة .  
إنها — على الأحرى — كل ديناميكي يتكون من علاقات ... يمكنها أن  
تسمح بفهم عوامل الضغط contraintes والتحديد des limitations التى  
تفرض على المقال فى فترة زمنية معينة» (٤) .

وبالقياس إلى البناء الأنثروبولوجي الذى هو مبدأ الظاهرة والمبدأ

(2) Gilles DELEUZE : "Un Nouvel Archiviste" Op. cit.,  
P. 209.

(3) Jean PIAGET : "Le Structuralisme", op. cit., P. 108.  
والدكتور ذكرى إبراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٦١ .

(٤) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٥٠ .

المفسر لها في نفس الوقت (كما بينا في المقدمة) ، قد يظن - خطأ - أن «الابستيمات» لها وظيفة سلبية فقط . وهنا يؤكد فوكوه أن «المجال الابستمولوجي» أو الابستميه هو الذي يبرر وجود أشكال المعرفة المختلفة والعلوم السائدة في حقبة منطوقية معينة (٥) . كيف يمكن الزعم إذن «بأن المجال الابستمولوجي» أو الابستميه هو «بنية لا تحيل إلا إلى ذاتها دون أدنى إشارة إلى «الواقع» الذي يقابلها»! (٦) .

ولإذا كان الابستميه هو شرط وجود المعرفة والعلوم السائدة، فهل يمكن التقريب بين فوكوه وكنط بحيث نعتبر المجال الابستمولوجي «مجموعاً من المقولات الموضوعية القبلية» ؟ وهو ما زعمه البعض (٧). وقد تصدى لهم فوكوه بقوله :

«إن تحليل الابستميه ليس محاولة لحياء الفلسفة النقدية التي تتساءل عن مشروعية علم موجود بالفعل ،  
أى عن حقه في الوجود كعلم ، بل إن هذا التحليل إنما يذهب إلى أبعد من ذلك فيسأل عن واقعة وجود العلم ذاتها ... إن ما يجعل هذا التحليل مخالفاً لجميع فلسفات المعرفة هو أنه لا يرد وجود العلم إلى هبة أزيلية  
une donation originaire تؤسس العلم ومشروعيته

(٥) فوكوه ، نفس المرجع ، ص ٢٥١ .

(٦) الدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٤٦ .

(7) Annie GUEDEZ : Op. cit., P. 84.

والدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٣٣ .

داخل ذات متسامية . بل إنه يرد هذا الوجود إلى عمليات الممارسة التاريخية» (٨) .

ونلاحظ من هذا النص أن فوكوه لا يستبعد التاريخ تماما ، وهو في ذلك يفترق عن سائر البنائين . (فقد كان ليفي ستروس يرى أن الزمان «سلسلة تعبر العصور ، يتكون البشر من حلقاتها ، وتتصف بالثبات أى لا تعرف التقدم» ) .

وأخيرا فقد زعم أحد النقاد أنه لما كان «الإبستميه» مفهوما غامضا وغير محدد ، فإن فوكوه يتخلى عنه في كتابه المنهجى المسمى «أركيولوجيا المعرفة» (٩). ونحن إذا تصفحنا الكتاب المذكور ، فإننا لا نجد فيه عبارة واحدة تشير إلى هذا التخلي : بل نجد على العكس عبارات تقارن بين تحليل الإبستميه وبين الفلسفة النقدية مثل العبارة المذكورة آنفا .

إن مفهوم «الإبستميه» يظل إذن من الدعامات الأساسية في فلسفة فوكوه لأنه هو البناء الثقافى الذى يبرر استمرار فوكوه في دائرة البنائين . أما التساؤل المشروع الذى يتبادر إلى الذهن فهو : لماذا يصبر فوكوه على استخدام كلمة «إبستميه» بدلا من كلمة «بناء» ؟

ونرى أن الاجابة عن هذا السؤال ذات شقين الأول هو ملاحظه فوكوه نفسه من أن كلمة بنائية وبناء « يتشدد بها الآن كثير ممن لا يعملون ... فهبطت إلى مستوى السوق ورجل الشارع » (١٠) . إذ يستخدمها رجل

( ٨ ) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٥١ .

( ٩ ) الدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٦٢ .

(١٠) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٦١ .

الأعمال والنقابي وعالم الاقتصاد والمربي والنحوى والناقد الأدبي والمخرج السينمائي ورجل الإعلام والقصاص ومصمم الأزياء . والثاني هو أن فوكوه لا يتفق مع أقطاب الإتجاه البنائي في تعريف «البناء» كما سبق أن قدمنا لأنه يرفض ما درج عليه هؤلاء من التمسك بالتقابل Opposition بين البناء والصيرورة . يقول فوكوه :

«إن التقابل بين البناء والصيرورة لا يخدم تعريف المجال التاريخي ، كما أنه كذلك لا يخدم تعريف المنهج البنائي » (١١) .

وهذا يعني أن فوكوه في منهجه الأركيولوجي إنما يأخذ مركزاً وسطاً بين ليونة وديناميكية التاريخ من جهة وبين جمود البناء وتحجرة من جهة أخرى . ولهذا يخطيء من يظن «أن في نظرة فوكوه إلى المجال الاستمولوجي نزعة مكانية ، جامدة ، متحجرة ، تفصل بين المجالات المختلفة بإقامة حدود حاسمة مطلقة بينها ، وكأن البنيات تعمل بطريقة آلية جامدة» (١٢) . كما يخطيء من يظن كذلك أن فيلسوفنا «كان متحيزاً بشكل تعسفي واضح للبنية على حساب المتغيرات» (١٣) . وربما كان مبعث هذا الظن هو الخلط بين مفهوم «البناء» و«الاستميه» . فالبناء هو مجموع منظم un ensemble organisé ومنتظم régulier ، ومنسق systématisé ، ويتكون من ظواهر مترابطة تعتمد على بعضها بعضاً ،

(١١) نفس المرجع ، ص ٢٠ .

(١٢) زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٣٩ .

(١٣) نفس المرجع ، ص ١٤٠ .

وتتعدد علاقاته بالثبات permanence. وهو لذلك يقف في مواجهة الزمان والتاريخ. أما الاستميه فهو حشد assemblage وتركيب architecture. وواقع يحمله الزمان ، ويقتصر عمل أركيولوجيا المعرفة على وصف تكوين وتفتح هذه الاستيمات ، دون أن تتدخل لشل حركتها .

ويرى جيل ديلوز Deleuze أن عدم قبول « الأركيولوجيا » للبناء إنما يعنى تعمد هدم « الذات ». فالأركيولوجيا إذا سمحت بوجود بناءات ثقافية تصدر عن الوظيفة الرمزية كما هو الحال بالنسبة للبناءات الأنثروبولوجية واللغوية (١٤) ، قد يظن عندئذ بأن الذات مازالت تحتفظ بنشاط تركيبي constituante ، وتجميعي وموحد unifiante ولما كانت مبادئ المنهج عند فوكوه تستهدف استبعاد الذات ونبد الأفكار المتصلة بالأصل origine والشعور conscience ، لذا فإنه يعرض لعناصر الثقافة المتعددة على مستوى الكثرة التاريخية des multiplicités historiques وليس على مستوى البناءات (١٥).

ونحن لانتفق مع وجهة النظر هذه لسببين .  
 الأول : أن التسليم بوجود بناءات تصدر عن الوظيفة الرمزية لا يستتبع بالضرورة الاعتراف بنشاط للذات. فالبنائية الأنثروبولوجية واللغوية تصرح بصدور البناءات عن الوظيفة الرمزية كما تصرح بالتقاء بناءات الفكر مع بناءات الواقع ، وهى مع ذلك « لا تتحمل الذات » .  
 الثانى : أن الاستيمات عند فوكوه قد تكونت لديه لا عن طريق التأمل ولكن نتيجة لوصف تجمعات المنطوقات .

(١٤) راجع : مقدمة الكتاب ، صفحة ٣ .

(15) G. DELEUZE : „ Un Novel Archéologue ” , in (Critique No. 274. 1970).

Angèle KREMER-MARIETTI : Op., cit., ذكره

ومهما يكن من شيء ، فإن فوكوه يتفق مع سائر البنائين في رفض  
الشعور الزائف وأقول البشر أو موت الانسان .

وقد كان «موت الانسان» من الموضوعات الهامة التي أثارت تعليقات  
النقاد . ومعلوم أن الإشارة هنا ليست إلى الإنسان بلحمه ودمه ، بل إنها  
موجهة إلى صورة متحجرة لإنسان مختصر لأنه لا يقوى على التصدي لنظمه  
ومؤسساته ونتائج علمه. وكأن الانسان قد خلق من ذات نفسه لنفسه حجرة  
تعذيب لم يتحرر منها بعد، أو كأن الإنسان يشقى بمرض يقال له الانسان (١٦).  
ولم يكن هناك ما يبرر ثورة النقد هذه ، فالبنائية تسير نظرة العلم . أما  
الارادة التي تتصدى لها، فإنها هي نفسها الارادة التي تقاوم نتائج التحليل  
النفسي وعلم اللغة والاثنولوجيا .

يقول ليفي ستروس :

«إن بعض الفلاسفة يتقنون البنائية ويأخذون عليها  
أنها ألغت الفرد الإنساني وقيمة المقدسة . وإلى  
لأندهش تماماً كاندهاشي لوعلمت أن ثورة قامت  
بسبب نظرية «تيارات الحمل» (وهي النظرية المفسرة  
لحركة الغازات والسوائل)، خصوصاً لو أن هذه الثورة  
تذرعت بأن تمهدا! واءالدافء ثم حركته إلى أعلى قديهدد  
حياة العائلة ومعنويات المنزل ، وأن تبدد الدفء  
يفقد حياة العائلة صدهاها الرمزي والمعنوى » (١٧)

(١٦) هنري توماس ودانالي توماس : «أعلام الفكر الأوروبي من سقراط الى سارتر» ، الجزء  
الثاني ، ترجمة هيثان نويه . ( دار الهلال - يناير ١٩٧٧ ) .

(17) LEVI-STRAUSS : "L'homme nu" (Plon, 1971), p. 570.





أو أنا لا أوجد حيث أفكر Je ne suis pas où je pense ،  
 ينبغي أن تكون (هذه التصريحات) حافراً لنا يساعدنا في أن نبحث عن  
 حقيقة أننا نعيش حياتنا الخاصة المتفردة Pour vivre plus authentiquement, plus  
 personnellement (٢١) . وكان هذه التصريحات هي على الأحرى  
 «صيحات إبستمولوجيه» أراد بها فوكوه أن يوقظ أصحاب العلوم الإنسانية من  
 سباتهم الإيقاني (أو الدوجماتيقي) .

وقد قال جان لوك نانسي Jean-Luc Nancy :  
 «إن ماكتبه فوكوه يمكن أن يتلخص فيما يلي : إن  
 الإنسان — كموضوع للمعرفة — يختصر s'évanouit .  
 وذلك لأن العلوم التي تدرسه إنما تشير إلى غيابه (يقصد  
 الإثنولوجيا وعلم اللغة والتحليل النفسي) . غير أن هذا  
 قد يدفعنا أكثر من ذي قبل نحو ذات تختص بها هذه  
 العلوم وتختفي وراء التحولات الظاهرة التي تطرأ على  
 «الابستميه» . إنها ذات من نوع خاص نكتشفها  
 الأسرار . وهي بكل تأكيد ليست عقلاً خالصاً مزوداً  
 بعقولات ، بل شيء آخر يختلف تماماً وربما كان  
 أكثر ثراء . إن انكوجيتو لم يمت إذن ، غير أنه أصبح  
 أقل تعلقاً بالذات . فالآن تتعدد اهتماماته ، وهكذا  
 يشفى من الملل والقلق» (٢٢) .

- 
- (21) J. M. DOMENACH : "Le Système et la personne", in  
 (Esprit, Mai 1967), P. 778.  
 (22) Ibid.

وقبل أن نناقش مكانة «الأركيولوجيا» بين الأعمال الفلسفية المعاصرة ، نود أن نذكر بأهم النتائج التي توصل إليها فوكوه سواء أكان ذلك في المنهج أو في التطبيق . ولنعلم مقدماً أن الفلسفة المعاصرة قلما فصلت بين المنهج والمذهب أو بين المنهج وتطبيقاته. فالمنهج — فيما يقول إدجار مورين Morin — «لا يماثل طريقة لطهي الوجبات *recette* ، كما أنه لا يماثل طريقاً ممهداً تجو به السيارات *autoroute* . إنه يولد مع البحث ، ويساعدنا على شق طريقنا فيه» (٢٣). ومع ذلك ، سنجمل ما يمكن أن نسميه نتائج منهجية فيما يلي :-

أولاً : كشف فوكوه عن مفهوم «المنطوق» ليشير به إلى أول جزئيات الحادث المقل . وبين أن المنطوق هو الجملة التي يمكن أولاً يمكن أن ينسب إليها معنى ، أو هو القضية التي يمكن أن تقبل أولاً تقبل قيمة الصدق. كما بين أن وصف المستوى المنطوق يكون بتحليل العلاقة بين المنطوقات . ونلاحظ أن وصف المنطوق هنا يقترب كثيراً من تعريف اللفظ في علم اللغة البنائي (٢٤).

ثانياً : اكتشف فوكوه أرضاً جديدة تلتقي فيها الصيغة الأدبية والتضحية العلمية والعبارات اليومية والهديان الدعائي ، فكلها تلتقي في تجمعات المنطوقات في حقبة منطوقية معينة . وهذا ما لم يتوصل إليه المناطقة أو التحليليون .

ثالثاً : لما كان وصف المنطوق يستلزم البحث عن علاقته بتجمع المنطوقات في حقبة معينة ، لذا فقد ظهرت مفاهيم منطقية جديدة للهوية والتقابل تخالف ما هو معروف في المنطق الصوري وتبشر بظهور منطق بنائي -جديد يأخذ في اعتباره عناصر الثقافة ودور «الإبستميه» (٢٥).

---

(23) Jean-Paul ENTHOVEN : "Les Trois visages d'Edgar Morin,"

Op. Cit. . (٢٤) راجع أيضا ص ٤-٥ .

(٢٥) راجع ص ص ٨٦ - ٩٦ .

وإبعاً : رأى فوكوه أنه إذا كان لابد من البحث عن أصول ومبادئ فلسفية للعلوم ، فإن هذه الأصول والمبادئ لا ينبغي أن ينظر إليها على أنها نهاية المطاف أو الخطوة التي يتوقف عندها البحث . ذلك أن أركيولوجيا المعرفة تتعمق فيما وراء الأفكار الفلسفية بهدف البحث عن أنساق جديدة لتبعض المنطوقات أو تجمعها . ومن ثم ، فإن أركيولوجيا المعرفة هي البحث فيما وراء العلم والفلسفة .

خامساً : كان فوكوه أول من فكر في صياغة التحول الاستمولوجي بما يشمله من قطع ، وما يترتب عليه من ظهور «ابستيات» جديدة ، وما يتضمنه من عدم استمرار discontinuité . وبين فوكوه أن ظهور البنائية كان فائحة حقبة معرفية جديدة أصبح فيها الرمز موضوعاً للعلم .

سادساً : كشف فوكوه عن العلاقة بين نسق المعرفة ونسق السلطة Pouvoir . فقد كانت دراساته تنفذ إلى ما وراء قشرة اللغة ، وتكشف الواقع التاريخي الاجتماعي بما يتضمنه من مظاهر السيطرة dominance الفعلية والإيديولوجية . وبين فوكوه أن المقال ليس له نمط واحد بل أنماط مختلفة ترتبط دائماً بالقوى الاجتماعية . ولذا فالمقال لا يتفصل عن نظام العمل أو الوجود بوجه عام .

سابعاً : لم يستبعد فوكوه إذن وجود علاقة بين «التكوينات المقالية» و«الممارسات غير المقالية» . وهذا ما دعا البعض إلى الكشف عن تقارب بينه وبين ماركس سنعود إليه في الصفحات القادمة .

ثامناً : أعطى فوكوه دفعة جديدة للمناقشات الدائرة الآن بخصوص «دور الذات» . وكشف عن قوى ثقافية واجتماعية يمكنها أن تدعم كوجيتو من نوع جديد .

تاسعاً : يرجع الفضل لفوكوه في أنه انتقل بالبنائية من «السينكرونية» أو «التزامن» و«الثبات» ، (وهي من صفات الانساق والبناءات ) ، إلى «الدياكرونية» أو التاريخ وما يتصف به من تعاقب للأحداث . ونجح في التوفيق بين الاتجاهين .

عاشراً : لا حظت الباحثة آني جيديه GUEDEZ أن فلسفة فوكوه تكون مساراً جديداً لم يعرفه تاريخ الفلسفة من قبل : إنها ليست اتجاهات حتمياً مثل سائر الاتجاهات البنائية ، كما أنها يستحيل أن تلتقي مفاهيمها مع فلسفات الحرية ، وربما كانت أقرب إلى مفاهيم الاحتمال لتأثرها بروح العلم المعاصر (٢٦) . وهكذا نقوم بفصل تعسفي لأساسيات المنهج عند فوكوه . ولا نود أن نتوقف كثيراً لمناقشة ما تمخض عنه المنهج من تطبيقات في مجالات مختلفة ، وسنكتفي بما أوردناه — بهذا الخصوص — في فصول الباب الثاني من الكتاب . غير أننا — في تقييمنا لأعمال فوكوه — نود أن نتعرض لنقطتين هامتين سبقت الإشارة إليهما ضمناً في مواضع سابقة :

النقطة الأولى تتصل بظهور الطب والعلاج كموضوع للدراسة الفلسفية التي تسأل عن أصوله أو شروط ظهوره . ولحق نقول أن فوكوه لم يكن أول من ابتكر هذه الدراسة . فقد ظهرت في فرنسا دراسات مماثلة نشرتها المطابع الجامعية الفرنسية ضمن مجموعة كتب «جاليان» «GALIEN» Collection ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر كتاب «السوي والمرضى» Le normal et le pathologique تأليف كانجولهم G. CANGUILHEM ، وكتاب «العقل والعلاج» La raison et les remèdes تأليف داجونيه F. DAGOGNET وكتاب «ميثولوجيا الطب الحديث»

---

(26) Annie GUEDEZ : op. cit., P. 71.

Mythologies de la médecine moderne تأليف J. -C. SOURNIA بالإضافة إلى كتاب «مولد العيادة» فوكوه الذى طبع للمرة الثالثة ضمن نفس المجموعة سنة ١٩٧٥ . ولم يكن العالم الناطق بالانجليزية بمعزل عن هذه الدراسات الفلسفية الطبية . فقد حدثنا الأستاذ الدكتور عزمى اسلام عن كتاب ألفه «ليدرمان» بعنوان «الفلسفة والطب» Philosophy and Medicine نشره بلندن سنة ١٩٧٠ «تافستوك» Tavistock . ويقول الدكتور عزمى اسلام عن هذا الكتاب : «قام (المؤلف) بتأصيل النظرية الطبية تأصيلاً فلسفياً وذلك بذكر أهم الفلسفات التى تبنى الممارسة الطبية تطبيقاً لها ... وبذلك يكون قد أسهم إسهاماً كبيراً فى تطوير أحد المجالات الهامة التى تتناولها وتهم ببحثها فلسفة العلوم المعاصرة» (٢٧).

أما النقطة الثانية فهى تتصل بالكشف عن علاقات السلطة Pouvoir داخل المقال . وهنا أيضاً لا يقف فوكوه وحده على المسرح بل يشترك معه آخرون. فنجد مثلاً أن رولان بارت Barthes الأستاذ بالكوليج دى فرانس يصرح فى «درسه الافتتاحى» «بأن للسلطة وجوداً داخل الآليات الدقيقة للعلاقات الاجتماعية. وهى لا تصدر فقط عن الدولة أو الطبقات الاجتماعية أو الجماعات المختلفة ، بل إنها تكن أيضاً فى طرز الأزياء modes والآراء الشائعة، والمسرحيات ، والألعاب الرياضية ، ووسائل الاعلام ، والعلاقات العائلية والخاصة» (٢٨).

---

(٢٧) الدكتور عزمى اسلام : «الفلسفة والطب ليدرمان» ، (مقالة بمجلة «عالم الفكر» ، المجلد السادس ، العدد الثالث ، سنة ١٩٧٥) ، ص ٩١٩ ، ٩٣٠ .  
 (28) Roland BARTHES : Op. cit.,  
 راجع أيضاً هامش ص ٢٩٥ .

والطريف حقاً في هذا الموضوع هو ما يزعم فوكوه القيام به الآن. ففي أواخر عام ١٩٧٦م ظهر له كتيب بعنوان «تاريخ الجنس» اعتبره مدخلا لمؤلفات تقادمة لتخصص في دراسة أركيولوجية للعلاقة بين الجنس والسلطة والمقتل. غير أن النقاد يجمعون سلفاً على صعوبة التوصل إلى نتائج إيجابية في هذا المجال: إذ كيف يمكن أن يطبق على الجنس *sexe* نفس المنهج التحليلي الذي استخدم في دراسة المقال الطبي والاضطراب العقلي؟ لقد كانت هذه الدراسات الأخيرة تنصب على واقع معروف ومقنن اجتماعياً بينما تحتفظ مشكلات الجنس دائماً بنوعيتها، وتفرداها، إن في ترجمتها إلى مقال نظري لفهم أبعادها الاجتماعية وإن في علاقتها بمقال السلطة. ولذا نلاحظ أن المشكلة الأساسية تتلخص في كيفية الحصول على مقال نظري عن الجنس. وثمة فارق بين المقال النظري وبين أي حديث عام، فهذا الأخير نجدده يصورة مختلفة لدى البشر منذ أمد طويل. أما المقال النظري الذي يصعب الحصول عليه فهو الذي يهدف إلى تقديم تفسير لظواهر الجنس لا ينبثق عن شهادة عينية وليس نتيجة لإبداع الخيال وليس قصصاً كما أنه ليس تأملاً، ولذا يصعب الحصول عليه. ويتساءل أندريه بورجيير *BURGUIERE* في مقال له عن هذا المشروع الأخير لفوكوه: أليس من التناقض أن نتعرض بالمقال لمجال يحتاج الجزء الأكبر منه داخل اللاقول؟ *dans le non-dit* (٢٩) (أي يتعذر الإفصاح عنه).

وإذا كان فوكوه نفسه يعترف بأن «حضرنا هي الوحيدة التي ظهر

---

(29) André BURGUIERE : Article sur "la volonté de savoir" de "Michel FOUCAULT", dans : (Le Nouvel Observateur, No. 638 du 31 Jan. 1977), P. 66.

بها من. يتقاضون أجوراً في مقابل استماعهم لمن يسرون إليهم. بأسرارهم الجنسية» (٣٠). (يقصد الأطباء النفسيين)، فكيف يمكن أن نكتب تاريخاً في هذا الموضوع يشمل الحضارات الأخرى التي سبقتنا ؟.

ومهما كان من شيء، فإننا نميل إلى تأجيل الحكم في هذا الموضوع حتى تتضح الكلمة الأخيرة فيه بظهور ما وعد به فوكوه من مؤلفات. ونرى أن علاقة السلطة بالمقال — في كتابات فوكوه — تصلح لعمل دراسة مستقلة لأهميتها. والسؤال الذي يفرض نفسه بإلحاح على كل قارئ لكتابات فوكوه هو : ماذا يكون المقال الأركيولوجي ؟ تاريخ أم فلسفة ؟.

وعلى هذا السؤال يجيب فوكوه :

«إذا كانت الفلسفة هي تذكر أو بحث عن الأصول

origines فإن ماقت به لا يمكن اعتباره فلسفة. وإذا كان

التاريخ ينحصر في إعادة الحياة إلى أشكال تكاد تكون

مطموسة ، فإن ما أقوم به ليس تاريخاً» (٣١).

وهكذا يتبرأ فوكوه من فلسفة تتساءل عن الأصول ، وتعتمد على التذكر ، وتدخل الذات الترانسندنتالية ، وتبتعد بالتالي عن الحقائق الموضوعية ، كما يرفض أن يكون مؤرخاً تقليدياً على النحو الذي يقوم به تاريخ الأفكار .

ماذا يكون المقال الأركيولوجي إذن ؟ .

هناك من يقول أن التطبيقات الأركيولوجية في مجال الطب والطب العقلي تقرب فوكوه من علوم الاجتماع . وكانت الحجة في هذا القول أن الجنون ليس

---

(30) Michel FOUCAULT : "La Volonté de Savoir" Gallimard, 1976), P. 14.

(٣١) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٦٨ .

كياتاً مستقلاً بل علاقة مسجلة في صميم الواقع الاجتماعي ، وأن المرض ليس مرضاً إلا داخل ثقافة تعترف به من حيث هو كذلك (٣٢) . ولورد على هذا نقول : إن عالم الاجتماع يقرأ شفرة الواقع الاجتماعي كما تظهر أمام الملاحظ بطريقة مباشرة ، فيدرك التشابه بين الثقافات أو الاختلاف بينها . أما فوكوه ، فإنه يبحث فيما وراء المعطيات الفينومينولوجية عن «نسق» أو «بناء» . ونلاحظ أيضاً أن عالم الاجتماع ينظر إلى الجنون نظرة سلبية باعتباره خروجاً على القاعدة أو «المعيار» ، في حين أن فوكوه ينسب إلى «الجنون» معنى إيجابياً يقول بضرورة الكشف عنه . فالجنون ليس مجرد موضوع معرفة فحسب ، بل هو أيضاً وسيلة معرفة (٣٣) .

ويتضح مما تقدم أن فوكوه ليس عالم اجتماع وليس مؤرخاً ، كما أنه ليس فيلسوفاً تقليدياً ، «فالفلسفات الكبرى لا تكتفى بالإجابة على أسئلة قديمة» . ومن ثم ، فقد قيل عنه بحق أنه «جدد الفلسفة المعاصرة» (٣٤) . إن أر كيولوجيا المعرفة قد فجرت المجال الهاديء والمنظم ، والذي كانت تسبح فيه الفلسفة التقليدية . فميشيل فوكوه يجبر الفلاسفة على التساؤل عن الفلسفة ذاتها : عن أسسها ، ومكانتها ، وضمان مشروعيتها .

وقد كان التفكير الفلسفي منذ بداياته الأولى عند اليونان لا يلبث أن ينبثق عن ذات متسامية ، تستقل بذاتها في البحث عن الحقيقة (autonomie de l'esprit dans la recherche) . واستمر هذا الاستقلال منذ سقراط صاحب الصيغة

---

(32) Annie GUEDEZ : "Foucault" op. cit., PP. 24-25.

والدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٣٣) راجع : «الاغتراب والفكر المعاصر» ، الفصل الخامس .

(34) Angèle KREMER-MARIETTI : "Michel FOUCAULT", op. cit. (Voir note de l'Editeur sur la couverture.).



المشهورة «إعرف نفسك بنفسك» ، وأفلاطون الذي يصرح بأن «العلم تذكرة» ،  
وديكارت صاحب نظرية «الآفكار الفطرية» . وقد عبر عن هذا الإستقلال  
أيضاً الفيلسوف جاسبرس (١٨٨٣ - ) ، فعنده نجد «أن مسار الفكر الفلسفي  
يشهد اهتماماً بالتساؤلات أكثر من اهتمامه بالاجابة عنها» (٣٥) ! .

ولذا كان هذا هو حال الفلسفة التقليدية ، فإن الفيلسوف المعاصر لم يعد  
متأملاً لذاته باعتباره «ذاتا ترانسندنتالية» بل باعتباره كائناً تاريخياً . فهل كان  
ذلك بتأثير «المادية التاريخية» ؟ ..

قال سارتر في كتاب ظهر له سنة ١٩٦٠ أن «الماركسية هي فلسفة العصر» .  
واستطرد قائلاً : «إن التجزؤ على تجاوز الفكر الماركسي هو - على أسوأ  
الفروض - عودة إلى ما قبل الماركسية ، وعلى أحسنها اكتشاف لتفكير  
متضمن أصلاً في الفلسفة التي ظن المفكر أنه تجاوزها» (٣٦) . وهذا يعني  
أن «أركيولوجيا المعرفة» إما أن تكون متضمنة في الفكر الماركسي وإما  
أن تكون فلسفة «رجعية» réactionnaire (وهو التعبير الذي يطلقه الماركسيون  
على أى فلسفة مثالية أو سابقة على الماركسية prémarxiste ) . وسننظر في  
الأمر بإمعان .

يقول ماركس في كتاب «الإيديولوجيا الألمانية» :

«إن المقدمات التي نبدأ منها هي أسس واقعية لا يكون

إهمالها إلا ضرباً من الخيال . إنها الأفراد العاشون

---

(35) JASPERS : "Introduction à la philosophie", cité par :  
Denis Huisman & André Vergez in "La Philosophie en 1500 citations",

( Fernand NATHAN, 1963 ), P. II.

(36) J.P. SARTRE : "Critique de la raison dialectique" op.  
cit., P. 70.

(réels) ، وما يقومون به من عمل ، وأيضاً .  
الظروف المادية لوجودهم ، ما وجدوه منها جاهزاً .  
ولدت تولد نتيجة عملهم» (٣٧) .

وجاء في «أركيولوجيا المعرفة» لفوكوه أن أبحاثه تنصب أساساً على  
المنطوقات ، وعلى التكوينات المقالة les formations discursives . فهو يقوم  
«بمقارنتها ببعضها ، وبإظهار التقابل فيما بينها من خلال السياق الذي تظهر فيه ،  
وكذلك تمييزها عن مثيلاتها التي لا تتزامن معها ، ثم إيجاد علاقتها الخاصة  
مع الممارسات غير المقالة les pratiques non-discursives التي تحيط بها وتكون منها  
بمناسبة مبدئها العام» (٣٨) .

فهل يمكن — رغم التباعد الظاهر — من هذين النصين أن تقرب بن  
ماركس وفوكوه ؟ .

ربما كان البحث في علاقة المنطوقات بالممارسات غير المقالة هي النقطة  
الوحيدة التي يلتقي عندها الفيلسوفان . وقد أثبتت الباحثة دومينيك ليكور  
Dominique LECOURT (٣٩) هذا الالتقاء استناداً إلى أن الماركسية وهي التي  
أرست دعائم «المادية التاريخية» كانت فعلاً في حاجة لنظرية تصف البناءات  
الفوقية Superstructures وتبرر ظهور الممارسات المقالة . وعلى هذا يكون  
فوكوه مكماً للمسار الماركسي ، ويستبعد — بالتالي — أن يكون رجعيّاً .

(37) Karl Marx et Friedrich Engels "L' Idéologie allemande",  
(Editions sociales, 1965), P. 18.

Angèle KREMER-MARIETTI : Op. P. 108. ذكرته :

(٣٨) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٠٥ .

(39) Dominique LECOURT : Op. cit. PP. 127—133.

## المصطلحات البنيوية

- «اغتراب» أو «خجل» (بفتح الباء وسكون اللام).  
Aliénation :  
والكلمة تعنى بوجه عام علاقة اندماج بين الذات والموضوع.
- «مغترب» (بكسر الزاء) أو «خجل» (بكسر الباء)  
Aliéné (s) :  
وسكون اللام).
- «الآخر» وقد يقصد به الأغير ، كما يقصد به اللغة  
Autre ::  
ذاتها من حيث هى نظام حال أو «محايث» ولا شعورى  
بالنسبة للفرد .
- «غفل» (بضم الغين) وهى صفة للمجال أو النسق أو  
Anonyme :  
البنية التى تتكون فى غيبة الذات .
- «القبلى الملموس»  
A priori : (concret, historique)  
أو «التاريخى» ويقصد به عناصر البناء الثقافى السائد فى  
حقبة معينة .
- «الأرشيف» أو الخزانة التى تنطوى على أنماط المقال .  
Archive :
- «الأركيولوجيا» وتعنى «علم الآثار» . غير أن فوكوه  
Archéologie :  
يستخدمها استخداماً خاصاً (راجع الفصل الثانى) .
- «ثنائى» وهو حال النسق الذى يتكون من ازواج من  
Binaire :  
الحدود المتقابلة .
- اللغة من حيث هى تتابع للعلامات الدالة .  
Chaîne :
- «مجال غفل» (بضم الغين) .  
Champ anonyme :
- «مجال منطوق» .  
Champ énonciatif :
- «العيادة» (راجع الفصل الخامس).  
Clinique :

- Code : « قانون النسق » أو مجموع قواعد اللغة.
- Concret : « عيني » أو « ملموس » .
- Continuite : اتصال أو استمرار .
- Conventions : متواضعات (يوسف كرم : المعجم الفلسفي) .
- Coupure : « قطع » وهذا الاصطلاح يعني على وجه الخصوص  
عدم الاعتراف بالاستمرارية التي تربط « بالذات »  
(راجع الفصل الثاني) .
- Cumul : تراكم .
- Communication : تواصل (أو اتصال) .
- Cohésion fonctionnelle : تماسك وظيفي.
- Découpages : قطاعات (معرفية) ، يفترض أن تكون متماسكة  
داخل نسق أو بناء .
- Dédoublement : « مضاعفة » أو ازدواج .
- Dérailson : « عته » ، أو حالة غياب العقل
- Diachronie : « التعاقب » أو التطور ، يستخدم اليناثيون  
هذا الاصطلاح للدلالة على تغير يطرأ على النسق  
ويسمح بظهور نسق أو بناء جديد .
- Discours : مقال
- Discontinuité : عدم الاستمرارية (عدم اتصال)
- Dogmatique : نزعة « إيقانية » (ترجمة الدكتور زكريا إبراهيم)
- Données énonciatifs : معطيات « منطوقية » أو أو المنطوقات التي  
تكون موضوعا للبحث .

- «انتشار» المنطوقات. — Dispersion des énoncés :
- المجال الابدستمولوجى ، أو «الاستعداد المعرفى السائد» . — Epistémè :
- «منطوق» — ويقصد به كل رسالة صوتية أو مكتوبة : Enoncé :  
أو معبر عنها بالاشارات .
- عملية توصيل «الرسالة» ، ويندرج تحتها فعل «الصياغة» . — Enonciation :
- حدث مقالى . — Evénement discursif :
- مجال مكافى . — Espace :
- حالة التناهى . — Finitude :
- وقائع مقالية . — Faits discursifs :
- وقائع منطوقية . — Faits énonciatifs :
- وظيفة منطوقية . — Fonction énonciative :
- تكوين مقالى . — Formation discursive :
- علم للنحو يدرس قواعد التحول التى تخضع لها الجمل . — Grammaire Générative :
- الكمون أو «المحايشة» (ترجمة الدكتور زكريا ابراهيم) : Immanence :  
وهو من المبادئ الأساسية للمنهج البنائى ويقوم على  
تحليل الظاهرة من داخلها دون البحث عن مؤثرات  
خارجية . فعلم اللغة البنائى مثلاً يدرس النسق اللغوى  
دون النظر إلى الأفراد الذين يتحدثون اللغة .
- مؤسسات — نظم . — Institutions :
- بناء (تحتى) ، أو بنية سفلية (ترجمة زكريا ابراهيم) : — Infrastructure :

- Indicible : ما لا يمكن التعبير عنه بالقبول ، وهو من صفات «غير المتعقل» .
- Insensé : خجل ( بفتح الخاء وكسر الباء ) .
- Isotopie : اتساق الإدلولات داخل المقال .
- Limite : «حد» (المقال) ، وهو من الاصطلاحات الهامة عند فوكوه : لأنه يؤمن بالقطع ولا يعترف بالاستمرارية .
- Métalangage : «ما وراء اللغة» ، أو اللغة التي تضطلع بوصف لغة أخرى .
- Mutation : تحول .
- Mécanismes : آليات (ترجمة الدكتور زكريا ابراهيم) .
- Niveau énonciatif : المستوى المنطوق ، وهو موضوع الدراسة عند ميشيل فوكوه ، في مقابل المستويات اللغوية والمنطقية .
- Paradigme : علاقة التقابل ذو الدلالة بين لفظين أو أكثر .
- Période énonciative : حقبة منطوقية .
- Performance verbale : أداء لفظي .
- Phonème : وحدة صوتية .
- Phonétique : «علم الأصوات» ، وهو العلم الذي يدرس الجوانب الفسيولوجية لاستخدام الأصوات .
- Phonologie : «علم الأصوات الوظيفي» ، وهو يدرس العلاقة بين الأصوات التي تستخدمها اللغة .
- Rareté des «énoncés» : ندرة «المنطوقات» .
- Régularité des énoncés : اطراد «المنطوقات» .
- Ressemblance : مضاهاة ، أو «مشاكله» أو تشابه .

- «قطيعة» ، واللفظ يشير إلى حد يفصل بين الأنساق الثقافية ويفترض عدم الاستمرارية .
- Rupture :
- علم المدلولات .
- Sémantique (la) :
- علم الدالات .
- Séméiologie (la) :
- «علامة» ، وهى الكل الذى يتكون من دال ومدلول .
- Signe :
- دال (وهو الجانب المرئى أو المسموع من العلامة) .
- Signifiant :
- مدلول ، (وهو الجانب المجرد وغير الملموس للعلامة) .
- Signifié :
- تماثل .
- Similitude :
- اتجاهات عامة تبنى عن النسق الثقافى السائد .
- Stratégies :
- «بناء» ، أو «بنية» ، وهو كل يتكون من ظواهر متماسكة لا تكسب معناها إلا بانتمائها إلى هذا الكل .
- Structure :
- بناء (فوقى) .<sup>٦</sup>
- Superstructure :
- «التزامن» ، وهو من المبادئ الأساسية لدى البنائين ، ويفترض دراسة الأنساق بمعزل عن البعد الزمنى بعيداً عن التطور .
- Synchronie :
- «نسق» ، والنسق البنائى يفترض دائماً وجود أزواج للتقابل بين عناصره .
- Système :
- علم التصنيف .
- Taxinomia :
- الصفة المميزة «للدال» .
- Trait :





## المراجع

أولا : مؤلفات ميشيل فوكو :

- FOUCAULT MICHEL : "Maladie mentale et psychologie",  
(P.U. F. 1954).

— : "Histoire de la folie à l'âge classique", (Plon,  
1961).

— : "Naissance de la clinique", (P. U. F., 1963).

— : "Raymond Roussel", (Gallimard, 1963).

— : "Les mots et les choses", (Gallimard, 1966).

— : "L'Archéologie du Savoir", (Gallimard, 1969)

— L'Ordre du discours", (Gallimard, 1971).

— : "La Volonté de Savoir", (Gallimard, 1976)

نظراً : مراجع عن ميشيل فوكو والانتجاه البنائي بوجه عام :

١ - الدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، (مكتبة مصر، سنة ١٩٧٦).

٢ - الدكتور زكريا ابراهيم : «بين الاتصال والانفصال» ، (مقال بمجلة العربي الكويتية ، عدد يوليو سنة ١٩٧٦) .

٣ - عبد الوهاب جعفر : «المدخل الفلسفي للأنثروبولوجيا البنائية» ،  
(رسالة ماجستير ، مايو سنة ١٩٧٥ ، مكتبة كلية الآداب).

- BARTHES ROLAND: "Leçon inaugurale au Collège de France",  
in (Le Monde hebdo., No. 1472, du 13 Janvier 1977),

- BOUDON RAYMOND : "À quoi sert la notion de structure ?"  
(Gallimard, 1968).

- BURGELIN PIERRE : "L'Archéologie du Savoir", article in  
(Esprit, Mai 1967).

- BURGUIERE ANDRE: "La Volonté de Savoir de Michel Foucault",  
article dans (Le Nouvel Observateur No. 638, du 31 Jan. 1977).

- CRESSANT PIERRE : "Lévi-Strauss", (Psychothèque Ed.  
Universitaires, 1970).

- DELEUZE GILLES : "Un Nouvel Archiviste", article in (Critique,  
Mars 1970).

- DOMENACH J.M. : "Le Système et la personne", article in (Esprit,  
Mai 1967).

- DROIT ROGER-POL: "Le Père et sa Divine absence", article dans

(Le Monde hebdo. No. 1468 du 16 Décembre 1976).

- DROIT ROGER-POL : "Le Pouvoir et le sexe", article dans (Le Monde hebdo., No. 1477, du 17 Février 1977).
- DUFRENNE MIKEL : "La Philosophie du néo-positivisme", in (Esprit, Mai 1967).
- FAGES J. —B. : "Comprendre le Structuralisme", (Privat, Toulouse, 1968).
- GUEDEZ ANNIE : "Foucault", (Psychothèque, Editions Universitaires, 1972).
- KREMER-MARIETT ANHLE : "Michel Foucault", (Seghers, 1974).
- LECOURT DOMINIQUE : "Pour une critique de l'épistémologie", (Maspero, 1974).
- LEVI-STRAUSS CLAUDE : "Tristes Tropiques", (Plon, 1955).
- : "Le Cru et le Cuit", (Plon, 1964).
- : "L'homme nu", (Plon, 1971).
- MILLET LOUIS : „Le Structuralisme", (Psychothèque, Editions Universitaires, 1970).
- PALMIER J.M. : "Lacan", (Ed. Universitaires, Coll. Psychothèque, 1969).
- PARAINVIAL JEANNE : "Analyses structurales et idéologies structuralistes", (Privat, Toulouse, 1969).
- PIAGET JEAN : "Le Structuralisme", (Que sais-je), (P.U.F., No. 1311).
- POS H.J. : "Perspectives du Structuralisme", dans (Travaux du Cerc le linguistique de Prague 8., Prague, 1939).
- WAHL FRANÇOIS : "Le Structuralisme en philosophie", in "Qu'est-ce que le Structuralisme ?, Oeuvre collectif, (Seuil, 1968).

## ثالثاً : مراجع أخرى استعان بها الباحث :

- ١ - الدكتور زكريا ابراهيم : «دراسات في الفلسفة المعاصرة» ، (مكتبة مصر سنة ١٩٦٨) .
- ٢ - \_\_\_\_\_ : «برجسون» ، (دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨) .
- ٣ - الدكتور زكي نجيب محمود ، أحمد أمين : «قصة الفلسفة الحديثة» ، (لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٥٦) .
- ٤ - الدكتور عثمان أمين : «الفلسفة الرواقية» ، (مكتبة الانجلو المصرية سنة ١٩٧١) ، الطبعة الثالثة .
- ٥ - \_\_\_\_\_ : «التأملات في الفلسفة الأولى» ، (ترجمة) ، (مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥١) .
- ٦ - يوسف كرم : «تاريخ الفلسفة اليونانية» ، (لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٣) .
- ٧ - \_\_\_\_\_ : «تاريخ الفلسفة الحديثة» ، (دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٩) .
- ٨ - \_\_\_\_\_ : يوسف شلالة ، مراد وهبة : «المعجم الفلسفي» ، (دار الثقافة الجديدة ، سنة ١٩٧١) .
- ٩ - هنري توماس و دانالي توماس : «أعلام الفكر الأوروبي» . من سقراط

إلى سارتر»، ترجمة عثمان نوريه، (دار الهلال - يناير سنة ١٩٧٧)،  
الجزء الثاني .

١٠ - الدكتور عزمى اسلام : «الفلسفة والطب لليدرمان» (مقال بمجلة  
عالم الفكر ، المجلد السادس ، العدد الثالث ، سنة ١٩٧٥) .

١١ - على أدهم : «نيتشة وموقفه الرفض من التاريخ » ، (مقال بمجلة  
العربي الكويتية ، عدد ديسمبر سنة ١٩٧٥) .

- CASTEX P. : "Manuel des Etudes Littéraires IV", (Hachette, 1949).

- ENTHOVENJEAN PAUL : "Les Trois visages d'Edgar MORIN",  
(Entretien dans Le Nouvel Observateur, No.  
63 du 16 Mai 1977).

- LACOSTE JEAN : "Entretien avec Michel Serres", dans (La Quinzaine  
Littéraire du 16 Mars 1977).

- LACROIX JEAN : "Panorama de la philosophie française  
contemporaine (P.U.F, 1966).

- LALANDE ANDRH : "Vocabulaire Technique et Critique de la  
Philo-sophie", (P.U. F., 1962).

- ROBINET ANDRH : "La Philosophie française", (P.U.F., 1966).

- SARTRE J.P. : "Critique de la raison dialectique", (Gallimard, 1960)

- VERGEZ ANDRH & HUISMAN DENIS : "La Philosophie en 60  
chapitres", (Fernand Nathan, 1965).

- VERGEZ ANDRH & HUISMAN DENIS : "La Philosophie en 1500  
citations" (Fernand Nathan, 1965).

- WAGNER R. : "Grammaire du Français Classique et Moderne",  
(Hachette, 1962).

- GRAND LAROUSSE ENCYCLOPEDIQUE : "Supplément",  
(Larousse, 1970).



## إستدراك

أنبه القارئ إلى ضرورة تصحيح بعض الأخطاء التي وقعت سهواً وهي :

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢	١٩	بل إلى الكشف	بل إنهم يهدفون إلى الكشف
٧	١٠	نقتنع	نقتنع
٧	١٠	الغالبه	الغالبية
٧	١٢١١	ليس تصور من	ليس من
٥٣	٢	يكن	يكن
٧٢	١٦	ص ٤	ص ٣٦
٧٢	١٧	ص ٣٣	ص ٦٦
٧٥	١٧	ص ٢٠٩ بالرسالة	ص ٢٧٤ بالكتاب
٩٨	٧	مجتمع ثقاته	مجتمع تعتمد ثقاته
١٢١	١٨	ص ٩٥	ص ١٠٢
١٦٤	١٦	إلى القول	إلى أن القوا،
١٦٥	١	أطلعت	أطانت
١٧٦	١٢	لأختبار	لأختبار
١٧٧	١٩		(٤١) نفس المرجع، ص ١٦٦
١٩٦	٢	الجوار	الحوار
٢٦١	١٩	ص ٤١	ص ٧٥
٢٦٢	١٧	تجميعها	تجميعها
٢٦٣	١١	ص ١٠٥	ص ١٤٩
٢٦٥	١٠	وتختص	تختص
٢٧٦	١٥	بعد عتبة.	بعد إلى عتبة





# المحتويات

صفحة

البنوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكو

تصدير : ..... ١- ج

مقدمة : ..... ٢٩-١

## الباب الأول :

: ..... ١١٦-٣١ أركيولوجيا المعرفة

الفصل الأول : المنطوق ذرة المقال ..... ٣٣

الفصل الثاني : الاركيولوجيا وعلم تاريخ الأفكار ..... ٦٩

## الباب الثاني :

: ..... ٢٥٦-١١٧ تطبيقات أركيولوجية

الفصل الثالث : الأنساق المعرفية والعصور التاريخية ... ١١٩-

الفصل الرابع : ظهور الطب النفسى ..... ١٥٧

الفصل الخامس : مولد العيادة ونشأة علم الطب ..... ٢٠٩

## الباب الثالث :

الأركيولوجيا ونسق العلوم ..... ٣٠٩-٢٥٧

الفصل السادس : العلم والمعرفة ..... ٢٥٩

الفصل السابع : نظرة أركيولوجيا المعرفة للإنسان ..... ٢٨٣

تقييم وتعقيب : ..... ٣١٠

أهم المصطلحات البنوية : ..... ٣٢٩

المراجع : ..... ٣٣٥

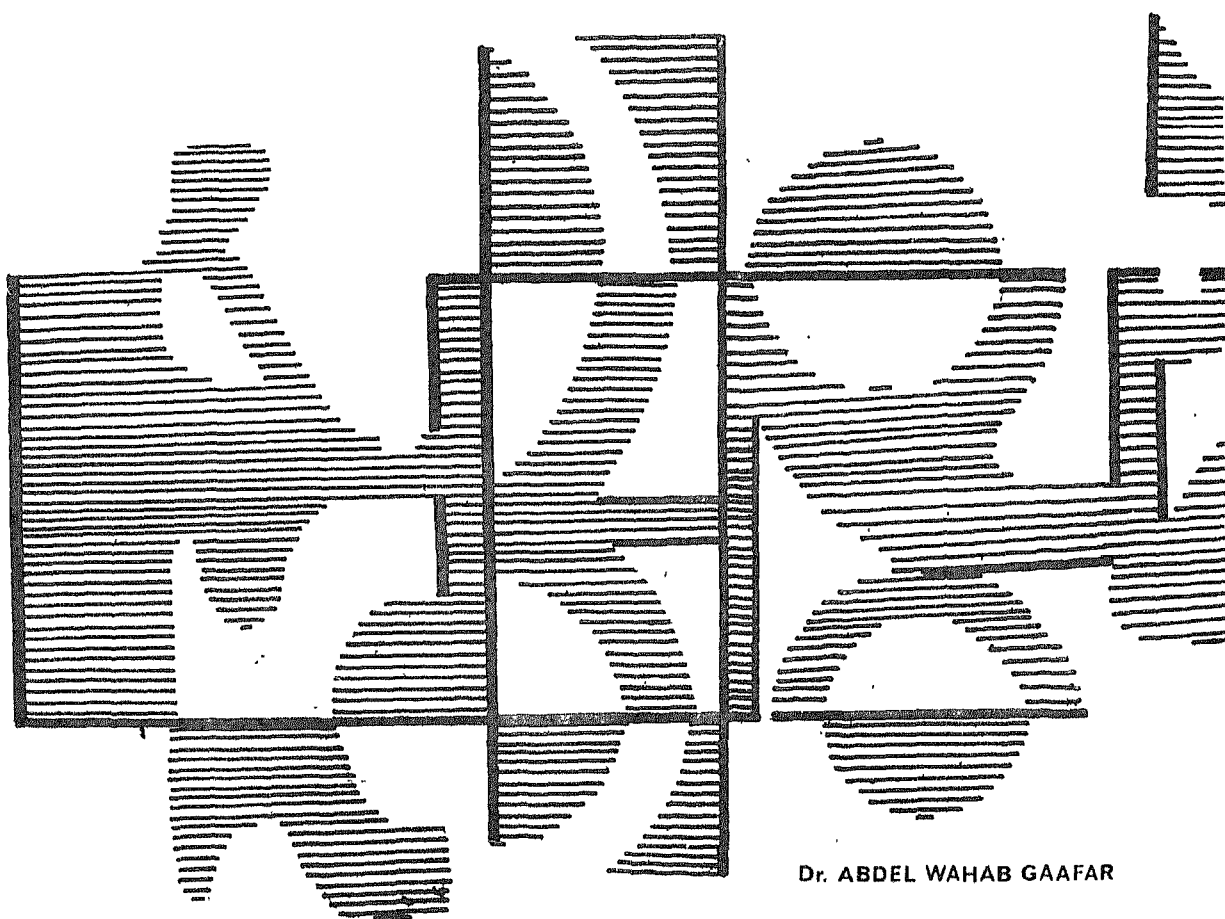
دار نور الفجر  
للطباعة والتجليد  
١٧ شمس مسجد الحفري  
ت : ٤٩١١٤٥٠



# Le STRUCTURALISME

## Chez

### MICHEL FOUCAULT



Dr. ABDEL WAHAB GAA FAR

٢/١١٤٣.٢